# باب الجنزي

رواية

إسلام البنّا

الرواق للنشر والتوزيع

# إهداء

إلى سيدات صنعن مني كاتبًا... أذكركن بالأسماء لا بالصفات

أميمة عبدالعزيز... ماجدة فهمي... نانسي صدقي

تفانيكم وإيمانكم لا حدود له.

وَكم ذا بِمِصرَ مِنَ المُضحِكاتِ     وَلَـكِـنَّـهُ ضَـحِـكٌ كَالبُكا

المتنبي

# الفصل الأول

## (١)

يتذكر سعيد الرفاعي تلك الليلة جيدًا، شتاء قارس، أوائل شهر طوبة سنة ١٩٧٧، وكما تقول أمه دائمًا، "طوبة تخلي الصبية كركوبة"... لذا فقد كان سعيد يرقد تحت أكوام من الأغطية البالية اتقاء التحول إلى "كركوب" وهو لم يكمل عقده الثالث بعد.

بدا أن الصراخ يأتيه من جوف بئر سحيق... صوت بعيد لا يميز... أخذ الصوت يزداد قوة، يعبث بطبلة أذنه. لكن ما أفاقه من غفوته في النهاية كانت قدم أخيه الصغير التي انغرست في بطنه بينما يحاول القفز من السرير الذي يجمع ثلاثة من الإخوة.

صرخ سعيد ألمًا وغمغم ببعض اللعنات فيما خرج أخوه من الغرفة عدوًا، كان الجو يحمل رطوبة الليل وقرصة الشتاء، الظلام يخيم على الغرفة الضيقة فيما يتسلل بصيصُ ضوءٍ خافت من بين شقوق النافذة الخشبية المهترئة... لازال عقله خاملًا بين النوم واليقظة... لكنه سرعان

ما أدرك أن جميع من في الدار يهرولون نحو الصراخ والجلبة التي بدت واضحة الآن.

عاد أخوه الصغير إلى الغرفة واستل عصًا صغيرة فأمسك بيده قبل أن يخرج قائلا

في إيه؟

خرجت الكلمات ثقيلة من فم سعيد فقال أخوه بين أنفاسه اللاهثة

حرامية... عايزين يسرقوا الباب

أفلت سعيد ذراعه وألقى عليه جلبابه الشتوي.

في الخارج كانت طُرُقات باب الحجازي مظلمة إلا من نور كلوبات بعيدة أضاءها الأهالي ذاهبين بها إلى الباب، برغم الهواء الذي يزأر بين الطرقات المنكمشة متوعدًا الخارجين في تلك الساعة المتأخرة.

كلما مر سعيد في طريقه بجمع تبين له جزءٌ جديد من القصة القديمة... عندما وصل إلى الباب، كان الأهالي قد تجمعوا حوله كسرب من الزنابير الغاضبة... يحتمون من خوفهم بفقد الباب بالتمترس حوله... وبرغم وجود الشيخ عبد الكريم، شيخ الحضرة الذي يجله الجميع، تعالت الأصوات المستنكرة تتخللها فترات من السباب الجماعي... بينما الشيخ عبد الكريم صامت في وقاره الراسخ... يغيم وجهه بسحابة عابرة كلما تعالى السباب.

خلف الجموع الغاضبة انتصب الباب شامخًا، كأنما يعلن عدم اكتراثه لتلك الجلبة التي تُثار حوله. انتاب سعيد ذلك الشعور الذي يغشاه كلما نظر إلى الباب... شيء ما في تلك السطور التي تتوسطه... في تلك الحروف البارزة التي تنتمي إلى لغة غريبة لا يعرفها، يبعث في نفسه

شعور بالرهبة والسلام في آن معًا. يحرس ذلك الباب المهيب مقام سيدي الحجازي الذي يتربع خلفه، تعلوه قبة مخروطية شاهقة، تنتصب كإصبع ضخم يخترق الأرض ليشير إلى السماء... يتصل بالضريح قاعة السماع الرئيسة، أو السمعخانة كما يسميها دراويش المقام.

ميز سعيد وجه أبيه بين الوجوه المكفهرة، لكن أباه لم يلتفت له... لم يكن غريبًا أن يتوتر الجميع إلى هذا الحد عندما يتعلق الأمر بالباب الذي يعده أهل باب الحجازي، الواقعة في أحضان دلتا النيل، حلقة وصل بين عالمين، أحيانًا يتقاربان فيكادا يتلامسان وأحيانًا تفصلهما مسافات لا متناهية... عالمنا وعالم الغيب الذي لا يحيط به ولا يملك مفاتيحه سوى المولى عز وجل. ذلك العالم المقدس الحاضر في نبض باب الحجازي وأحاديثها... وما يتصل به من أمور القدر والرزق والعمر والبركة... وعوالم باطنية وراء عالم البشر تستثير الخيال، يتصورها فلاحو القرية عوالم سفلية مظلمة تعج بساكني الأرض من الجان الكافر والعفاريت، حيث تروج تجارة السحر والأعمال على رؤوس شوارعها المدنسة... يأكلهم الرعب من احتمال أن يطل جن برأسه من فتحة فرن الخبز حيث النيران التي يشعر معها بالأنس أو أن يجد أحدهم عفريتًا ما في المرحاض أو الزريبة.

يزودهم الباب والمقام بإحساس خاص يدمج واقعهم بذلك العالم المستور الذي يغلفه إطار من الرهبة والطمع في استراق لمحة منه... يأملون في فيض من كرم الله يهون عليهم شقاء العيش ويتعوذون مما قد يحمله ذلك العالم من شرور... يتعلقون بالرحمة الإلهية العليا التي لا توازيها أي قوة من كل ما يكرهون... الرحمة التي تمثل مصدرًا لا ينضب لتهوين شظف العيش. لكن برغم الشقاء، إلا أن أهل باب الحجازي مؤمنون بالقدر، صبورون يقبلون بالأشياء كما هي... مما يحيل

الشقاء إلى عادة ما تلبث أن تضمحل في رتابة حياتهم اليومية ليحل الرضا بالنصيب وتحل معها الروح المرحة في حكاوي المساطب التي لا تخلو عادة من ذكر الباب.

سريعًا ما قرر الرجال، كالعادة، الذهاب في أثر الشرذمة التي أرادت سرقة الباب... تسلح البعض بالعصي والفؤوس وانقسموا مجموعات صغيرة، تحركت مجموعة نحو عزبة فؤاد خيري باشا، بينما ذهب وفدٌ آخر نحو الغيطان في الحوض القبلي للقرية عند الترعة يحملون الكلوبات... أبصر سعيد أخاه الصغير يقبض على عصاه وينضم إلى جمع الرجال فنهره، لكنه لم يعره اهتماما ومضى قدمًا في البحث مع الجماهير الغاضبة.

تعمد سعيد أن يبتعد عن الجمع الذاهب إلى الغيطان، حيث الترعة، مقبرة الليل والنهار، التي تحمل أبغض ذكرياته إلى نفسه... اتخذ طريقه مع الرجال نحو العزبة... تتدافع السيقان ليرتفع حفيفها في الجلاليب... تنهل الأقدام من تراب المدقات الضيقة تتقي السقوط في جنح الظلام الساخر من ضوء الكلوبات. بعد نحو نصف ساعة من السير في صمت، أشار فلاح هزيل بصوت خفيض حذر بضرورة إخطار المركز كي تساهم الشرطة في تعقب هؤلاء الحثالة... وما كاد الرجل ينهي كلمته حتى نهره الرجال:

نقول للحاج سيد خطاب وهو يشوف الصالح يعمله

هكذا قال الأستاذ عبد الحميد، أحد المتعلمين القلائل في القرية، فأمَّن الجميع على كلامه.

كان ذكر اسم سيد خطاب كافيًا لبعث مزيج من مشاعر الكراهية والحنق في نفس سعيد... لكنَّ أجواء البحث على ضوء الكلوبات ذكَّرته

حادثه القديمة وبعثت في نفسه سيلًا من المرارة تغلبت على مشاعر الكراهية... حاول سعيد دفع تلك الذكريات الجاثمة على حياته وانهمك في البحث... كان يعلم في قرارة نفسه أنهم لن يجدوا للصوص أثرًا... كما يعلم أن سيد خطاب لن يحرك ساكنًا من أجل البحث عنهم. لعنه مجددًا في قرارة نفسه بينما انهمك الرجال حوله، متجاهلينه تمامًا كما لو لم يكن معهم، في أحاديث جماعية عن المرة الأخيرة التي ذهبوا فيها في أثر الأشباح التي تحاول اقتناص الباب، وسرعان ما تشعبت الأحاديث إلى أصل الباب ذاته... وككل شيء يخص تاريخ القرية، فقد تنوعت حكاوي الرجال عن نشأة الباب ومصدره... قال أحدهم أن أهل القرية منذ زمن جدود الجدود استيقظوا ذات صباح ليجدوا ذلك الباب على دار مولانا الحجازي، الذي كان من أصحاب الخطوة ـ وهم قوم من أولياء الله الصالحين اختصهم الله بكرامة الخطوه فلا تحدهم المسافات، فيخطو العارف منهم بالله من داره فيقع في بيت الله الحرام ـ وصلتهم بعدها أنباء عن اختفاء باب الكعبة المشرفة

يا رجالة محدش سمع إن باب الكعبة اتاخد... انتم بتصدقوا الكلام ده برضو

هكذا قال الأستاذ عبد الحميد علام في نفاذ صبر فانبرئ صاحب الرواية في الدفاع عنها بتأكيد أن أهل الحل والعقد في بلاد الحجاز أرادوا التكتم على الخبر فسارعوا بتركيب ذلك الباب الذهبي في مدخل الكعبة، إلا أن باب الكعبة الأصلي هو ذلك الباب الذي يحرس مقام سيدي الحجازي

أمال انتم فاكرينهم سموا سيدي الحجازي، حجازي ليه!

أومأ البعض بالإيجاب بينما أكَّد آخر بيقين العارفين ببواطن الأمور أن

الباب أحد مخلفات الفراعنة الموصول بقوة سفلية مازالت تعمل حتى يومنا هذا، وأن مولانا الحجازي أحضره ليحمي داره في غيابه.

يا جدعان دي أساطير ملهاش أصل

هكذا عاود الأستاذ عبد الحميد القول في حنق فابتسم سعيد ابتسامة أخفت معالمَها الظلمةُ... يعلم أن الأستاذ عبد الحميد من القلائل الذين يرون المبالغات في تلك الحكاوي، حتى أنه أسر لسعيد ذات ليلة بأنه يجنح إلى الاعتقاد أن "سيدي الحجازي" خرافة متوارثة وأن الرجل لم يوجد من الأصل، كما أخبره أن هناك مقام آخر يحمل نفس الاسم بالصعيد يدَّعي مريدوه هناك أنه دُفِن به. وإن عجز الأستاذ عبد الحميد عن إيجاد تفسير مناسب لنشوء الأسطورة أو حتى شرح كيفية وجود الباب من الأساس.

استمر الجدل حتى تجاوز الرجال المصرف ووصلوا إلى بوابة عزبة فؤاد خيري باشا فقام خفر العزبة لاستقصاء الأمر وقد غطت "تلفيحات" من الصوف البني معظم وجوههم اتقاءً للبرد. سألهم الرجال إن كانوا لاحظوا جماعة تعدو أو سمعوا صوتًا غريبًا في العزبة لكن الخفر أجابوا بالنفي.

بالرغم من عمل والد سعيد، علي الرفاعي، في نظارة العزبة... إلا أن سعيد نادرًا ما كان يأتيها، حتى عندما يقضي أبوه يومه كاملًا في العزبه في أيام البذر والحصاد، كانت أمه تبعث بإخوته الصغار حاملين الطعام إلى والده... لذا فقد بدت السراي الضخمة مع الأنوار التي أحاطت الأسوار مشهدًا مهيبًا بعث في نفسه شعورًا بالضآلة. اجتزه صوت الخفير الخشن من سهوه وهو يقول:

ولاد الهرمة عايزين يسرقوا الباب تاني... دحنا فاضلنا كام

شهر على المولد... خلاص مبقاش فيه خِشَا

خرج الكلام من شفاه الخفير، التي تلونت بزرقة قاتمة بفعل البرد، محملًا ببخار أبيض من أثر الصقيع

عالم مبتخفش من ربنا... تسرق مقام ولي من أولياء الله

هكذا عقَّب أحد الرجال على قول الخفير بينما كان سعيد يحاول استراق النظر من خلال البوابة إلى الطريق المؤدي إلى السراي... مال قليلًا إلى اليمين كي يحسن من زاوية الرؤية لعله يلمح أحد التماثيل التي تزين مدخل السراي إلا أن شيئًا ما علق بجلبابه، ثم سمع ذلك الصوت المكتوم لتمزق القماش يخرق صمت الليل... شعر سعيد بالأعين تتحول إليه، تخترق روحه، خاصة الخفير الذي جفل عندما تبين وجهه

بسم الله الحافظ

هكذا دمدم الخفير، ثم قال بعد تردد

إزي أبوك يا سعيد... اقعدوا اشربوا شاي يا رجالة

برغم ضعف الإضاءة و"التلفيحة" التي تغطي معظم وجه الخفير، إلا أن سعيد ميَّز تلك النظرة التي يصادفها مرارًا في اليوم الواحد... نظرة يمتزج فيها الجزع بالنفور... بعثت في نفسه سيلًا من الذكريات المريرة، والرفض، والاستهزاء، والعزلة الجبرية، والإشاعات الخبيثة التي تنتقل في الريف كالهواء... فالحكايات القديمة تموت ببطء، هذا إن ماتت قبل موت صاحبها. استشعر سعيد العواقب التي قفزت إلى ذهنه كالطوفان إن خرجت حروف كلماته محتضرة كعادتها... هل سيضحك الجمع، هل سيسخرون من لسانه العليل، أم الأسوأ، سيتجاهلونه تمامًا ليجيبه الصمت القاتل... كيف سيبدو في أعين مَن حوله حينها... أسوأ ما في الأمر أن

توتره يزيد من تلعثمه سوءًا... وهكذا أجاب سؤال الخفير، الذي أدار ظهره وانصرف، بالصمت التام ونظرة تقطر غضبًا مكتومًا يصهر أمعاءه.

عاد كل حي إلى داره، وبقي البعض يتسامرون على المساطب أمام الدور... جرجر سعيد نفسًا أثختها الجراح إلى دار بُنِيَت من الطين النيء... دلف إلى حوش الدار فاستقبلته أمه وأخته زينب التي بادرته بالسؤال إن كان بحثهم أفضى إلى شيء هذه المرة فهز رأسه بالنفي وغمغم بشيء لم تميزه...

إيه اللي قطع الجلبية يا سعيد

هكذا قالت أمه بعصبية

عووو... ... د حطب ششش. شبك... فيها

خرجت الحروف ثقيلة متلعثمة من بين شفتيه... لازال يرى نظرة الخفير... سمع في ذلك الحين أباه يقول "يا بركة سيدنا النبي" قبل دخوله عتبة الدار ثم دلف بيمناه، تبعه أخواه الصغيران اللذان راحا يرويان في حماسة مغامراتهما في البحث عن اللصوص في العتمة الحالكة... يمثلان بأيديهما وأجسادهما الهزيلة ما يقولانه فتضحك أم سعيد وزينب... انسحب إلى الغرفة بينما أبوه يدمدم ببعض اللعنات على "أولاد الحرام" الذين غاب الدين عن قلوبهم حتى استحلوا سرقة أولاياء الله.

خلع سعيد جلبابه وجلس على حافة سرير أحال الزمن شراشفه إلى صفرة لا يجدي معها الغسيل... دقائق ودخلت زينب، التي ابتسمت في وجهه وناولته قُلة الماء وأخذت الجلباب الملقى بجواره

أنا حاخد الجلبية أخيطها لك... ولا يهمك يا سعيد... حتبقى أحسن من الجديدة... أنت اتجرحت؟

هز رأسه بالنفي وابتسم في وجهها امتنانًا ورفع القلة إلى فمه

تصبح على خير يا سعيد

وانتِ ممم... من أهله

على الرغم من وجوده داخل داره بين أهله، إلا أن سعيد لم يكن يجد الراحة الحقيقية سوى بالتقهقر داخل نفسه، إلى عالمه الخاص الهادئ حيث يجد به سكينة وأنس حُرِم منه في مجتمع لا يرحم. استخرج كتابًا من أسفل السرير تحفظ يده مكانه بين أكوام كتب السيرة والفقه التي احتلت المسافة الفاصلة بين السرير والأرض... لم يكن من المجدي إهلاك الوقت في محاولة بائسة للنوم وقد أوشكت أن تحين صلاة الفجر... قام وأشعل "اللمبة نمرة خمسة" وشرع في قراءة كتابه.

ما هي إلا دقائق حتى كان سعيد يحلق في عالم آخر، نسي روحه المثخنة بجراح الرفض والنفور وابتعدت عنه جوارح السخرية التي كادت أن تفتك به، تحمله الكلمات والسطور وتبحر به إلى عدل الله ورحمته... سلوانه الذي ينهل منه كالمحروم... كم يكره انحطاط الدنيا ويطمح في الآخرة حيث الكمال والسلام... حيث لا إهانات ولا تهتهة... حيث لا ينظر المولى إلى الصور والأجساد، بل لتقوى القلوب. لكن من أين لمن يسكن قرية هجرَتها الملائكة لوضاعة آثامها بدخول الجنة... انتزعه ذلك الخاطر من حالة الصفاء التي كان بها. لكن أذان الفجر الذي ارتفع من جامع الحجازي كان بمثابة إعلان انتهاء تلك الليلة الطويلة.

# (٢)

صبيحة اليوم التالي لم يكن هناك حديث لباب الحجازي سوى محاولة سرقة الباب... لم تكن تلك المرة الأولى التي يحاول أحدهم سرقته... فقد تعرض الباب لمحاولات سرقة عديدة من قِبل بعض الأراذل والأشقياء الذين لم يستدل أهل القرية على مسقط رأسهم، وإن كان أغلب الظن أنهم من عزبة كامل الملاصقة للقرية، فتجارتهم في الآثار تجعلهم المشتبه به الرئيسي، والباب العتيق بجانب كونه مصدر البركة للقرية وأهلها، فهو تحفة فنية يسيل لها لعاب هواة جمع الآثار لما له من هيبة وجلال، بطوله الشاهق الذي يربو على الأمتار الثلاثة... يزينه من أطرافه نقوش ومنحوتات هندسية ورموز ورسومات حيوانية بديعة... بينما تحتل منتصفة تلك الكلمات البارزة بلغتها القديمة قدم الأزل.

خرجت صحف ذلك اليوم تحمل في طياتها أخبارًا أذهبت لسعة شتاء طوبة البارد وأسكنت الجحيم في القلوب... ففي صفحاتها الأولى تصدرت قائمه بخمسة وعشرين سلعة قفزت أسعارها بلا مقدمات بعد

، ٥م الدعم الحكومي عنها... لم يكن أحد من سكان باب الحجازي ،٥ م بالصحف سوى الأستاذ عبد الحميد علام، فالسواد الأعظم من أهل القرية أميٌّ، فضلًا عن أن ثمن الصحيفة يعد إهلاكًا لدخل محتضر لا يكاد يكفي احتياجاتهم الأساسية... ورغم سخونة هذا الموضوع الذي ،سيل له لعاب الأستاذ عبد الحميد، متحدث القرية اللبق الذي يحترمه أهلها جميعًا كونه أستاذ بالمعهد الأزهري التابع للمركز، إلا أنه بحسه آثر السكوت عنه... سارت الحياة في ذلك اليوم كالمعتاد حتى تسربت الأخبار صباح اليوم التالي عبر أحد العائدين من القاهرة وانتشر الخبر كالنار في الهشيم، يلدغهم تصور وقْع ارتفاع الأسعار الذي سيحيل حياتهم إلى كابوس.

حل السخط وارتفعت الأصوات ولم يعد لباب الحجازي حديثٌ على مدار يومين سوى ذلك الخبر المشؤوم حتى حُلَّت عقدة لسان الأستاذ عبد الحميد، الذي التف حوله جمعٌ غفير من الرجال في جلاليبهم البلدية بعد صلاة العشاء... راح يبشر الأهالي بعدول السادات عن ذلك القرار، ولم يضع الفرصة ليضيف لمسته بتأكيد أن الرئيس يعلم حال الناس ويشعر بالفقير ولذا فقد أدَّب المحيطين به الذين اتخذوا ذلك القرار الأرعن، أطربت تلك الكلمات سعيد الرفاعي الذي يعشق السادات ولا يقبل عليه كلمة تسوءه، وسارع بها إلى أبيه، علي الرفاعي، الذي جلس يحتسي الشاي الساخن على المسطبة مع بعض جيرانه بعد أداء صلاة العشاء بالجامع... وبحلول تلك الأخبار السعيدة التي أراحت النفوس، أرسل علي الرفاعي في طلب كامل المجذوب، الذي تجمع الجالسون حوله فور حضوره، يلقمونه الاسم تلو الآخر، ليقلده كامل الذي يستطيع تقمص كل من في القرية... تبارى الجالسون في طرح الأسماء التي يريدون أن يسخروا منها. حتى أشار علي الرفاعي إلى أحد الجالسين

- قلدلنا رمضان

اكفهر وجه رمضان عندما أدرك أن كامل لا يقلده... بل يقلد امرأته فاطنة، وهي امرأة جرمة طويلة يخشاها الرجال كما النساء، اشتهرت بعبثها الذي يقال أنه يصل إلى حد الخطيئة، لكن رمضان لا يجرؤ على مواجهتها.

قفز كامل فوق ظهر كلبته الهزيلة، يجر رجليه في التراب كما تجر فاطنة رجليها وهي تركب حمارتها المسكينة التي يكاد ينقسم ظهرها تحت حمل المرأة... ثم ألقى بنفسه في التراب بجوار أقدامهم وقال بلثغته المحببة

لمضان ناعس

ثم هب واقفًا، يمشي مرتجًا كما تمشي فاطنة، واضعًا يديه على صدره يرجهما كما يرتج ثدياها، إلى أن وصل إلى مكان استلقى به أحد العيال وارتقا بطنه، ثم أخذ يتأوه كما النساء.

... آآآآه

راح يتلوى ثم أشار إلى رمضان

لمضان عامل زي الفتلة... فاطنة تركب الحُمُالة الصبح وتركبه بالليل

ضرب الجالسون على بواطن أقدامهم وهم يكركعون ضحكًا، بينما علا سباب رمضان الذي قام يعدو خلف كامل الذي أطلق ساقيه للريح وهرب، تعوي خلفه كلبته التي لا تفارقه.

بهروب كامل المجذوب انتقل الحديث إلى تلك الرحلة التي قام بها علي الرفاعي منذ سنوات طويلة وهو بعد شابًا مع عدد من رجال ونساء القرية إلى الحج... راح يروي لهم المشاهد التي رآها في الحجاز، والتي

لا تمل آذانهم من سماعها. ثم انتقل الحديث عن الباب وأصله، وأكد علي ماي بركاته... ثم تولى دفة الحديث كهلٌ هزيل يشبه مومياء استخرجت ا.و ها من إحدى غرف الدفن في الهرم الأكبر... إلا أنه يتمتع بحس دعابة عابث برغم سنوات عمره التي شارفت على التسعين... عاصر خلالها معيع مراحل التحول في تاريخ مصر الحديثة... عاصرها هو واعتصرته هي، ليبقى ذلك الهيكل العظمي المجسم برغم كل مآسي الحياة التي مر بها ولازال... أخذ يلقي النكات العابثة الواحدة تلو الأخرى.

قبل انتهاء الجلسة عاد كامل المجذوب... يتحسس طريقه خشية أن يضربه رمضان

العمدة عايز علي الرفاعي

هكذا قال كامل ثم عاود الهرب.

ذهب علي الرفاعي لدوار العمدة حيث وجد اتصالًا من القاهرة في انتظاره... أخبره آدم السناري، صديق ابنه مصطفى وبلدياته، بأن مصطفى قد أُلقِي القبض عليه في إحدى المظاهرات التي خرجت للاحتجاج على رفع الدعم... وقع ذلك الخبر على علي فقسم صلبه وأتى على ما تبقى له من جَلَدْ

وهو فين دلوقتي يا ابني

هكذا قال علي بصوت مرتعش من بين أنفاسه اللاهثة

محدش عارف... الدنيا مقلوبة من ساعة المظاهرات... الجيش نزل وناس كتير انقبض عليها... غير اللي ماتوا

لم يعد علي إلى جلسة المصطبة، بل عرج على الباب حيث أطلق لدموعه العنان، ينتحب في صمت بينما يدعو الله ألا يسوءه في فلذة

كبده، يحاول دفع ذلك القنوت الذي بدأ يتسلل إلى قلبه، لِمَ تنهال عليه المصائب وهو الذي لم يؤذ ذبابة في حياته، على النقيض من ذلك، فهو عون الفلاحين، يجاهد من أجل أن يجد عملًا لمن فقد عمله منهم، يؤدي صلواته في الجامع ويصل رحمه ويحسن إلى جيرانه، ففيما الابتلاء!

بالرغم أن مصطفى ليس وحيده، إلا أنه يعده عزوته... دائمًا ما يقول علي أنه عَثِر الحظ في أولاده... ظلت امرأته سنوات عاجزة عن الحمل... قاسى خلالها كلاهما من كلام أمه، وطلبها المباشر منه جهارًا نهارًا أن يبدل عتبه، حتى اضطُر لبناء دار مستقلة له ولزوجته على جزء من نصيبه من الأرض الزراعية، لتصبح زوجته ست الدار التي لا يتدخل أحد في شؤونها، وذلك ما لم تنسه له يومًا زوجته.

جرَّبت أم سعيد كل أنواع العطور والأعمال وحلقات الذكر، إلى أن فوجئ الجميع بحملها بعد خمس سنوات كاملة من الزواج. لكن المفاجأة الكبرى لم تكن في الحمل، بل عند الولادة... رُزق علي بتوأم... زينب وسعيد... يعجز علي عن وصف سعادته بسعيد بعد ولادته... إلى أن كبر الولد واكتشف أنه... أنه... يحتار في وصفه، أحيانًا يقول أنه بركة، "بتاع ربنا" ويتركه لكتبه وعالمه الخاص، وعندما تشتد به الظروف ويحتاج إلى ولد يتعكز عليه يصفه بأنه "خيبة" لا بد له من الخروج من شرنقته ليصبح رجلًا، فتدافع عنه أم سعيد بقولها أنه "ابن نظرة"، ثم تعدد أسماء النسوة من الأقارب وتصف كيف كانت أعينهن صفراء وهن ينظرن إليه عندما كان رضيعًا. ثم تحضره ذكرى آخر مرة دفعه للاختلاط التي تسببت في تلك الحادثة التي زادت من عزلة سعيد وأكسبته وصفًا جديدًا... الممسوس... فيقضم لسانه ويصمت تقتله حسرته على ابنه البكري.

ثم شاء المولى أن يرزقه مصطفى، زينة شباب باب الحجازي... يمثل كل ما يرنو إليه أب في ابنه... كان عون علي في كل ما يحتاج إليه ولم يقصِّر

• • يومًا بأي عمل صبياني كأقرانه... إلى أن أصابه "عفريت مصر
..ا، الهاجس الذي جعل الولد لا يطيق البقاء في البلدة... فاضطر إلى
مي لتوظيفه في القاهرة... وبرغم تمنُّع مصطفى عن العودة إلى باب
الحجازي منذ ذلك الحين وحتى بعد أن فقد عمله في الأوبرا الخديوية
ا سنوات وتنقله بين وظائف عديدة، إلا أنه كان يصبِّر نفسه بأن ابنه صار
ي له مستقبل عظيم وأن ما يمر به ما هو إلا عثرة عابرة... أما الآن
وقد ضاع المستقبل ففيما العزاء... لِمَ أصبحت يا مصطفى كالزرعة التي
ت بثمارها على الأرض التي نبتت بها... سار علي في غفلة تامة بينما
الدموع تتراكم في عينيه لا تجرؤ على الخروج حتى لم يعد يتبين طريقه،
لا يدري ماذا يفعل ولم أتى مصطفى على مثل ذلك الفعل الأهوج.

سقط رأسًا على داره فارتاعت زوجته وابنته حين تبينوا هول ما حل به
من وجهه الشاحب كوجوه الموتى وتقاسيمه الممتقعة... سارعت زينب
بملء قلة من "طرمبة" الماء ليبل جفاف حلقه وصرفت أخويها الصغار
ليلهوا خارج الدار، فيما قالت زوجته بعد أن أخرجت ما بفرن الخبيز على
عجل قبل أن يحترق

خير يا علي؟!

لم يجبها علي الذي ارتمى على حصيرة ملقاة على الأرض بجوار
غرفة الخزين ودفن وجهه في يديه

يا نهار إسود... مالك يا علي

خرجت الكلمات من فمه تقطر كمدًا

ابنك اتاخد السجن

أطلقت زوجته شهقة عالية خرج على إثرها سعيد من الزريبة وجلس
بجوار أبيه يتابع ما يجري في صمت

يا خبر إسود... اتسجن!! ليه؟ عمل إيه مصطفى؟

اتمسك في المظاهرات

لم تسأله أم سعيد عن ماهية المظاهرات ونهضت وهي تقول

انت حتفضل قاعد كده... أنا حنزل أدور عليه

اقعدي يامه... أبويا حيشوف صرفة

قالت ذلك زينب بحسم، فجلست أمها تنتحب وهي تقول

اتصرف... هاتلي ضناي، كلم فؤاد باشا يشوفله صرفة... هو بيحبك وبيحب مصطفى ومش حيتأخر عليك

جرالك إيه يا وليه... ما أنتِ عارفه إن فؤاد باشا مسافر بلاد بره ومش راجع قبل شهر

شوف سيد خطاب يكلم حد من معارفه

نظر علي إليها شذرًا

عايزاني أروح أترجا الوسخ ده! الحر حر ولو مسُّه الضر... حيدبرها من عنده

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي نطق بها علي قبل أن تخور قواه وينطلق عويل أم سعيد عاليًا ينعي ابنها. اعتزل علي الجموع التي توافدت على البيت يقتلها الفضول فيما يشبه العزاء... وراح ينزل القاهرة يوميًا يهيم على وجهه بلا هدى يبحث عن فلذة كبدة في دهاليز المعتقلات المظلمة... كما ظل يسأل عن عنوان أحد أقارب فؤاد باشا حتى استدل عليه في الزمالك، وذهب يرجوه أن يتصل بالباشا يبلغه بالمصيبة التي حلت عليه... مرت الأيام بلا اتصال بالباشا، فكرر رجاءه حتى منعه الخدم من

. بارة بجفاء... أصبح كل الأمل معلقًا بمولد سيدي الحجازي، الموعد الذي أمل علي الرفاعي أن يعود فيه فؤاد باشا إلى العزبة... راح يعد الأيام الباقية وهو يسمع نحيب زوجته... يصبِّرها بقرب حلول الفرج... ما هي إلا بضعة شهور.

لكن الأجل لم يمهل علي الرفاعي ليرى المولد... فبعد أسابيع طويلة من البحث المضني الذي لاقى خلاله ألوان الإهانات على أيدي ضباط ومساكر المعتقلات... عبث خلالها الهم بوجهه فأضاف إليه هرم لا يتناسب مع عمره... انقطع علي عن الأكل حتى بدأ يذبل كما ذبل زرع القيراطين اللذين يملكهما... وماهي إلا أيام وكان يسكن مقابر البلدة التي بعدها من الجهة الشرقية... هكذا انتهت حياته في هدوء.

توافد المعزون من جميع أنحاء باب الحجازي والقرى المجاورة ... في علي الرفاعي... فبرغم أن علي الرفاعي وزوجته في حالة متعثرة منذ أن خرجوا بأولادهم من الدار الكبيرة وبنى داره على نصيبه من الأرض... إلا أنهما حافظا على مكانة مرموقة بين الجيران وباقي أهالي القرية لكونهما أصحاب واجب.

لم تدخل أيٌّ من نساء القرية على مدى أيام العزاء على أم سعيد بيد فارغة... كلٌّ أتى بما تيسر من طعام يعين الأسرة على ما ينتظرها من أيام فالحة السواد... فوفاة علي المفاجئة وانقطاع دخله من نظارة عزبة فؤاد صبري باشا، ترك زوجته وأبناءه تتلقفهم رياح المجهول بين اختفاء المُعيل وأسوار المعتقل التي ابتلعت مصطفى... ولم تكن فلاحة القيراطين المتبقيين من أرض علي ليخففا من وطأة ما ينتظرهما.

## (٣)

بحلول مولد سيدي الحجازي، خطا سيد خطاب إلى بهو داره الفسيح تعلو وجهه ابتسامة زهو لم يحاول إخفاءها، يتبعه حفنة من الخفر المهرولين، يحمل أحدهم صورة زيتية ضخمة لوجهه الطويل ذي العظام البارزة والقسمات الحادة... برغم الوجاهة التي أراد الرسام إضفاءها على سيد خطاب، بإخفاء بعض الغضون في وجهه الثمانيني، إلا أن الصورة حملت قسوة بالغة في عينيه الجامدتين... كانت تلك اللوحة هي هدية محمد عفيفي، عضو مجلس الشعب عن الدائرة التي تقع باب الحجازي في نطاقها، بمناسبة المولد.

أشار سيد إلى جدار عريض فهرول فلاح هزيل، تبدو آثار الطين واضحة على جلبابه المتآكل، يسابق الخفر ليدق المسمار متطوعًا ثم ساعد في حمل الصورة الضخمة إلى موقعها الجديد... ألقى سيد خطاب نظرة مفتشة عن أي تقصير أو خطأ قبل أن يشير بوجهه الجهم بعلامة تدل على الرضا.

،،ا يزيدك من نعيمه يا سيدنا الحاج سيد

• ١١٠ قال الفلاح بابتسامة عريضة بعد أن انتهى من تركيب اللوحة...
، ...ه ما أن سيد خطاب كان في غنى عن دعواته، فنعم الله كانت تنهمر
ـ نوقف... فتوسعت رقعة أملاكه من الأطيان حتى قاربت أن تربو
ن ،صف المساحة المزروعة في باب الحجازي وتبعثرت دُوره التي
١ ،ها من الأهالي في جميع الطرقات، وذلك الجزء اليسير من أملاكه
١١ ي يوجد في مسقط رأسه.

ا م يكن ذلك دائمًا حال سيد خطاب... فهو ربيب الفقر لأسرة
، اسمة حتى بمقاييس باب الحجازي... حتى ضاقت به الظروف في
،،ه واضطر إلى ترك القرية بحثًا عن الرزق الذي لم يجد له أثرًا بها... لا
يعلم على وجه التحديد ما الذي كان يعمله بعد رحيله عن القرية...
م أنه كان يشحذ في إشارات المرور في القاهرة... لكن رحيله عن
،، الحجازي لم يدم طويلًا... فشهد الأهالي عودته إلى القرية مريضًا
ا ،كث في دار أحد أقاربه لفترة نقاهة طويلة علم أهل القرية خلالها أنه
ع بكليته لأحد أثرياء البندر الذي عوضه بمبلغ مالي محترم... فوجئ
،،،ها سيد خطاب بأحد أبناء القرية يسأله عن تفاصيل العملية وعن المبلغ
ا،مالي الذي قد يعود عليه إن تبرع بكليته كما فعل هو. سارع سيد بالاتصال
،الطبيب الذي أجرى له العملية وهكذا سارت الأمور منذ ذلك الحين...
الطبيب يوفر المرضى محتاجي نقل الأعضاء وسيد خطاب يمده بفقراء
القرية والقرى المجاورة ليبيعوا لحمهم مقابل نسبة... كان العمل مربحًا
لجميع الأطراف إلا أن سيد خطاب لم يكتف بدور الوسيط... لم يرض
،،ور الرجل الثاني القابع في الظلام بينما الطبيب في الواجهة خصوصًا
عندما يكون العملاء من أثرياء المجتمع وكبرائه... وهكذا عمل سيد ببطء
ومثابرة لإزاحة الطبيب والتعرف المباشر على الزبائن حتى أصبح هو نقطة

الاتصال... لم يتم ذلك في يوم أو شهر أو حتى سنوات... بل استغرق عقودًا حتى انقلب الحال وأصبح سيد خطاب أحد أباطرة تجارة الأعضاء في البلد، يعمل تحت يده أطباء في مختلف التخصصات. وكأي عمل غير مشروع، كانت إمبراطورية سيد خطاب تستوجب الحماية من طائلة القانون... ولم يكن ذلك عسيرًا مع توسع شبكة العلاقات والمصالح التي بناها من الساسة وصناع القرار من أعضاء مجلس الشعب والحزب الوطني الحاكم والأغنياء الجدد من ذوي النفوذ في عصر الانفتاح... كما استعمل سيد خطاب هذه الشبكة في قضاء بعض حاجيات الأهالي التي تتطلب تدخلًا رسميًّا... مما مكنه من رقابهم وزاد من سطوته حتى اعتقدَ أنه يملك الأرض بمن عليها... وتجذر لديه يقين يغذيه من حوله بأنه من أصحاب البركة... كما أصبحت له طقوس يحافظ عليها... يشترط على أهل المريض أن يحضروا إلى باب الحجازي ليدعوا لمريضهم بالشفاء من عتبة الباب لتحل عليه بركة سيدي الحجازي ويشفي الله مريضهم. فاشتهر "الباب" وتغيرت بشهرته هيئة المريدين... ليصبحوا من المشاهير والنجوم والساسة... وأصبح مولد سيدي الحجازي مناسبة مهمة على أجندة كل الكبار يلتقون بها ليناقشوا أمورهم في تلك الحضرة المباركة.

وبتوسع رقعة أملاكه أصبح يغدق على أهل القرية من العطايا متبعًا في ذلك المثل الشعبي القائل "أطعم الفم تستحي العين"... لكن ذلك لم يكن يمنع ظهور "نابه الأزرق" من حين لآخر إن لم تسر الأمور كما يرغب... وبمرور الزمن لم تعد تجارة الأعضاء هي نشاطه الوحيد وإن كانت لا تزال عمود الخيمة... فطالت أنشطته تجارة العملة وتجارة العقارات بالقاهرة والأسكندرية ومعرض سيارات فاخرة بالمهندسين بالإضافة إلى عائدات الأراضي الزراعية التي اشتراها لتتجذر مملكته كالسرطان داخل باب الحجازي وخارجها.

. م . ن أن سيد خطاب لم يُعجب تملق الفلاح المسكين ولم يشكره
ما، مه لتعليق الصورة، إلا أن ذلك لم يفت في عضد الفلاح الذي

ـ كبيرنا يا سيدنا الحاج واني جاي قاصدك في معروف

ما. إ.ه سيد خطاب بوجه اختفى منه أي تعبير وراح يعبث بشاربه فابتلع الفلاح ريقه وأكمل

، محمد أبو حطب أكل حتة من أرضي اللي في الحوض الشرقي العصب ومش راضي يرتجع وأنت كبيرنا

وإمانا كبيركم... فتني ليه ورحت تشتكيه للمركز... انت فاكر المركز حيتصرف في حاجة من أمور البلد قبل ما يرجعلي

. ا.ا، أجاب أخيرًا سيد خطاب ليبدو الارتباك جليًا على الفلاح الذي ، برتعش فرائصه، بينما ابتسم الخفير في سادية لعلمه أن ما يملكه .. . مه من علاقات قادرة على الإطاحة بدبابير ونجوم المأمور بمكالمة . منه إن أراد.

أنت بتفلح خمس قراريط... ودول كتير عليك... فأنا حخفف الحمل شوية، وكفاية عليك أربعة

هكذا قال سيد خطاب بلهجة حاسمة لم تخل من السخرية... قاوم . ل ارتعاشه وحاول من جديد التمسح في كرم أخلاق سيد خطاب ا .. عنه ويعود عن نزع القيراط من أرضه قبل أن يقول في ترجي

الأرض دي أتري أبًا عن جد يا سيدنا الحاج... وربنا ميرضاش بالظلم

وكأنما كان الخفير ينتظر تلك الكلمة، فانهال صفعًا على الفلاح المسكين ثم ألقى به خارج الدوار بإشارة من يد سيد خطاب الذي لم يكن متفرغًا لمثل تلك الصغائر... فالليلة هي الخاتمة لمولد سيدي الحجازي، وهو في انتظار ضيف عظيم إن سارت الأمور معه على الوجه الذي يرجوه فسيكون فتحًا جديدًا تفوح منه رائحة الذهب الأسود... لم يلتفت سيد خطاب لصراخ الفلاح خارج الدوار وتوجه إلى غرفته... وضع عباءته السوداء على كتفه واستحضر الخشوع قبل التوجه لأداء صلاة الجمعة.

## (٤)

تسلل ضياء الشمس من إحدى الفتحات الزجاجية التي تحيط بقبة الجامع الضخمة فأضاء وجه الإمام ليتكامل مع جلبابه البلدي الأنيق في إضفاء هالة من الجلال على الشاب الثلاثيني الذي يخطب في حماسة منقطعة النظير من على منبر جامع الحجازي الذي امتلأ عن آخره... في مؤخرة الجامع، حيث الحصير والسجاد القديم المستهلك، كان سعيد الرفاعي شديد الانتباه كعادته كل خطبة... يتابع كلمات الإمام ويستقرأ وقعها على جمهور المصلين من أهل القرية.

ما أن انتهى الإمام من خطبته وأتم صلاته حتى تدافع عليه وفدٌ من أبناء القرية وشيوخها يلقون عليه وابلًا من الأسئلة الشرعية... ختم الإمام صلاته وخرج من باب الجامع ليجد سيد خطاب في انتظاره... يحيطه لفيف من أبناء القرية يستجدونه لقضاء بعض حوائجهم... على بعد بضعة أمتار من الجامع، جلس سعيد الرفاعي بجوار كامل المجذوب على جذع

شجرة مقطوع يستظلان بلوحة معدنية صدئة... وككل شيء في باب الحجازي، كان لتلك اللوحة حكاية... يقال أن أحد العمد الذي عُين في عهد الملك فاروق أصر على تغير اسم القرية... وبالفعل دقت اللوحات الإرشادية التي تشير إلى القرية بالاسم الجديد ولم يبد على أهل القرية أي اعتراض ظاهر، فقط قاوموه بالسخرية المسترة ولم يكن أحد يستخدم ذلك الاسم الدخيل، ومرت السنون وتعاقبت الأجيال ورحل العمدة ونُفي الملك وتعاقب الرؤساء وصدئت اللوحة حتى لم تعد مقروءة ولم يعد أهل القرية يذكرون ذلك الاسم الدخيل، وبقي اسم القرية محفورًا في القلوب يرطب ألسنة قاطنيها، "باب الحجازي"، ولم يكترث أحد بإزالة تلك اللوحة الصدئة، لتبقى بائسة بلا معنى.

توجه سعيد إلى الإمام فور رحيل سيد خطاب تعلو وجهه ابتسامة عريضة وسلم عليه بحرارة

تقبل الله يا م... مم... مولانا

منا ومنكم يا سعيد

سارا سويًا باتجاه داره يغلفهما صمت مشحون إلى أن قطعه الإمام بقوله

أنت شايف الوقت مناسب يا سعيد؟ أمك لسة مقلعتش الاسود

أطرق سعيد... برغم مرور عدة شهور على وفاة والده... إلا أنه لايزال يشعر بغصة في حلقه كلما ذكر ذلك الأمر... غصة الشعور بالذنب... بالطبع شعر بالحزن لفراق والده... لكنه لم يكن ذلك الحزن الكاسح الذي غرق فيه كل أهله... حتى إخوته الصغار لم يكونوا أفضل حالًا من أمه وزينب... وذلك جعله يشعر أنه ابن جاحد... لكن أباه لم يكن أبًا مثاليًا بدوره... طالما شعر سعيد بتلك التفرقة في المعاملة خاصة

..! يتعلق بمصطفى... ابن أبيه المدلل... لا يتذكر سعيد أن أباه قد نهر مصطفى يومًا... مصطفى الذي مات أبوه بحسرته عليه... مصطفى الذي كاد أمه تموت بحسرتها عليه الآن... مصطفى... مصطفى... هز سعيد رأسه كأنما يصرف عنه تلك الأفكار وقال

... أمي مش حاااا... تقلع الإسود

صمت قليلًا ثم أضاف لتغير دفة الحديث

الناس ككك... ككانوا متأثرين... ... ااوي بالخطبة

خرجت الكلمات بطيئة متلعثمة من فم سعيد كما هي عادته فابتسم الإمام وقال وهو يربت على كتفه

الناس بقالها زمن مستنية المولد وبركات سيدك الحجازي تنزل عليهم لحم ومرق... لو قلتلهم ريان يا فجل حتلقيهم بيقولوا الله يفتح عليك

بدت بعض ملامح الاستنكار على وجه سعيد مما زاد من تلعثمه

جايز... لا... لا لكن الخطبة وصلت لقلوبهم...
ده حتى جدي عبد الحفيظ سسس... ساح في دمعه

اتسعت ابتسامة الإمام وقال

أنا مقولتش حاجة يا سعيد... براوة عليك... حتكتبلنا الخطبة الجاية عن إيه

عععععن الأمر بالمعروف... ... رأيك

ربت الإمام على كتف سعيد ولم يعقب... كانت علاقتهما تكاملية... كلاهما يفتقد شيئًا يجده في الآخر... سعيد الرفاعي يفتقد القدرة على

التعبير الفصيح عن أفكاره بسبب علة لسانه... بينما الإمام خطيب مفوه ذو أسلوب جذاب... لكنه يفتقد إلى الأفكار والقدرة على إنشاء موضوع يستقطب أفئدة سامعيه... بينما الأفكار والموضوعات تفيض من عقل سعيد كالسيل المنهمر فلا يستطيع لسانه البطيء مواكبة عقله... أضف لذلك كون الإمام يستريح إلى الركون لشخصية أخرى تحمل عنه جزءًا من القيادة... شخصية تدعمه وتغطيه في الخفاء... تبعث في نفسه الطمأنينة أنه لا يرفع الحمل وحيدًا بشرط أن يبقى هو في الواجهة... وذلك جل ما يطلبه سعيد، فهو متوحد بطبعه يكره الاجتماعيات والنقاش ويفضل أن يبقى في الظل بينما أفكاره تنمو في النور على لسان الإمام.

جرب الإمام فيما مضى تلك المواضيع المكررة المحفوظة التي نقل معظمها في أجندته من كتاب عن الخطب الدينية لم يكن يملك ثمنه حين شرع في الخطابة منذ سنوات... لم تلق تلك الخطب رواجًا بين أهل القرية... وكاد سيد خطاب أن يطيح به من ذلك المنصب الذي يدر عليه دخلًا محترمًا لما وجده من نفور أهل القرية من خطبه... حتى جاءه سعيد الرفاعي ذات مساء بخمس وريقات واقترح عليه بأدب متلعثم أن يقرأ ما بهم لعله يجد ما يعينه على خطبته التالية... لم يكن الإمام على اتصال مع سعيد برغم تقاربهما في السن... فسعيد منعزل عن شباب القرية العازفين عنه بالأساس... شكره الإمام ليلتها وآوى إلى فراشه دون أن يعير تلك الوريقات اهتماما... إلا أنه بعد صلاة العصر من اليوم التالي وبعد سؤال سعيد عن رأيه فيما كتبه قرر أن يقرأها من باب دفع الحرج... وكانت صدمته عاتية... فالكلمات المتراصة فوق الورق كانت تمثل تسلسلًا سهلًا لشرح فكرة معقدة بكلمات بسيطة وتشبيهات متأصلة في حياة الفلاحين... كان يلزمها إضافة بعض الرقائق لكن عصب الخطبة لم يكن ليخرج عما حملته الوريقات... ذُهل لكمِّ العلم الذي يملكه

..ام شرعي لم يكن ليتوفر لأحد من العامة... اكتشف أن سعيد الـ.مرل عن اجتماعيات القرية كان يمضي وقته في التهام الكتب العلم الشرعي والتبحر في علوم الدين... ترك الإمام خطب .. الـ. لا تؤتي ثمارها مع أهل القرية... ومنذ ذلك الحين كان يعتلي ..ح بكلمات مَن أصبح صديقه الصدوق.

الصديقان طريقهما يشقان شوارع القرية مرورًا بباب سيدي .. الذي يستعد وتستعد معه القرية لاستقبال المولد... وهناك .. ..مشهد مألوف... سيارة فارهة متوقفة أمام المقام

.. كده بانت... السؤال المتكرر إياه مع العربية اللي سدت الشارع ..وش غير معنى واحد

.. قال الإمام فنظر سعيد إليه وقال

.. يا بيي. بيي... يتوب علينا

.. لم يعلق الإمام على قول سعيد... فلم يكن لذلك المشهد معنى سوى ..مص جديد من أهل القرية على وشك بيع لحمه.

.. ما وصلا إلى دار سعيد، انتظر الإمام في الخارج حتى سمع سعيد "..مايا ضيف" قبل أن يناديه، فخطا إلى الداخل حيث وجد أم سعيد .. غارقتين إلى أذرعهن في العجين استعدادًا لخبيز المولد. تناثرت ..هما عدة آنية فخارية و"طشت" عملاق من الدقيق المنخول بينما .. البخار من إناء الحليب المغلي

يا ساتر

..هكذا قال الإمام فجفلت زينب وخلصت ما بها من عجين وسوت ..امها بينما ظهرت بعض من جدائل شعرها الكالح السواد في تحدٍّ

لمحاولة إخفائه تحت الطرحة التي تحيط بمنديل رأسها الأحمر... ءاه،
الإمام لالتقاط أنفاسه وحاول السيطرة على انفعاله... هاهو ينظر إل
زينب... يملأ عينيه بجمالها... ذلك الجمال الغجري الجارح يسلبه ا،
كمعجزة نبي... جمال قح وقِح يجرده من أي نتوءات تركتها محاولا
التحشم البائسة، يعيده إلى أصله... ذكر يبحث عن دفء جسد امرأة
وزينب ليست أي امرأة... إنها الأنثى متجردة من أدوار الحشمة حاضر،
بأدوار الغواية في تمام بدرها... لجسدها حرارة يشعر بها برغم المسا،
التي تفصله عنها... نافرة الجسد والطباع... فرس شرس استعصى على
كل من فكر في ترويضه... احتبست أنفاسه من هول حضورها الطاغي
حتى أصبح على وشك النفوق فشهق بحثًا عن الهواء.

اتفضل يا ابني... يا مرحب... خطوة عزيزة... معلش العجين
خمران

جلس الإمام بجوار سعيد على حصيرة في ركن الدار

يالا يا زينب سمّي وولعي

أخذت أم سعيد تضرب على قطع العجين على الطبلية تدحوها ثم
تلقي بها على المطرحة المفروشة بالردة... راقب الإمام العجين الذي
أخذت مساحته تزداد بتحريك المطرحة في حركة دائرية... ثم ألقته في
الفرن فأخذ ينمو ويكبر كالممسوس حتى نضج فالتقطته زينب بعود من
داخل الفرن بينما أم سعيد تلقي برغيف جديد.

سعل الإمام من أثر الدخان المتصاعد قبل أن يقول

خبيز الهنا يا أم سعيد... كل سنة وانتم طيبين

ناولته رغيفًا ساخنًا وقالت

ـالك عادة يا أم سعيد... دار أبويا علي الرفاعي دار كرم
الإمام عندما أشاحت أم سعيد بوجهها لذكر زوجها

ـمة ونور عليه
، التي أخذ ثدياها يهتزان تحت جلبابها الأسود الخفيف...
الـ . الذي تناثر على وجهها في إخفاء الحمرة الناضحة من

، ار كلك يا خالة... كل سنة وانتم طيبين
أم سعيد قبضة من برام القشدة وقالت
، طيب يا ابني... بعودة الأيام
. أخبار عن مصطفى
. رابحة تقابل نادية هانم الليلة في المولد تفكرها أحسن يكون
الـ . سيه

، الـ . مش ناقصها حاجة يا خالة... إحنا أهل وانت عارفة إن
الأ . مستورة والحمد لله من دخل الدكان على القرشين اللي
طلعولي من الجامع
أ . يا ضناي... مستورة والحمد لله
. الإمام عينيه من على زينب، أو لعله لم يستطع، بينما لم تعره

هي أي اهتمام... تنحنح في حرج بعد الكثير من المجاملات الممطوطة وقال

والله يا خالة الموضوع اللي أنا جايلك فيه الأصول تيجي فيه أمي أو أبويا. لكن أنتِ عارفة..

أطرق الإمام برأسه واسترق النظر إلى زينب التي كانت تحدجه بنظرة بدت له صارمة

ألف رحمة ونور عليهم... كانوا أحسن ناس في البلد

هكذا قالت أم سعيد فأكمل الإمام

أنتِ زي أمي... وأبويا علي الرفاعي كان في مقام والدي وأكتر... وأنا نويت اتوكل على الله وأكمل نص ديني

تصاعدت أنفاس زينب كأنما تلهث، وتحولت النظرة الصارمة إلى نظرة غاضبة أفقدته ثباته فأكمل قبل أن يفقد شجاعته

ومش حلاقي أحسن من زينب في البلد كلها علشان..

انتصبت زينب كعود الحطب الذي تحمله فابتلع باقي جملته

أبويا لسة ميت وأخويا منعرفش له قرار جرة وتقولي جواز

نظر الإمام إلى سعيد كأنما يستنجد به لكنه ظل صامتًا فقطعت أم سعيد الصمت

انت ميعبكش حاجة... بالعكس، كل الناس عارفة قدرك... ولولا صغر سنك كنت بقيت كبير البلد... لكن الأصول أصول. سنوية أبوها لسة معدتش

سارع الإمام بقوله

ا.ا مش عايز حاجة دلوقتي... أنا كنت..

ه.ا.ه ه ربنب

لا دلوقتي ولا بعدين... أنت البعيد معندكش دم

. ،ها أمها وحدجتها بنظرة صارمة

ا متشي يا بت... إيه اللي صابك

ا م بكن للحديث معنى بعد ذلك وسرعان ما قام الإمام يجر ذيول ، ، العار عائدًا إلى دكانه حيث دفن غضبه بين بضائعه... كان يعلم أن ، ، فست كل من تقدم لخطبتها من قبله، وهم كثر، لكنها لم ترفضه، تعدَّت على كرامته... ضرب على سطح الفترينة عندما سمع ا نردد في عقله فتهشم الزجاج تحت وقع قبضته... لم يتحرك ، ا ، ي بده التي أدماها الزجاج، وظل ينظر إلى الدماء، واعدًا نفسه أنه .اه ها درسًا قاسيًا.

## (٥)

بحلول الليل ألقىٰ القمر آشعته الفضية علىٰ دروب وطرقات باب الحجازي في تلك الليلة المشهودة التي ازدانت فيها القرية واكتست أبهىٰ حللها... يزحف الخلق كأسراب النمل إلىٰ الباب الذي تلألأ بالكلوبات حيث يحتفل الآلاف بالليلة الختامية لمولد سيدي الحجازي... ارتفع صوت توفيق العروسي، صاحب البحة المميزة للمداحين، يرج الجدران مع إيقاع الدفوف... النسوة يحملن ما تيسر من زاد فوق رؤوسهن، يتلمسن طريقهن بين الباعة الجائلين والخيام والسرادقات التي ملأت الطرقات، حيث تُجمع ثم توزع المأكولات والمشروبات علىٰ المريدين وعلىٰ أهالي البلد والفقراء والوافدين من شتىٰ القرىٰ والمراكز المجاورة... كما انتشر باعة البخور والحلوىٰ، بينما أقام البعض عدة حلقات للذكر، ولجأ آخرون إلىٰ الاستماع إلىٰ المنشدين والمادحين داخل السرادقات بعيدًا عن صخب الصبية والصبايا بين الألعاب المتناثرة في محيط المولد.

شهد بيت السناري ـ أكبر عائلات القرية ـ وجامع الحجازي، الذي تم

بالأضواء، إقبالًا كثيفًا... ونظَّم الشيخ عبد الكريم، شيخ الحضرة، ... جلس فيها بعتبة الباب ليتحدث عن سيدي الحجازي، وكانت تلك من ...سبات القلائل التي يسهب خلالها الشيخ عبد الكريم في الحديث...
الشيخ عن سيدي الحجازي بقوله أنه من أولياء الله الذين اختصهم الله بمقام البقاء... وهو مقام يتجرد في العبد من المحسوسات الدنيوية ... مع الله... فهو بالله مع الله ولله... وذلك مقام رفيع بين أولياء الله الصالحين... يعلو مقام فناء الفناء حين يفنى عن العبد شعوره بأنه فانٍ...
لم يكن البسطاء من الحاضرين يفهمون تلك التفاصيل لكن الشيخ عبد الكريم مضى ليشرح ترقي سيدي الحجازي في المقامات حيث ترقى من تجلي الأفعال إلى تجلي أسماء الله الحسنى فبدأ باسم الله الموجود حتى وصل إلى اسم الله القيوم ثم إلى تجلي الصفات الإلهية... عندها تنتفي ذات العبد فيقيم الله مكانها "اللطيفة الإلهية"... وهي المرحلة التي أجرى بها الله الكرامات لعبده الصالح... مولانا الحجازي.

لم يكن الشيخ عبد الكريم معني بسرد كرامات سيدي الحجازي برغم احتجاجات المريدين الذين يعدون تلك الفقرة نوعًا من التسلية وفرصة لإظهار القدرة على مصمصة الشفاة في حالة من الاستحسان المشدوه... فهو يرى تلك الكرامات والفتوحات سرًّا بين العبد وربه... تظل كذلك إلى أن يشاء الستَّار كشفها بالقدر الذي يشاء... أنهى الشيخ ندوته وقام لتنطلق ألسنة المحبين بالأدعية والتواشيح في حلقات الذكر التي ستستمر إلى فجر اليوم التالي.

لفت نظر الشيخ عبد الكريم تلك الفتاة التي جلست بجوار الباب تنتحب في صمت... عدل من وضع نظارته السميكة واقترب حتى تبين زينب بنت علي الرفاعي التي اتشحت بالسواد والتصقت بالباب تتمتم بدعاء لا يميز مع الضوضاء المحيطة... انقبض قلب الشيخ عبد الكريم

حزنًا على حال الفتاة واقترب منها حتى انتبهت، وما أن رفعت وجهها إليه حتى فاضت عيناها بالدمع من جديد كأنما تشكو له همومها التي لن تحملها الكلمات... ربت الشيخ عبد الكريم بحنان على كتفها ثم جلس إلى جوارها، يطمأن على أمور دار علي الرفاعي... ترددت زينب قبل أن تقول للشيخ أنها رأت منامًا بالأمس

شفتي إيه يا بنت الأكابر

شوفت في المنام جمل أصفر كبير... جاي من نواحي عزبة كامل وقف هنا

أشارت إلى ساحة الباب التي لم يعد بها موطئ قدم

شوية وطلعله سعيد أخويا من جوه... والجمل كلمه... مسمعتش الكلام بس قلبي كان واكلني على سعيد علشان كان في دم نازل من دماغه وناس كتير ملمومة حواليه... لقيته بيضحكلي وبيمدلي إيده... ملحقتش أروحله لقيت الجمل أخدني وراح... بعدها جيت انت يا جد ومسحت على دماغه مكان الدم...

قطب الشيخ عبد الكريم حاجبيه مما زاد من توتر زينب التي تسارعت أنفاسها

سعيدا

هكذا ردد ثم طالت فترة الصمت حتى تكلم الرجل من جديد

متحكيش اللي شوفتيه ده لحد تاني... إن بعد العسر يسرا... أخوك حيبقى له شأن كبير في البلد دي... ربنا كبير ومش حيسبكم... بس عليكي بالصبر يا بنتي، الصبر... وافتكري إن مفيش حاجة تخوفك

الصبر على إيه يا جد

م الشيخ عبد الكريم بحنان وربت على كتفها من جديد

المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين

... قال الشيخ عبد الكريم ثم أطبق على يدها فقامت قبل أن تستفسر عن قصده. اخترق بها الحشود حتى وصل إلى أحد الدراويش وأشار ... له رغيف ذرة به بعض اللحم أعطاه لها وقال

روحي على داركم يا زينب

أنا مش جعانة يا جد... أنا جاية أدور على نادية هانم... هي مبتفوتش مولد إلا أما تحضره

تلفت الشيخ حوله باحثًا عنها ثم أشار إلى مقعد خشبي فارغ

كانت هنا من شوية... عايزاها في إيه

عايزاها تفكر فؤاد باشا بمصطفى... ادعيلنا نعتر عليه يا جد... أمي مبتنمش الليل من ساعة ما اتحبس

كان الشيخ عبد الكريم يعلم كما يعلم الجميع كم مرت الأيام ثقيلة على أسرة علي الرفاعي منذ وفاته... يعلم انكفاء سعيد على زراعة القيراطين اللذين ذبلت زراعتهما، كما هو حال باقي القرية، بسبب قلة المياه... البحّار اللعين مازال يحابي قرية ميت الشوكة المجاورة في نصيبهم من مياه الري.

في تلك الأثناء وعلى الجانب الآخر، جلس سيد خطاب مع ضيفه المنتظر، الشيخ أبو خالد، وهو شيخ سبعيني سمين منتفخ الأوداج من شيوخ الخليج، علم سيد من عضو مجلس الشعب، الذي عرفه بالشيخ، أنه يتصل مباشرة مع أمراء بعض العائلات المالكة... وتوطيد علاقته معه يعني علاقة مباشرة مع هؤلاء الأمراء وتلك نقلة لم يكن يحلم بها...

لم يكن سيد خطاب يشك أن الشيخ، برغم مكانته وسطوته، ما هو إلا عتبة سيستخدمها بحنكة وصبر للاتصال بالعائلات المالكة بنفسه، ومن ثم يستغني عنه كما فعل مع الطبيب في شبابه.

اهتم سيد خطاب بكبار ضيوفه من أعضاء مجلس الشعب ولواءات الشرطة ومأمور المركز وأعيان القرية والقرى المجاورة، إلا أنه أولى اهتماما خاصًا وبالغ في المجاملات والاحتفاء بالشيخ الذي بدا من انبساط أساريره أنه قدر كرم الضيافة... كان الشيخ في زيارة إلى باب الحجازي لإمداد سيد خطاب بالأوراق الطبية التي تشمل فحوصات وتحاليل معملية لأحد المرضى لم يذكر الشيخ اسمه ولم يلح عليه هو في السؤال... فهو يعلم أن صحة أمراء وشيوخ الخليج أسرار دقيقة لا تشاع للعامة... لكنه كان يدرك أيضًا أن المريض شخصية مهمة استدعت قدوم الشيخ أبي خالد شخصيًا للبحث عن متبرع.

نبغاك تلجئ ابن الحلال بسرعة يا حاج سيد

هكذا قال الشيخ بلهجته الخليجية التي حاول تمصيرها بعض الشيء

متقلقش يا شيخنا... ببركة الباب وسيدنا الحجازي كله حيقضى

لم يلح سيد خطاب على الشيخ بالقيام والدعاء عند الباب كما اعتاد أن يفعل لعلمه بتعارض ذلك مع عادات أهل الخليج الكارهين للأضرحة

الله يبشرك بالخير... والله دُخنا يا حاج سيد... صَارلنا شهور وما لِجينا المتبرع المناسب... أنا ما أفهم في الطب لكن الدكاترة خبَّرونا إن فصيلة دمه ولا ما أدري إيش فصيلة نادرة... مكتوب في الورق عندك

سارع سيد خطاب بتطمأنته أنه سيجد المتبرع المناسب حتى لا يدع مجالًا لفتح المزيد من التفاصيل عن الأوراق الطبية التي قد تفضح

دونه أمي. تطرق الحديث بعد ذلك إلى موضوعات متفرقة، عن الدين ، السياسة وحرب أكتوبر ودور الملك فيصل والأخوة في الخليج في مؤازرتها والحرب الأهلية في لبنان... وانتهى الحديث بوليمة في مندرته الضخمة التي مدت بها الموائد... بها شتى أنواع الأطعمة والمشروبات التي استدعى سيد خطاب لإعدادها طباخين من القاهرة لإبهار الضيف الخليجي.

ء تناول الشاي في الهواء الطلق الذي أوصى سيد بجلبه إلى موقع مميز يسمح بمراقبة المولد دون أن يزعج الضجيج ضيفه... لاحظ سيد خطاب أنه برغم سن الشيخ الذي تجاوز السبعين، إلا أن عين الشيخ كانت لا تمل من متابعة صبايا القرية اللاتي يمرحن في المولد... أرجع سيد خطاب ذلك إلى أن منظر الفتيات وهن يتصايحن فيما بينهن وتعالى ضحكاتهن الرقراقة، كان كمنظر الحوريات الغياد في الجنة لهذا الشيخ الآتي من صحراء يتشح نساؤها بالسواد... ولا بد أن مشهدًا كهذا ذهب بلبه.

والله زينة بنات مصر

ضحك سيد ولم يعلق

ترى عِندنا يِجول أن أحسن زوجة هي المصرية

والله مش دايمًا يا شيخنا... سعات بيبقوا نكد مالوش آخر

تعمد سيد التوكيد على كلمة "شيخنا" متبوعًا بترهيبه من تلك الفكرة... لم يكن ذلك نابعًا من المبدأ ولكن سيد كره أن ينحدر إلى مستوى الخاطبة.

لم يبد على أبي خالد أنه سمعه، أو أنه لم يعر كلامه انتباهًا فمضى يقول

لا والله مو بنات مصر اللي زينة... بنات باب الحجازي اللي زينة

كظم سيد خطاب غيظه وقال

ده بس من ذوقك يا شيخنا

ابتسم الشيخ وأضاف بلهجة ذات مغزى

ترى إذا الله رَاد وحصَّلنا ابن الحلال... يكون في خير كثير لك ولأهل الحجازي هنا... وأنا أريد يكون في بنا صلة... مو علاقة تنتهي بعلاج المريض يا حاج سيد

التقط سيد المعنى المراد... ويبدو أن تقدير حجم المصالح التي سوف تعود عليه من فتح باب للتعامل مع شيوخ الخليج، أذهب عنه الضيق... فوجد نفسه يبتسم وهو يقول

إحنا لنا الشرف يا أبو خالد

ابتسم الشيخ في رضى وراح يوزع نظراته الفاجرة الثابتة على كل الفتيات، يتفحصهن كأنما يبحث عن شيء بعينه... حتى وقعت عينه على صبية ذات أنف روماني تتلألأ بشرتها البرونزية تحت أضواء المولد لتنضح حسنًا ونضارة تدل على الصحة.

زينة هالصبية... ترى أنا ذواقة يا حاج سيد في أصناف الحريم... أعرف أشم شذى الوردة من بعد ألف كيلو... وهَي وردة فاض عِطرها وملا صَدري

هوى قلب سيد خطاب بين قدميه فيما تشتت انتباه الشيخ... تكاد عيناه تخترق ملابس الفتاة التي كانت تقف بجوار سيدة ترتدي فستانًا أنيقًا لم يتبينها سيد من ظهرها... لكنه أدرك على الفور من هي الفتاة المنشودة.

كل اللي نبغاه شهر عسل... على سنة الله ورسوله... وما في أحلى من شهر العسل يا حاج

اعتدل الشيخ أبو خالد في مجلسه قبل أن يردف في فخر

تراني راح أجولك سر الحياة ذاته... أنا وأنت صار لنا عمر في هالدنيا... وسر الشباب تاخذه من راجل شية مثلي شاف ودار الدنيا... دور على متعتك كيف كنت تدور عليها في شبابك... ما في شيء أبدي بدنيانا... وأحلى شي إنك تستمتع باللحظة الحلوة ولا تفكر في بكرة... ترى النسوان يفسدون اللحظة، يحاولون يمدونها ويمطونها للعمر كله... يسألونك رح تحبني كده على طول... ما في على طول يا بنت الحلال... ناقصات عقل... علشان كده يا حاج سيد أنا أجولك ما أبغي غير شهر العسل... وبعد العسل ما في شي يتّذاج

لم يجب سيد خطاب الشيخ وظلت عيناه معلقتان بالصبية

لم تكن زينب الرفاعي تعلم موعد حضور فؤاد خيري باشا إلى العزبة على وجه التحديد... لكنها كانت على يقين أن زوجته نادية هانم لم تكن لتفوت حضور مولد سيدي الحجازي... وإكرامًا لرغبة والدها فإن الاستعانة بسيد خطاب لم تكن مطروحة... لذا لم يتبق إلا أمل واحد لإخراج أخيها من المعتقل، الاستعانة بنفوذ فؤاد خيري باشا الذي كان يعمل والدها بنظارة عزبته... وهكذا انطلقت زينب تبحث عن نادية هانم بين جمهور الحاضرين في المولد حتى وجدتها. ما لم تكن تدركه زينب الرفاعي هو أن مصيرها كان يتحدد في تلك اللحظة على بعد خطوات منها عند تلك الطاولة التي جلس إليها سيد خطاب والشيخ الخليجي.

## (٦)

الحر لعنة وأزيز الذباب لا يُحتمل!

شعر سيد خطاب أن الذباب في مهمة مقدسة للالتصاق بوجهه فصرخ في إحدى العاملات بداره لتهش الذباب فقامت المرأة فزعة من جلستها واستلت أداة تستعمل في هش الذباب واستماتت في قتاله... لكنه كان يدرك أن تعكر مزاجه لم يكن له علاقة بالذباب، فما هو مقبل عليه اليوم أعاد إليه ذكرياته القديمة عندما بدأ نشاطه في تجارة الأعضاء، وتلك ذكريات بغيضة أراد أن يتناساها. عدل من جلسته على المقعد وساوى ثوبه المزركش وأطلق وابلًا من السباب القذر على العاملة... عنيدة هي الذاكرة، تبحث وتنبش في دروبها عن شيء فتأبى أن تعطيك مرادك، وإذا أردت أن تفقده تصفع به وجهك!

تعلَّم سيد خطاب، في أيامه الأولى مع تجارة الأعضاء، دقة الجراحين وتنظيمهم... فأصبح يدرك أدواته ويحفظها عن ظهر قلب ليستدعيها في

.. المناسب... فكان في غابر الزمان يبدأ كما الطبيب بدراسة تاريخ ابن الحلال" فيبحث عن بيت متعثر ويدرس تاريخ الأسرة وأوضاع أفرادها فردًا فردًا ويطلق زوجته وأقاربه ليحوموا حول البيت ويتخطفوا الأخبار من الجيران كمرحلة أولى، يكتشفوا من خلالها المشاكل التي لا يخلوا منها بيت من بيوت القرية، فتحين المرحلة الثانية بالكشف الظاهري فيبعث امرأته لزيارة بيت "ابن الحلال"، وهي مرحلة من الرقص الثاني حيث يدرك أهل الدار بمجرد دخول الزوجة الغرض من الزيارة والسمعة تسبقها... تقترب خلالها الزوجة من النساء بعد أن تتأكد من انهيار الممانعة القشرية للأسرة أمام رنين الغوائش الذهبية التي لا تترك ...أنا لبياض ذراعها ليظهر، تخبرهم بالثواب و"الخير" الكثير الذي عاد على سيد خطاب "بفعل الخير" وأن فعل الخير لا يؤثر على صحة "ابن الحلال" الذي يفعله... وبعد تأكدها من نجاح مهمتها، تنهض تاركة ورقة بالفحوصات الطبية المطلوبة وعنوان المعمل الطبي ومعها مبلغ من المال يكفي للمواصلات إلى القاهرة وتكاليف تلك الفحوصات... ذهب "ابن الحلال" للقيام بالفحوصات الطبية التي ستنبئ إن كان مناسبًا "لفعل الخير" مع المريض أم أن عليه الانتظار لما بعد... فإذا ظهرت النتيجة بالإيجاب، تأتي المرحلة الختامية بحضور الجراح شخصيًا، خطاب، لإنهاء الاتفاق والتفاصيل المادية بعد أن تخبر زوجته "ابن الحلال" بموعد لقائه، الذي يكون عادة بعد صلاة العشاء... كان مشهد سيد مع أحد أفراد القرية في تلك المشية من المسجد إلى دار "ابن الحلال" بمثابة إعلان إتمام الصفقة.

كل ذلك مدروس ومكرر يفعله سيد خطاب بتأنٍ وتمهل حتى لا تفسد الطبخة، إلا أن تلك المرة التي دخلت فيها زوجته منزل علي الرفاعي كانت كارثة بكل المقاييس، فلم يكتف علي الرفاعي بطردها من الدار

شر طردة، بل جاء إلى داره وتشاجر معه، وظلت تلك الإهانةُ حاضرة في نفس سيد خطاب حتى أنه مازال يتجنب السير في الشارع الذي توجد به دار علي الرفاعي حتى بعد وفاة علي.

كان ذلك زمن ما قبل رواج التجارة وتهافت "أولاد الحلال" عليه ليقدموا لحمهم طوعًا "لفعل الخير" إن توافرت الفرصة... منذ ذلك الحين لم يعد يحتاج إلى ممارسة الدهاء لإقناع الأهالي... لكنه الآن مضطر إلى العودة إلى الأساليب القديمة وإن اختلفت السلعة... فالسلعة ليست عضو، بل هي ابنة الرجل الذي أهانه من قبل.

لكن اليوم لم يعد كالبارحة، ليس فقط لما يملكه من سطوة وجبروت... ولكن لأن معيل تلك الأسرة أصبح مع الراقدين تحت التراب، ووضع الأسرة في بؤس مقيم، كما أن ابنهم مصطفى معتقل لا يدري أحد عنه شيئًا... وذلك هو المدخل الذي قرر سيد خطاب الدخول منه، لكنه لم يكن ليذهب لدار علي أو حتى يبعث إليهم برسول من طرفه... بل أرسل من يستدعي خليل الورداني، خال زينب الرفاعي، الذي استأجره لبذر القطن في أرضه مع باقي الفلاحين.

لم يطل انتظار سيد خطاب كثيرًا حتى جاءه خليل مهرولًا يقول بين أنفاسه اللاهثة

خير يا سيدنا الحاج

أقعد يا خليل

جلس خليل، ذلك الرجل النحيل في جلبابه البلدي الغارق في العرق من أثر العمل في أرض سيد خطاب، فأشار له سيد ليشرب الشاي... فتناول الرجل الكوب في ترقُّب لفتح الموضوع الذي أراده سيد خطاب من أجله... لم يكد خليل ينهي كوبه حتى عاجله بالسؤال

عرفتوا حاجة عن مصطفى ابن اختك

لا والله يا سيدنا الحاج... ولا أي حاجة، والولية بقت حالتها تقطع القلب

حد يعمل في نفسه كده ويبهدل أمه معاه... اتجن الواد مصطفى ده ولا إيه

صمت قليلًا ثم أراد أن يستشرف أين يقف خليل

طالع عبيط زي أبوه... ياله الميت متجوزش عليه إلا الرحمة

عندك حق يا سيدنا الحاج... ده عيل مطيور وبرَّاوي... ده مكانش بيجي يزور أهله إلا كل فين وفين

وارئ سيد خطاب ابتسامته وقال

والبيت ناقصه حاجة؟ عيال علي محتاجين حاجة؟ مهو مفيش راجل في البيت دلوقتي... وسعيد الأخرس لا بيودي ولا بيجيب

أهي ماشية يا سيدنا الحاج... على فيض الكريم وربنا موجود

بفكر أدي لهم حاجة من وقف الباب

تهللت أسارير خليل فعاجله سيد بقوله

عايزين نساعدهم يا خليل... بس من غير ما نجرح كرامتهم... أنت عارف الرفاعية مناخيرهم في السما عالفاضي

ياريت يا سيدنا الحاج

والبنت اليتيمة دي عايزين نسترها يا خليل... مينفعش تفضل كده

زم خليل شفتيه وقال

يووووه... دي بت طبعها نافر... ياما دق بابهم عرسان زي الفل ورفضتهم من الباب للطاقة كده

العريس المرة دي مش أي عريس... اسمعني كويس يا خليل... ده راجل متريش وحيكرم البت وأهلها كلهم... ونبقى ساعدناهم وستّرنا البنت من غير ما نحسهم إننا بنحن عليهم... وأنا من ناحيتي حتصرف في موضوع الواد مصطفى ده... مع إنه موضوع معقد وأنا عارف الحكومة مبتهزرش في الحاجات اللي زي دي... بس همتك انت في موضوع الجواز الأول

ويطلع مين العريس يا سيدنا الحاج

شيخ خليجي من الشيوخ الكبار

و ده عايش في مصر يا سيدنا الحاج؟

تلعثم سيد خطاب وهو يقول

لا بس بيجي كتير... البت حتسافر يقضوا شهر العسل في أسكندرية ولا في مصر وترجع لما يسافر

غاصت نظرات خليل في السجاد السميك الذي يتوسط مقعدة سيد خطاب والتي حرص أن يبتعد عنها خوفًا من أن يلوثها ثوبه، لكن سيد خطاب لم يمهله فرصة لابتلاع ما علق في حلقه

الشيخ حيكرم بنت أختك آخر كرم، ومن بختك الحلو أن عوايد أهل الخليج في الجواز يجيبوا هدية لخال العروسة بالشيء الفلاني، بنت أختك حتبقى برنسيسة يا خليل، ومحدش يرفس النعمة إلا الكافر، وأنا كل اللي عايزه مصلحة البت اليتيمة... ولا انت إيه رأيك

الراي رأيك يا سيدنا الحاج

ام يكن ذلك سوى غيض من فيض استرسالات سيد خطاب في سرد
الـ..م التي ستنهمر من السماء لتغرق حجر خليل إن وافق على الزيجة...
.. أن قطع استرسال الحديث أحد الخفر الذي دخل يخبره أن الحاج
محمد الساري وجمع من الفلاحين ينتظرونه في المندرة

طيب اجري وديلهم الشاي

هرول الخفير لتلبية الأمر فالتفت سيد خطاب إلى خليل وقال

ح استنى ردك يا خليل... الراجل مش قاعد كتير ومش عايزين نضيع الفرصة على البت اليتيمة... انت عارف ألف من تتمنى فرصة زي دي

أومأ خليل في تفهم، فذهب سيد خطاب إلى المندرة ورحب بضيوفه جميعًا وجلس في مقعد مخصص له

البحَّار تاني يا حاج سيد... الكلب ده مش ناوي يجيبها لبر والزرعة حتموت من قلة الميه

هكذا قال الحاج محمد الساري فتعالت الأصوات المحتجة وتداخلت الاعتراضات من الجالسين حتى أسكتهم كبير عائلة الساري وأكمل حديثه

الغيطان في ميت الشوكة قربت تغرق من كتر الميه، واحنا لما بيجي دورنا في السقية نصينا مش بيكفينا... وكلمنا البحَّار بدل المرة ألف وكله على إيديك... العيشة ضنك والناس مش حِمل إن زرعتها تموت

هز سيد خطاب رأسه في تفهم وقال

ما أنت عارف يا حاج محمد إني كلمت بتوع الري في الموضوع ده قبل كده... والواد انضبط وعرف إن الله حق... بس ديل الكلب... عمومًا أنا حكلم مهندس الري تاني يشوفله صرفة مع ابن الكلب ده

لا يا حاج سيد... الوله ده لازم بمشي... أهل ميت الشوكة بيدفعوله وبيدوله من زرعتهم علشان يسبلهم من المية أكتر من نصيبهم

جلس سيد خطاب يستمع لشكاوىٰ الحاضرين من البحَّار، المسؤول عن توزيع المياه الآتية من الرياح لتنقسم علىٰ القرىٰ بنصيب ودور، كل يدلي بدلوه ليؤكد ما يعلمه سيد خطاب جيدًا، أبدىٰ جل الاهتمام بكل ما يقولون لكنه في قرارة نفسه لم يكن يهتم بتلك الحقيقة كون أرضه ترتوي أولًا ليبقي غيض الماء الذي قد تموت به زرعة الفلاحين... بل لعل ذلك الحال كان يصب في مصلحته بطريقة غير مباشرة بالمساهمة في إفقار أهل القرية... حتىٰ يصبح الضغط ساحقًا ليكونوا فريسة سهلة تسقط في براثنه بلا مقاومة... لم ينتبه سيد خطاب في غمرة حديثه مع الرجال إلىٰ ذلك الشاب الذي راح يحدجه بنظرة تفيض بغضًا... لم ينتبه أحد لوجود سعيد الرفاعي بينهم.

## (٧)

من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده... فمن لم يستطع فبلسانه

ظلت أصداء الحديث الشريف تتردد في ثنايا فكر سعيد الرفاعي [illegible] حون بنار الترقب، فمنعته النوم... اكتفى بالاستلقاء على السرير [illegible] بدي العتيق الذي ينوء بحمله مع أخويه... ينظر إلى ظلام تعريشة [illegible] الدار وعرق الخشب البارز فيتخيل سيد خطاب معلقًا من قدميه [illegible] سيل من الجلدات على ظهره العاري... ثم يقلبه فيراه معلقًا من [illegible] بنما يتقافز أطفال القرية حول جثته في شماتة ظاهرة... تلك الجثة [illegible] التي يعافها الذباب والتي ما أن تسكن أديم الأرض حتى يصاب [illegible] ولا تلبث أن تتسرب رائحتها النتنة لتقتحم أنوف الأحياء كلما [illegible] الجرم الأثيم الذي أوعز لهم بفعله ذلك القلب الخرب... لكن [illegible] عقوبة جرم سيد خطاب في القانون! ثم هل من العدل أن يسري [illegible] القانون على التقاة وعلى أراذل البشر كسيد خطاب على السواء... [illegible] ل ذلك المترمم حقوق.

مرت الساعات طويلة، ثقيلة، محملة بالاحتمالات والأمال العريضة لغد طاهر لا يحمل بين طياته استغلال سيد خطاب لفقر وجهل أهل القرية من أجل تجارته الخسيسة. حاول القراءة لكن ذهنه المتقد حال دون انتقال الحروف من عينه إلى عقله... فأخذ الكتاب وأعاده بين خلانه من كتب السير والفقه بعد أن أطفأ اللمبة وعاد إلى استلقاءته الأولى... أخيرًا اقتربت اللحظة التي ظل ينتظرها... اللحظة التي ظل يعد لها سنوات طوال... كم يمقت سيد خطاب... لم تكن كلمات الكراهية تكفي لوصف شعوره... يكره تفاصيله... يكره صورته وصوته ورائحته وجلبابه المزركش.

لم يكن أهل القرية مهيئين لاستقبال الحقيقة من قبل... لم يكن يستطيع تحدي ما بات مسلمًا به... لكن اليوم ليس كالبارحة... بما أعده في السنوات الطوال من زرع خشية الله وتعظيم هيبته في قلوبهم عن طريق الإمام... اليوم فقط يستطيع تحدي امتراء المعصية... يمكنه أن يصرخ من فوق المنبر بأن تجارة سيد خطاب في لحومهم الحية حرام... ابتسم في مرارة عندما تخيل نفسه فوق المنبر... خطيب أخرس... من رأى منكم منكرًا فليغيره بلسانه... فما بال اللسان عليل.

حاول سعيد صرف تلك الفكرة السوداء عله ينام.

ذلك النوم اللعين... كلما طاردتُه تمعن في الهرب

هكذا حدث سعيد نفسه قبل أن يقوم لصلاة الفجر التي ارتفع أذانها دون أن تذوق عينه للنوم طعمًا... عاد إلى داره بعد أن أدى الصلاة في جامع الحجازي وحاول صرف عقله عن الأفكار المتلاحقة بالانهماك في نقل "السباخ" من تحت الماشية في "الزريبة" إلى الغيط والعودة لاستبداله "بالرتش" المحمل على الحمار.

يعلم سعيد بسخط الكثير من أهل باب الحجازي على إتجار سيد

في لحوم أهل البلد... وإن تعددت المنابع، فالبعض تأخذه
... فيجدها سبة في جبين أهل القرية بين القرى المحيطة حيث
.. مكانتهم إلى وضاعة السلع التي تباع وتشترى... ويراها بعض
ن الفلائل تسلط من أصحاب المال لشراء لحوم المعدمين في
م طبقي كريه لا يكفل أبسط الحقوق الآدمية، وآخرون يرون فيها
ا السياسي وفساد الدولة الذي أتاح الازدهار لمثل هذه التجارة...
.. (بته هو كانت أبسط من ذلك كثيرًا، فهي تجارة محرمة شرعًا، حيث
م الإنسان ما لا يملك وهو جسده الذي حرَّم الله بيعه.

الرغم من أن المجاهرة بالمعصية ومبدأ "على عينك يا تاجر" يستفز
. شاعر سعيد الرفاعي الإيمانية ويستنهض فيه الغيرة على الدين...
.ن من ذلك أن تلك المعصية تقدم في غلاف ديني، في المولد
حضرة أولياء الله الصالحين وتحت أعين شيوخ الحضرة وبلا أدنى
.. اس منهم... وبالرغم من عقله الذي أوشك أن ينصهر تحت وطأة
.مال وحموضة الغضب... إلا أنه كان كعادته، يعمل من أجل هدفه
. نملة قررت حفر نفق في صخرة... وقد أوشك على أن يرى النور
في نهاية النفق... أوشك على الوصول للجهة المقابلة ونيل مبتغاه.

استحم بعد أن انتهى من جلب "الرتش" وتناول بعض كسر الخبز
ا.. ن القريش مع أسرته التي التفت حول "الطبلية" واستعد للذهاب إلى
ص .. الجمعة خلف الإمام... ابتسم عندما وجد جلبابه قد أُعِدَّ ووُضِع
السرير... كم يحب توأمته زينب... بوجهها الصبوح وروحها

انطلق صوت الإمام صدّاحًا يرج أركان الجامع وباب الحجازي كلها
ا.. ات سعيد الرفاعي... كانت خطبته التي كتبها منذ يومين موجهة
. حص واحد فقط... الإمام نفسه... الخطبة عن الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وخطورة استمراء المعصية... بعد انتهاء الخطبة وانقضاء الصلاة، انتظر سعيد الإمام كما العادة واتخذ الصديقان طريقهما نحو دكان الإمام يتجاذبان أطراف الحديث... حاول سعيد أن يتغلب على تلعثمه الزائد من فرط انفعاله مما ينوئ قوله للإمام... حتى حانت اللحظة التي ينتظرها وسأله الإمام سؤاله المعتاد عما سيكتبه في الخطبة التالية.

لم يجبه هذه المرة بموضوع الخطبة... بل ناوله خطبة معدة سلفًا، بدا الاندهاش على وجه الإمام الذي تناول الورقات وشرع في قراءتها... ما أن قفزت عينا الإمام على السطور الأولى حتى أخذت يداه ترتعشان من فرط الانفعال وسرعان ما تحولت دهشته إلى ارتياع... ما لم يكن يعلمه الإمام أن تلك الخطبة ظلت حبيسة صدر سعيد لسنوات وسنوات حتى قرر أن يحررها من صدره لتحبس من جديد على الورق لسنوات أخرى... وها قد جاء ذلك اليوم الذي تتحرر فيه الكلمات من سجنها الورقي لتسكن القلوب والعقول... لقد عقد سعيد الرفاعي العزم على عدم السكوت... خطبته التالية خطبة نارية عن حرمة الإتجار بالأعضاء.

إنت اتجننت يا سعيد... إيه اللي انت كاتبه ده!!

هكذا صاح الإمام في وجهه... لم يشعر سعيد بالإهانة، بل عاوده ذلك الشعور المحتقن بالمرارة عندما يدرك أنه على حق وأنه يملك الحجة فلا يستطيع التعبير عنها أو توصيل فكرته لتسارع أفكاره وبطء لسانه المتلعثم، فيقهره من يجادله... لم يكن يفهم لم خلقه الله في هذه الحالة ويمثل ذلك الضعف... لكنه حاول شحذ تركيزه وتنحية الإحباط الجارح المتراكم بداخله جانبًا وتوجيه كل طاقته إلى لسانه للرد على الإمام... راح يتلجلج ببعض كلمات متحرة النهاية كأخرس يحاول التحدث... لكنه أعد العدة جيدًا هذه المرة، أخرج سعيد من "سيالة" جلبابه خطبة أخرى خاصة ناولها للإمام ودفع بلسانه دفعًا ليقول

الله ا... اا... أحق أن تخشاه... تخاف من س... ســس... سيد
ـطاب ولا مـمـم... مم... من اللي خلقه؟

.اك الإمام فقام يجول في الدكان بتوتر واضح... يعلم سعيد كيف
.مفل الإمام... هو في الأصل تاجر ورث دكانه أبًا عن جد، يجيد
اب بمنطق المكسب والخسارة، والخطوة التي يطلبها منه تربك
ا.ات مستقرة... سيد خطاب هو من عيَّنه في الجامع الذي أبقاه بعيدًا
. الأوقاف ليرضخ لسيطرته الكاملة بلا تدخل من الوزارة، وهو بالطبع
ـلى الإطاحة به، لكن تبعات هذه الخطبة ستعدئ ذلك لما هو أبعد،
؛.ام لابد أنه يخشى ذلك... ولذا أعد سعيد مرافعته جيدًا ليقنعه بما
ويزيل عنه الرهبة التي قد تمنعه من المضي قدمًا... كتبها سعيد في
اا، الخطبة المنفصلة، فلن يخاطر بالمجادلة مع شخص مفوه حسمت له
االما.ة مع عقدة لسانه... راقب سعيد الإمام الذي احتقن وجهه ودعا الله
، ـاهضًا أن يشرح قلبه للحق.

## (٨)

في دار علي الرفاعي جلس خليل يحدث أم سعيد وزينب بما عرضه عليه سيد خطاب، وهو يعلم في قرارة نفسه أنها ليست بزيجة، ربما بيعة مقننة مغلفة بقشرة شرعيه لكنها لاتزال بيعة، ومن يبيع، إنها زينب، زينة بنات باب الحجازي كلهن... ارتجفت أصابعه عندما تخيل رد فعل والدها إن كان حيًّا يرزق على مثل هذا العرض. فأسرع بوضع كوب الشاي ليواري ارتعاشه. لم يكن سيد خطاب ليتجرأ بمثل ذلك العرض على والدها، لكنه يتجرأ عليه، لكن تلك النيران الملتهبة لم تجعل خليل يهب للذود عن هيبته أو كرامة بنت أخته... ربما أثقلته الديون... ربما ألجمت لسانه الهموم... فصب على تلك الحمم المزيد من الشاي الملتهب وهو يتابع وجه أخته.

وأنت إيه رأيك يا خليل

تسارعت نبضات قلبه عندما أحس بالمرارة الممتزجة بالسخرية في

. ا. ص النظر في كوب الشاي ليتحاشى التقاء عين أخته التي باعها
اه. بأنيها ببيعة جديدة

- عاير ن نستر البت يا أم سعيد

- إيه شمان يا ابن أمي

- الله يا أم سعيد... بتكلميني كده ليه... بقولك دي جوازة تخلي
ب هانم وتساعد في سد حاجة البيت

- مين قالك أن البيت ناقصه حاجة... ولو ناقصه حاجة مش الأولى
- حي تقولي اللي في الدست تجيبه المغرفة، تقف جنب أختك
بدل ما تعرض عليها تبيع بنتها

م خليل في مرارة واضحة

- ما إنتِ عارفة البير وغطاه... والحال من بعضه

- ربنا الرزاق يا خليل... يرزق الهاجع والناجع، واللي نايم على
سماخ ودنه

- الكلام ده ما يأكلش عيش... شوفي مصلحتك ومصلحة بنتك

- وكلام سيد الوسخ ده هو اللي يأكل عيش... مش كده يا خليل

ام يحتمل خليل المزيد من سخريتها اللاذعة فاحتد وهو يقول

- الوسخ اللي بتقولي عليه ده قال أنه حيطلع مصطفى من السجن لو
وافقتي

امتقع وجه زينب وخرجت عن صمتها لأول مرة

- لا والنبي يا امه... ده أبويا مرضيش يروح له علشان مصطفى...
وحياة سيدك الحجازي متبعيني علشان مصطفى يا امه

سـارع خليل بالقول

يا بت بيعة إيه... جاتك خابط... دا إنتِ حتنبــطي وتــافري مصر وتلبـي الأصفر والأحمر وتركبي ال...

قاطعته أم سعيد بصرختها

قوم اطلع بره

بهت خليل وقال

بتطرديني من دارك يا أم سـعيد

ولو مكنتش أخويا كنت اديتك بالبلغة كمان

التقط خليل طاقيته ومضى يسب ويلعن... وبقيت أم سـعيد مع ابنتها تنحدر دموعها بلا تحكم وبلا نحيب حتى عاد سعيد إلى الدار من دكان الإمام... انقبض قلبه جزعًا عندما علم من زينب ما جرى أثناء انشغاله مع الإمام... هاله أن خاله هو من توسط لتلك البيعة الحقيرة، وزاد من حنقه بصمات سيد خطاب الدنسة التي لوثت داره... استشعرت أمه غليانه بسبب خاله فقالت

من الليلة ملناش صالح بيه... الشجرة اللي ما تضلل على أهلها يحل قطعها

لكن ذلك لم يشف غليله... مجرد طرده من الدار لم يكن كافيًا.

برغم تجاوز زينب السن المناسب للزواج، وتحذير أمها المتكرر بأنها على وشك العنوسة، إلا أنه لم يكن هناك شاب في باب الحجازي أو ما يجاورها من قرى لا يتمنى الزواج منها... ولا تزال هي نافرة من تلك الفكرة بلا سبب واضح... لكن أن تكون نهاية تمنعها هي تلك "الزيجة"

القذرة، كان ذلك أكثر مما يحتمل سعيد... لم يشعر بنفسه وهو يهرول إلى دار خاله... لم يشعر بنفسه وهو يسحبه خارجها وسط عويل زوجته وأطفاله... استسلم خليل لصفعات سعيد وسبابه المبهم... لم يعترض أو يقاوم وكأنما كان ينتظر ذلك العقاب ليطهره من الذنب والعار... إلى أن تجمع الناس وحالوا بينهما بصعوبة بالغة... البعض راح يطالع وجه خليل الذي تورم كأنما دهسته قاطرة، بينما ارتمت امرأته بجواره تداوي جروحه وتسب سعيد الذي كان لازال يلهث ويحاول الوصول إليه من جديد.

في طريق عودته تجنب سعيد الجميع... وبرغم ذلك تناهى إلى سمعه صوت النسوة المجتمعات في مداخل الدور يهمسن بأنه ممسوس وأن قربته هو الذي دفعه إلى ضرب خاله، فيما أخذ الرجال يراقبونه بحذر، وأكد بعضهم أنه مجنون، لا يجالسه سوى كامل المجذوب لأنه على شاكلته... لم ينهر أيٌّ من الرجال أو النساء جمعَ الأطفال الذي تبعه إلى داره، يصيحون

شيخ محضر يا شيخ محضر... واللي عليه عفريت يحضر

خرجت زينب من الدار تركض في أثر الأطفال شاهرة نعلها... تلعنهم وتسبهم بأمهاتهم... حتى تفرق جمعهم ثم عادت إلى الدار. لم يكن أي من أهل القرية يعلم ما أقدم عليه خالها وما أسهل أن يلقي الجميع باللوم على أخيها.

تلك الليلة أعدت زينب العشاء وأحضرته إلى سعيد الذي هرب إلى سطح الدار ليبقى وحيدًا... لم تحدثه... لم تشكره على ما فعل من أجلها... فقط ظلت بجواره تطالعه... تحمل عيناها أسمى معاني العرفان الجميل التي لن تنقلها كلمات البشر.

## (٩)

تساقطت الأمطار على شوارع باب الحجازي الترابية فأحالتها إلى وحل لزج، وتجمعت المياه في برك صغيرة أثارت هدوءها الأقدام المسرعة بالعودة إلى دفء البيوت واتقاء المطر المنهمر... وسط ذلك المشهد بدت السيارة البوبك التي تشق الطريق مخلفة وراءها آثار عجلاتها العريضة، بدت خارجة عن السياق... حتى أن بعض الأهالي توقفوا برغم المطر ليتبينوا السيارة وراكبيها... لحظات وترجل منها شاب ذو شعر قصير ولحية نابتة... وجهه الطويل وعيناه الواسعتان التي تشعان قوة، برغم رأسه المنكسة، مع طوله الفارع يشعرانك أنه شخص ذو شأن... كان ذلك وجهًا كادت باب الحجازي أن تنساه... بخطوات ثقيلة توجه الشاب إلى دار علي الرفاعي متجاهلًا تلك العيون التي تحاول تبين وجهه... طرق الباب وظل صامتًا كالحجر حتى فتحت زينب.

مصطفى !!

, ددت جدران الدار صرخة عدم التصديق التي أطلقتها زينب وهي .. ضن أخاها بينما تنهمر دموعها بلا تحكم... هرول إخوته الصغار ... فجثا على ركبتيه يحتويهم بين ذراعيه... ثم كان عناق سعيد الذي ... الكثير من المشاعر المتراكبة... هكذا بلا مقدمات عاد مصطفى... ام بادر مصطفى حضن أمه التي لم تكف عن البكاء طوال تلك الليلة... , جت دموع الفرح بعودته بدموع الحزن على ذكرى والده الذي مات حسرته عليه... لكن الذي عاد لم يكن مصطفى الذي ترك باب الحجازي ... ما يربو عن عشرة أعوام... تركت به نومة "البورش"، الذي لا يكاد ... لفرد واحد، والجدران الرطبة التي تعج بالبق والإهانات التي تلقاها ... فترة اعتقاله، تركت ندوبًا في نفسه لا تلتئم... ليخرج فيجد فاجعة ... والده في انتظاره... لا توجد كلمات لوصف شعوره بعد عودته إلى باب الحجازي... كان كمن بعث من قبره فوجد سعير الجحيم في انتظاره، لتبدو وحشة القبر أنسًا وضيقه رفاهية... تذكره ملابس أمه التي صُبغت باللون الأزرق القاتم إن حاول التناسي بالحداد الدائم التي فرضته على نفسها... وزينب التي فشلت بدورها في إخفاء تلك النظرة التي تلومه على موت أبيها، ثم سعيد الذي يتجنبه كلما حاول التحدث إليه... والأحوال المادية السيئة والعودة لمعيشة القرية بعد أن أنس إلى حياة المدينة.

لم يعد شيء مألوف في باب الحجازي، لم يكن هناك الكثير الذي تغير بها، لكنه هو الذي تغير... عودته إلى باب الحجازي مثلت له سقطة وردة حضارية هائلة أثقلت صدره كثيرًا... لم يستطع التوقف عن المقارنة بين ضآلة البيوت المبنية من الطين "النيء" وتلك العمائر الضخمة التي تزين شوارع وسط البلد... بين أحاديث أهل القرية التافهة وهيئتهم الرثة التي يعلوها الأتربة وبين أحاديث رواد الأوبرا وحللهم الأنيقة حيث كان يعمل

في تحصيل التذاكر... ربما تكون تلك المقارنة، حبيسة عقله الباطن، التي منعته عن العودة والاستقرار بالقرية منذ أن فقد عمله بالأوبرا بـ احتراقها.

سرعان ما لاحظت أمه تلك الحقيقة... صمته المطبق خلال الأيام التالية لعودته أصابها بالحيرة ودفعها للبحث عن وسيلة لكسر صمته وإخراجه من الدار، لذا فقد أصرت أن يذهب بنفسه إلى سراي فؤاد خيري باشا فور علمها بمجيئه ليشكره والهانم على توسطهما لإخراجه من المعتقل... ولم يبد أن مصطفى يملك الطاقة الكافية لجدال أمه فأذعن لرغبتها وذهب إلى السراي صبيحة اليوم التالي.

بالغ الخفراء في الترحاب بمصطفى لدى وصوله بوابة العزبة... اصطحبه أحدهم في طريق يحيطه من الجانبين تماثيل رومانية بيضاء لأطفال يحملون المشاعل... أخذ يحدثه بلا انقطاع عن مدى تأثره بوفاة والده والعلاقة الخاصة التي كانت تجمعه به. استرجع مصطفى أيام طفولته حينما كان يرافق أباه أثناء عمله في العزبة التي تصل أطيانها حتى حدود باب الحجازي القبلية... مركز العزبة هي سراي الباشا التي يفصل بينها وبين بعض البيوت الطينية للفلاحين العاملين بالعزبة دوار ضخم يضم مخازن الغلة والأسمدة... إلى جوار الجرن الذي تدرس به الغلال.

أفضى الطريق إلى نافورة من الرخام الإيطالي تترقرق منها مياه على تماثيل مرمرية لأربعة نساء يستحممن في هدوء عابث... حاول الخفير لفت نظر مصطفى إلى نهودهن البارزة بابتسامة عابثة... لكن مصطفى كان يطالع السراي المهيبة المكونة من طابقين... التي لم تكن سوى سراي فؤاد خيري الصغيرة، فالسراي الكبيرة تقع بهليوبليس.

استقبلت مصطفى على باب السراي ابتسامة السفرجي الساكنة، الذي قاده إلى البهو الرئيسي حيث وجد الباشا جالسًا وسط قطع الأثاث

، ،ا اعب كلبه الأثير، تروي، بينما يلتهم سيجاره الذي راح دخانه
، حمي وجهه العريض... ليضفي عليه هالة تحمل كبرياء العائلة
،، ا ي تمتد جذورها إلى عصر محمد علي باشا الكبير... مد الباشا
اما الشعر ليصافح مصطفى الذي جلس بعد أن أشار له الباشا

- ،ش عارف أشكرك وأشكر الهانم إزاي على أفضالكم معايا

- ابوك كان راجل يعتمد عليه وأنا منساش أمانته... ودي حاجة ،سيطة

ـ ت مصطفى برهة تصاعد خلالها الدخان من فم فؤاد خيري كقطار

- ئت عايز أشكر الهانم بنفسي لو مفهاش تعب عليها

ما ر ق الباشا زر جرس بجواره فجاءته إحدى الخادمات، أمرها أن تُعلِم ،، هانم أن مصطفى جاء ليشكرها، فمالت عليه الخادمة وهمست في ، مصحك وصرفها

- الهانم في جلسة من جلسات السماع الصوفي... مش عارف إيه اللي عاجبها في الحاجات دي... بتحضر أكبر حفلات في أوروبا وفي الآخر ترجع لجلسات السماع بتاعت الفلاحين دي

لم يعلق مصطفى وبدا أن الباشا لا ينتظر منه تعليقًا فمضى يقول باشمئزاز

- أخدتني مرة هناك... مكان مقرف والدبان مالي القعدة... مكملتش... لكن برغم قذارة المكان إلا أن فيه تحفة حقيقية

صمت فؤاد خيري قليلًا لتشويق مصطفى ثم قال

الباب... الباب يا ولد يا مصطفى تحفة... سيبك من التخاريف اللي الفلاحين بيقولوها... الباب ده أثري... أنا لفيت العالم وأفهم في التحف والآثار كويس قوي... عمري ما شوفت حاجة بالجمال ده... تعرف، أنا محبتش في حياتي قد تمثال ديفيد في فلورنس... تسمع عنه؟

هز مصطفى رأسه بالنفي وقد بدا عليه الاهتمام

ده أرقى تحف العالم... تمثال طوله ٦ متر لشاب عريان يحسسك إنك قزم جنبه، العري هناك مش حاجة عيب زي التخلف اللي هنا، هناك بيقدروا جمال الجسم، وديفيد جسمه آية في الكمال نحتها مايكل آنجلو... أكيد تسمع عنه... واقف بشكل يخليك تحس إنه مستني اللحظة المناسبة للحركة... حاجة تبعث جواك طاقة وقوة في نفس الوقت اللي تحس فيه إنك قزم ضعيف جنبه... حاجة تخطف روحك وتخلك لعالم تاني كله جمال وصفاء... أهي نفس الحالة دي جتلي لما شفت الباب

أخذ نفسًا آخر من سيجاره وبدا أنه شرد بخياله فأصبح في فلورنس التي عاد منها منذ أسبوعين... تلك المدينة الساحرة التي شهدت نشوء الأوبرا... يشحن نفسه بالجمال، جمال المدينة والطبيعة والمعمار والنساء والجو... كم تبعد فلورنس عن باب الحجازي البائسة فتبدو أنها في بُعد وفلك مختلف. كانت هذه وغيرها من السفريات التي تملأ حياة فؤاد خيري ـ الذي مازال كل من يتعامل معه ينعته بالباشا ـ تمثل ملجأ محببًا له من واقع يبغضه ويرفض الاعتراف به، وتعيده إلى زمن جميل عزَّ أن يدوم... شهر في الشتاء وشهران في الصيف يقضيهما في رحلاته الأوربية بين المتاحف والعروض الأوبرالية العالمية... ليحفظ عينيه وقلبه من نسيان معنى الجمال.

..هد الباشا بعد فترة تأمل طويلة وعدل من وضع قدمه وقال

ديفيد عنده اللي يقدره أما الباب واقع في وسط همج ميقدروش الجمال

دخلت في تلك اللحظة الخادمة تدفع ترولي وضع عليه الشاي وبعض امام الجاتوه فيما انطلق تروي خارجًا من الباب الذي فُتح فكادت الخادمة ان تسقط الترولي.

كُل... شاكلك مش عاجبني يا ولد... هي أمك لسه بتأكلك من أكل السجن ولا إيه

حاول مصطفى الابتسام مجاملة لمزاحه فخرجت ابتسامة باهتة ولم يمد يده تجاه الجاتوه فأضاف الباشا

أنت اشتغلت فين بعد الأوبرا ما اتحرقت

اتنقلت بين كذا شغلانة... آخر فترة اشتغلت في مدابغ مصر القديمة

هكذا قال مصطفى فارتسمت علامات الدهشة على وجه فؤاد خيري قبل أن يقول

من الأوبرا للمدابغ!

صمت الباشا برهة ثم قال

أنت بتفكرني بحال البلد

أخذ الباشا يلوح بيديه في تقزز... يقول أن علاقة الحكّام بالبلد مؤخرًا أصبحت علاقة ترمية، يأكلون من جثة بلد خربة بدلًا من بعثه من ترابه لحلته الأولى البهية.

اصطحب الباشا مصطفى إلى لوحة عملاقة للخديوي إسماعيل تحـ
صدارة بهو السراي، بجوار صور العائلة... وقف تحتها، تلمع عيـ
العسليتان في انتشاء نادر وسوى حاجبيه الكثين وأقام ظهره في خيلا
لتبدو قامته الرياضية البديعة برغم سنوات عمره التي تعدت الخمسين،
وبدأ في سرد قصة إنشاء أول أوبرا في إفريقيا والشرق الأوسط التي بناها
الخديوي إسماعيل... وفؤاد خيري راو ومتمرس كأي عاطل محترف، تدور
حياته حول المناسبات الاجتماعية والحفلات. كما أنه يملك زمام تاريخ
تلك الحقبة جيدًا لعمل جده الكبير في نظارة[1] مصطفى رياض باشا إبان
حكم الخديوي إسماعيل... مما أتاح له أن يضفي الكثير من التفاصيل
التي تزيد من تشويق سرده للقصة... بدأ فؤاد خيري بوصف الخديوي
الذي كان في قمة حماسه، فهو على وشك افتتاح قناة السويس، الحلم
الذي استغرق بناؤه عشرة سنوات كاملة، الحلم الذي توفي في تحقيقه
ما يزيد عن ثلاثمائة وأربعين ألف عامل مصري نتيجة أعمال السخرة
والكوليرا والجدري، لكن الخديوي إسماعيل لم يكن يعبأ بذلك الرقم،
هو لم يكن يعلمه في الواقع... كل ما كان يشغله هو الاحتفال بالافتتاح...
وكيف سيبهر المجتمع الأوربي لإثبات أن مصر لا تقل حضارة عنه، كما
أنها فرصة ليثبت استقلاله عن الأستانة.

أطلق فؤاد خيري زفرة حارة وهو يصف القاهرة التي كانت تنافس أوروبا في جمالها ونظامها وأناقة شوارعها، بالرغم أن أحياءها، قبل تولي الخديوي إسماعيل، كانت تفصلها عن النيل برك ومستنقعات وتلال ومقابر... إلا أن الخديوي استطاع خلال سنوات قليلة تحويل

(1) اللفظ الذي كان يطلق على الوزارة في تلك الحقبة.

، القديمة إلى باريس الشرق، لتصبح تحفة معمارية تنافس أجمل
العالم... فخطط الحدائق التي جُلِبت أشجارها من الصين والهند
، السودان وأضاء شوارعها التي رصفت بالبلاط وأدخل إليها في
وات السكة الحديد والترام وأنشأ الكباري ككوبري قصر النيل
ن أبو العلا الذي صممه المهندس جوستاف إيفيل صاحب تصميم
، إيفل وتصميم تمثال الحرية الذي ذهب إلى نيويورك بعد أن رفضه
، ، ي لكونه دميمًا في رأيه.

الرغم من ذلك البهاء الذي أصبحت عليه القاهرة، إلا أن شيئًا مهمًّا
، مصها قبل أن تصبح على أهبة الاستعداد لذلك الحفل الأسطوري
ن دُعي إليه أباطرة وملوك العالم وقريناتهم، وأراد له الخديوي أن
، ، ، ألف ليلة وليلة، كان ما ينقص القاهرة هي الأوبرا... فأمر الخديوي
، دار الأوبرا التي بنيت من الخشب وقام بتصميمها المهندسان
يطاليان أفوسكاني وروسي... ولأول مرة... تعرف العالم على عمل
، ي الأوبرالي الأشهر، أوبرا عايدة، في افتتاح الأوبرا في مصر... أشار
الباشا إلى صورة جده الكبير الذي حضر الافتتاح العالمي في ديسمبر
كم كانت الأوبرا ملهمة وكم كانت مصر عظيمة.

عاد فؤاد خيري إلى مقعده وتبعه مصطفى... ختم الباشا قصته عن
الأوبرا بالنهاية المأساوية التي قضت على تلك المنارة بعد مائة عام من
الإشراق... احترقت الأوبرا الخديوية في نفس العام الذي صعد فيه
السادات إلى سدة الحكم... لتبقى القاهرة منذ ذلك الحين بلا أوبرا وبلا
جمال... راح يسرد بحسرة شديدة عما علمه عن المشروع الذي أرسل
، "ماكيت" إلى السادات لبناء دار أوبرا جديدة في نفس مكان الدار
الخديوية التي احترقت، أعدها أعظم المهندسين المختصين بالأوبرا
، هندسة الصوت لبناء أوبرا تليق بمصر... ومات المشروع بوصوله إلى

استراحة السادات بالقناطر الخيرية وظهر علينا قبح جراج الأوبرا.

تخيل القاهرة تفضل لحد النهاردة من غير أوبرا... حتى حفلات أم كلثوم في الخمسينات والستينات راحت وراحت معاها طبقة الهوانم والباشوات والأفندية المتشيكين ومفضلش غير الهم

صمت قليلًا ثم لم يتمالك انفعاله فأضاف بعصبية

عبد الناصر عمل نفسه نصير الفقرا وحارب الباشوات فطلعلنا باشاوات الجيش، والسادات جالنا وجاب معاه باشاوات الانفتاح، كل اللي عنده دكان جاب توكيل ولا عمل مكتب استيراد وتصدير، وبقى باشا... والاتنين مصر بقت أفقر في زمنهم... ده غير أن باشاوات عبد الناصر والسادات عندهم عقدة النقص اللي مش حتفارقهم... عارفين إنهم باشاوات فالصو... فيتمحكوا في ولاد الأصول... الموضة دلوقتي بقت الجواز من بنات العائلات الكبيرة... بيحاولوا يشترولهم أصل... وبكده يضمنوا أنهم بقوا باشاوات بنسبهم... وأحفادهم حيبقى بيجري في عروقهم دم نضيف... المصيبة إن العائلات الكبيرة بتوافق بالجوازات المنحطة دي علشان يبقى ليهم نصيب في الثروة اللي نازلة تمطر على شحاتين إمبارح وغمضوا عنيهم عن أصلهم

أشعل الباشا سيجارًا جديدًا ثم غير دفة الحديث بقوله

ويا ترى السجن الصغير كان زبالة زي السجن الكبير اللي إحنا عايشين فيه

تنهد مصطفى وقال

السجن ده عالم تاني يا باشا... لقيت نفسي بطولي فيه من غير سند، جوه السجن عرفت إن في تنظيمات بتراعي المعتقلين

الإخوان والشيوعيين... ناس تقوم لهم محامين وتراعي بيوتهم بره... وتبعتلهم أكل جوه السجن كمان، أما اللي ملوش في الطور ولا الطحين زي حالاتي يفضل مفصول عن العالم ملطشة للكل

ولما انت ملكش في الطور ولا في الطحين... إيه اللي نزلك المظاهرات

كنت نازل مع واحد صاحبي... أهله من البلد هنا بس عايشين في مصر... كان نازل مع مجموعة من صحابه وأصر إني أنزل معاه... أنا اتمسكت وهم كلهم هربوا... هو كده يا باشا، قليل البخت يطلعله العضم في الكرشة

قهقه الباشا ثم قال بعد أن تمالك نفسه

بره لما تطلع مظاهرات بالحجم ده الحكومة تقعد مع قيادات المتظاهرين علشان يشوفوا طلباتهم... تعرف كان إيه رد السادات على المظاهرات

تطلع مصطفى إلى فؤاد باشا في فضول فأخبره عن استفتاء "حماية امن الوطن والمواطنين" الذي قرر عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة على إنشاء المنظمات المعادية لنظام المجتمع أو المشاركة فيها أو التجمهر أو التحريض على التجمهر وجاءت نتيجة الاستفتاء بنسبة ٩٩.٤%... ثم سحك حتى سعل وهو يضيف

الاستفتاء ده ملوا استماراته في الإدارة بدون حتى مراعاة للشكليات... حتى في التزوير مفيش ضمير

ضحك مصطفى فأضاف الباشا

- وبعدين طلع لنا "قانون العيب" اللي يمكنه من رقبة المعارضة

بكلام مطاط... يقولك الحفاظ على قيم المجتمع واجب على
كل مواطن... ويحدد عقوبات للتشكيك في سياسة الدولة أو
الرسالات السماوية... كأن سياسة الدولة دي حاجة منزلة زيها
زي الرسالات السماوية، والتشكيك فيها يعتبر إخلال بقيم
المجتمع يجيبك تحت طائلة قانون المدعي العام الاشتراكي...
وطبعًا الاستفتاء على القانون كان أكثر من ٩٩% كالعادة... هو
فاكر إنه كده حيمسك البلد بالحديد والنار وحيكتم الأصوات...
نفسه يبقى فرعون حتى لو بقى فرعون على خرابة... زمان الملوك
والسلاطين كانوا بيسيطروا على العبيد والرعاع عن طريق النبلاء
ورجال الدين اللي بيمجدوا في الملك... ودول بمفردات اليومين
دول هم بشوات الانفتاح وجنرالات الجيش، والمشايخ بتوع
العمم والدقون... والسادات جايب معاه الجيش وبشواته الجداد
وعايز يحط المشايخ في جيبه علشان يبقي الفرعون الإله

سحب الباشا نفسًا عميقًا من السيجار وغرق في صمت عميق ليبدو
على وجهه الهم... ذلك الهم الذي لم ينتهي بعودة جزء من أملاكه التي
حُرِمَ من التمتع بها خلال العقدين الماضيين، والتي كانت تشمل عزبة
كامل التي تنتسب إلى والده كامل خيري باشا بالإضافة إلى مئات الأفدنة
من أجود الأطيان في باب الحجازي... تلك الأطيان التي قضت عليها
رة يوليو لتنقلب أحواله رأسًا على عقب كباقي العائلات الأرستقراطية
في مصر بتولي جمال عبد الناصر الحكم وإصدار قوانين الإصلاح
الزراعي التي أتت على جزء كبير من ثروته، ووضع الجزء الآخر تحت
الحراسة، إلى أن رُفعت الحراسة عن أملاكه منذ سنوات قلائل في عهد
السادات. لكن الأملاك لم تكن جُل ما خسره... ففؤاد خيري رجل يعتز
بوصف نفسه بالذواقة... رجل يعيش للجمال وبالجمال... لذا فقد
سكنت قلبه مرارة مقيمة بعد ترحيل الرقي والذوق الذي كان يميز مصر

" ي أصبحت في حالة سقوط حر. لتصبح عبارته الأشهر أنه "يعشق مصر ..دره المصريين"

لم يقطع مصطفى صمت الباشا الطويل إلى أن اعتدل هو وقال

اسمع يا مصطفى... من ساعة ما أبوك مات والعزبة عايزة ناظر... أنت من النهاردة حتشتغل مكان أبوك... أنا مبحبش لؤم الفلاحين ومش عايز صداع... وزي ما انت شايف أنا مبجيش إلا لما الهانم تروح لجلسات السماع بتاعتها... إنت مشي أمورك ومترجعليش إلا في حاجة تستاهل

لم يخيب مصطفى ظنون الباشا وتحمل أعباء العزبة بالكامل... وبمرور الشهور توطدت علاقة مصطفى بالباشا والهانم، وأصبحا يحرصان على استدعائه كلما حضرا إلى السراي... وتحسنت أوضاع أسرة علي الرفاعي... سعيد يرعى الأرض ومصطفى يعمل بنظارة العزبة... حتى اعتاد مصطفى روتين حياته الجديد... لكنه لم يألفه للحظة... كان لايزال يحلم بالأوبرا وأيام العاصمة... يحلق في سمائها بخياله ويسترجع السمفونيات التي حلقت بروحه إلى أبعاد لم يكن يعلمها... تدفعه تلك الذكريات بعيدًا عن مجتمعه الجديد الذي يفصله عنه مسافة كتلك التي تفصل بين العاصمة وبين باب الحجازي... وبالرغم من تصرفه كالغريب المنفصل عن أهل القرية وابتعاده عن المشاركة في جلسات السمر على المساطب أو حتى المناسبات الاجتماعية... إلا أن ذلك لم ينتقص من مكانته في قلوب أهل باب الحجازي بل زاده هيبة وكلما عزف عنهم زادت مكانته رفعة... هو بالنسبة لهم الأفندي المتعلم... كذا أضافت له وظيفته الجديدة كناظر عزبة الباشا مزيدًا من الهيبة، خصوصًا مع معاملة الباشا الخاصة له البعيدة كل البعد عن معاملته لباقي فلاحي القرية.

# (١٠)

كان على سيد خطاب أن يحمل الخبر التعس برفض "الزيجة" إلى الشيخ أبو خالد... وبرغم اتصالاته العديدة التي كان يلمح خلالها إلى قرب عودته لمصر في إجازة يريد أن يجعل منها شهر عسل طويل، إلا أن سيد خطاب أحجم عن إخباره عبر الهاتف... كان يريد أن يواري مرارة الفشل مع زينب بحلاوة النجاح في العثور على "ابن الحلال" الذي سيقوم "بفعل الخير" مع الشخص المهم الذي كُلف أبو خالد بمساعدته.

مر ما يزيد على شهرين بعث خلالهما بزهاء الأربعين مرشحًا إلى المعامل الطبية بحثًا عن "ابن الحلال" المناسب حتى وجد ضالته أخيرًا فقرر الذهاب بنفسه إلى الشيخ أبي خالد، الذي كان قد وصل مصر بالفعل... ظل طوال الرحلة من باب الحجازي إلى فندق شيرد في وسط البلد يعد ما سيلقيه على أذان الشيخ ليخفف من وطأة الرفض... كما حمل له بعض العروض لفتيات في نفس العمر لعله يرضى بإحداهن بديلة.

جلس سيد خطاب في بهو الفندق الفخم الذي يعج بالسائحات من جنسيات عدة، شعور كالذهب وسيقان كالمرمر تتهادى أمامه، تابع تلك التحف متقنة الصنع التي أذهبت عنه بعضًا من قلقه حتى هبط إليه الشيخ برتدي بدلة كاملة مع اثنين من مساعديه عرف من لهجتهما أن أحدهما شامي، قصير ممتلئ الجثة ذو وجه أحمر، بينما الآخر مصري نحيل، ذو ندبة بيضاء تشق فوده، تقفز من وراء نظارته ذات الإطار الدائري نظرات خبيثة لم يرتح لها... حياهم جميعًا وبادر الشيخ فور جلوسه بالقول

أنا جيت أزفلك الأخبار الحلوة بنفسي

ابتسم الشيخ وهو يستوي في جلسته وقال بصوته الجهوري العابث

انت ما يجي من عِندك إلا الخير يا حاج سيد يا جميل

ناوله سيد خطاب الفحوص الطبية الخاصة بابن الحلال المنشود

مش عايز أقولك تعبت قد إيه لحد ما عترت في ابن الحلال... بس الحمد لله ربنا هداني ليه في الآخر

قلب الشيخ الفحوصات الطبية في يديه سريعًا قبل أن يناولها لمساعده الشامي الذي التقط عوينات القراءة وراح يتفحص الأوراق بدقة حتى تهللت أساريره وابتسم للشيخ الذي قال له

روح بشّر الربع

انطلق الرجل فأشار الشيخ لمساعده المصري بالذهاب أيضًا... نبض قلب سيد خطاب بعنف عندما اختلى به الشيخ

ألف مبروك يا شيخنا... والله أنت كلك بركة وربنا بيحبك

والله انت اللي بركة يا حاج سيد... لكن ترى ألف مبروك هذي ما هي حجي... تراها حج المريض... إيش أخبار عروستنا الحلوة؟

هكذا أجابه الشيخ بنبرة ذات مغزى فمسح سيد خطاب جبينه بحثًا عن عرقٍ لم يكن موجودًا وقال

دي بت سو متليقش بيك... أنا حضَّرتلك كذا واحدة برقبتها تيجي تشوفهم عندنا في البلد وتنقي اللي تعجبك

احمرَّ وجه الشيخ دفعة واحدة بلا مقدمات حتى أن سيد خطاب بهت وتراجع إلى الخلف قليلا

هو انت راح تزوجني على مزاج أمك... أنا جولت مين أبغى وانت ما عليك إلا التنفيذ

ارتج سيد خطاب لذلك الهجوم المباغت وتلفت حوله ليرى إن لاحظ أحد من الرواد كرامته التي بعثرت على أرضية الفندق... لم يجد كلامًا يقوله، لم يعتد أن يهينه أحد بهذه الطريقة... وظل ينظر إلى الشيخ حتى حلت عقدة لسانه وقال بحروف مضغوطة من بين أسنانه

انت لو مش جاي لي من طرف ناس غالية عندي كان يبقى ليا رد تاني... أنا مش عيل من العيال اللي ماشيين وراك دول تزعقله وقت ما تحب

إذا مانك واحد من اللي شاغلين عندي، فأنا ماني واحد تجوله ويش يبغى ويش يسوي... لو مالك طريج، دورنا على غيرك

قذفه الشيخ بنظرة تحدٍّ واضحة ثم هدأ من لهجته وقال

شوف يا ابن الحلال... ما تزعل مني... بس أنا ذواقة... واللي أبغاه لازم يجيني في الأخير... ويش تريد البنية؟

ابتلع سيد خطاب ما تبقى من كرامته

الموضوع مش موضوع تريد وما تريدش... أهلها رافضين الجوازة

من الأصل... إحنا عمر ما حد جه قلنا حتتجوز عيلة من عيالكم شهر وبعدين خلاص

ظل الشيخ يحدجه بلا أي انفعال... أخذ سيد خطاب نفسًا عميقًا لعنه في أعماقه وقال وهو يشير لما حوله

أنا مش فاهم إيه اللي عاجبك في البت دي بالذات، يا أبو خالد إنت في مصر، أم الدنيا... حواليك البنات أشكال وألوان... ومن كل الجنسيات والأعمار... إيه اللي يخليك تاخد واحدة حافية عليها طين وجلخ الفقر

المرة العادية مملة... كيف الفيلم القديم اللي شفته ألف مرة... لكن البت هادي اكتشافي أنا... أخذها وأزينها على مزاجي... الطين اللي تجول عليه يحليها ويستير الخيال أكثر من أي فستان مكرر على إي حرمة في الفندج... ترى الروح ربك خلجها تبحث عن التغير حتى لو كانت في الجنة... واسأل أبوك آدم يا حاج

أنهى الشيخ عبارته بضحكة عابثة وأخرج من بدلته دفتر الشيكات وخط به مبلغًا ومهره بتوقيعه وناوله لسيد خطاب

هذا حج ابن الحلال... تتكفل بمصاريف السفر وكل شي... أنا أدري الأسعار كويس بمصر... وتراني أدري تسعيرتك... لكن اعتبر الزيادة هدية مني...

نظر سيد خطاب في الرقم الذي حمل خمسين ألف جنيه زيادة عن المبلغ المتفق

أبغاك تجولي ألف مبروك

عاد في تلك الأثناء مساعدا الشيخ... ومال الشامي بقدر ما اتاحت له

سمته على أذن الشيخ فنهض واستأذن في الانصراف مشيرًا إلى مساعده المصري

هذا فتحي، مصري زيك... تعطيه الأوراق اللي حيجولك عليها حج سفر "ابن الحلال" لألمانيا وحنا حنتكفل بالتأشيرة

ذهب الشيخ مع مساعده الشامي وترك فتحي وسيد خطاب وحيدين، أخبره فتحي بالأوراق المطلوبة ثم أضاف بلهجة الناصح الأمين بعد أن تعمد إبداء بعض التردد

إقضيله طلبه يا باشا... الشيخ لما يشبط في حاجة بيبقي زي العيل الصغير... وده مزاج والمزاج غية

حدجه سيد خطاب بنظرة فاحصة وقال

تقصد إيه

اقصد أن مزاجه غواني وبنات ليل لا مؤاخذة، وأحيانا يحب يغير ببنت بنوت... وإنت لو جيتله مزاجه تبقى ملكه... سيبك من الفلوس... أنا عارف إنك مليان يا باشا ما شاء الله... لكن الخدمات يا باشا، أكيد إنت عارف أن شيخنا واصل أوي، ده غير الهدايا وعقود العمل للحبايب اللي حتمطر عليك

بدا التعجب ظاهرًا على وجه سيد خطاب وهو يقول

غواني! واحد زيه يشتري أرقى بنات بفلوسه

الشيخ بيحب الغواني... بيقول عليهم ممتعين أكتر... كل ما الست كان لها ماضي كل ما كانت مسلية أكتر... يقعد يسمع حكاويهم ويضحك على فضايح كبار البلد اللي عدوا عليهم... علشان كده

البت اللي انت حتجيبهالوا دي مش حتعمر كتير... واحدة خام زي دي حتقتله من الملل

التقط فتحي كأس الشامبنيا الذي لم يكمله الشيخ وتجرعه ببطء ثم قال

اللي لازم تبقى متأكد منه إن الشيخ حينول مراده في الآخر... لو مش عن طريقك يبقى عن طريق غيرك... وكل بني آدم له سكته يا باشا

أنهى فتحي عبارته بابتسامة لزجة ثم نهض ليلحق بركب الشيخ وترك سيد خطاب... يلعنه ويلعن "مزاج" الشيخ.

## (١١)

عايز تعمل خير حاول تصلح البلد مش تهدها فوق راسنا... تبقى مغفل لو مستني الناس تقف في وش سيد خطاب... الجعان عمره ما يكون حر... والمثل بيقول إن لقيت بلد بتعبد عجل، حش برسيم وادّيله... واحنا إتكتب علينا سيد خطاب... ومش أنا ولا انت اللي نقدر نغير ده

هكذا ختم الإمام نقاشه اليومي مع سعيد وتركه جالسًا على كرسي خشبي متهالك في ركن الدكان الضيق وقام لإحدى زبائنه كانت في حاجة إلى كبريت... راقب سعيد الإمام... أحيانًا يود أن يصرخ في وجهه قائلًا "عمائم على بهائم" أحيانًا يستبد به اليأس ليحل ذلك الغضب المكتوم بداخله ويوشك أن يفتك به... لكنه سرعان ما يستعيذ بالله من الشيطان ليعود إليه بعض من هدوئه وتعود معه حيرته، كيف يقنع الإمام، كيف يستحثه لقول الحق أمام سلطان سيد خطاب الجائر،

ا م يكن في وسعه أن يفقد الأمل... بذل جهدًا جهيدًا لإقناعه طوال
هور الشتاء الممتدة دون يأس وبلا جدوى... لم يستجب الإمام
ا ، سلاته... يذهب سعيد إلى دكان الإمام الصغير يوميًا، فيجادله الإمام
،منطق أن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة، وأن تحدي سيد خطاب
السافر بتحريم تجارته لن يعود على القرية وأهلها بخير أبدًا، فلن يقف
سيد خطاب بجبروته يشاهد مملكته تتهاوى دون أن يحرك ساكنًا،
، الضرورات تبيح المحظورات.

في كل جلسة كان سعيد يُطمئِن الإمام أن لكل دار في باب الحجازي
مظلمة مع سيد خطاب، وإن لم يكن لهم قريب باع لحمه فلابد أنهم
تضرروا من ظلم البحّار الذي ترك له سيد خطاب الحبل على الغارب...
وأنه إن توكل على الله ولم يكتم ما لديه من العلم بمعرفة حرمة تجارة
سيد خطاب فإن أهل القرية سيلتفون حوله ويتجمعون تحت رايته
ولن يتركوا مكروهًا يقع له، راح بلغته الثقيلة وبلسانه العليل يكرر له
أن الناس خلال السنوات الفائتة اقتربت من الدين على يديه وأن خطبه
كانت تعظم حرمات الله في قلوبهم.

إلا أن كلامه كان يقع على صخرة صماء، فيثور الإمام في وجهه
قائلًا أنه يسبح في أحلام اليقظة وأن سخط الناس على سيد خطاب لم
ينتج عنه سوى الصمت المطبق، خوفًا من سطوته، كما أنه لا يجبر أيًا
منهم على فعل الحرام الذي يقدمون عليه طواعية... والسبب الحقيقي
في عدم الاعتراض هو الفقر... تلك السبة التي طالت جميع أبناء القرية
فجعلتهم يتفهمون بل ويقدمون الأعذار للمشاركين في تلك التجارة
بعد أن أضحى سد الأفواه المفتوحة مهمة مستحيلة يصبح بيع اللحم
معها شيئًا مقبولًا بل يجده البعض منطقي... والعائد على "ابن الحلال"
يكون سخيًا... قد يصل إلى قيراط من الأرض في بعض الحالات... مما

يكسب البيعة كثيرًا من الإغراء، وأنه لن يضحي بنفسه أملًا في غضب الناس الذي لن يأتي.

راقب سعيد الإمام الذي راح يضحك مع المارة الذين يحيونه بحرارة وود... كم كان يتمنى لسانًا فصيحًا ليقف في وجه سيد خطاب بنفسه، لكنه قرر أن يجتر مرارته ويحاول معه في الغد لعل الله يشرح قلبه للحق... عاد الإمام وجلس بجواره يستمع إلى الراديو ذي البطاريات... الذي خرج منه صوت المذيع يقول:

لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك، بهذه التلبية الصادرة من القلوب والحناجر إخوة الإيمان، يقف ملايين الحجيج على صعيد عرفات... جاءوا من جميع أنحاء البسيطة يرفعون إلى الله أكف الضراعة بالرحمة والمغفرة

التفت الإمام إلى سعيد

ادعي إن ربنا يهدي الحال يا سعيد... النهاردة عرفة والدعوة مستجابة... ادعي إن ربنا يهدي سيد خطاب... هو اللي كتبه علينا وهو قادر يهديه

لم يعلق على قول الإمام... ودعا الله مخلصًا من أعماق قلبه أن يخلص باب الحجازي من سيد خطاب ثم نهض ليغادر فسأله الإمام

على فين؟

حححححروح... ... الغيط

لم يكد سعيد يخطو بضع خطوات باتجاه داره حين خرج الإمام من دكانه يناديه ليعود قائلًا

عاد سعيد مسرعًا إلى جلسته الأولى... يستمع إلى صوت "السادات" الذي خرج من الراديو يقول

اسمحوا لي أولًا أن أتوجه إلى السيد رئيس الكنيست بالشكر الخاص... لإتاحته هذه الفرصة لكي أتحدث إليكم. وحين أبدأ حديثي أقول السلام عليكم ورحمة الله... والسلام لنا جميعًا بإذن الله.

السلام لنا جميعًا على الأرض العربية... وفي إسرائيل... وفي كل مكان من أرض هذا العالم الكبير، المعقَّد بصراعاته الدامية، المضطرب بتناقضاته الحادَّة، المهدَّد بين الحين والحين بالحروب المدمِّرة... تلك التي يصنعها الإنسان... ليقضي بها على أخيه الإنسان..

جلس سعيد صامتًا كالحجر طوال الخطبة التي امتدت لما يزيد عن الخمسين دقيقة... لا يدري كيف عاد بعدها إلى داره، لا يدري إن ودع الإمام أم أنه قام بلا مقدمات... انسحب إلى عقله وأفكاره والواقعة التي أخلت بتوازنه كليًّة فازداد تلعثمه حتى لم يعد قادرًا على إخراج كلمة واضحة ولم يعد أحد في الدار يتبين ما يقول... انقطع عن جلساته مع الإمام واعتكف في داره لا يُخرِجه منها إلا العمل في الغيط ثم يعود بعده إلى عزلته.

عانى سعيد حيرة وتشرذمًا عقليًّا لا قرار له، فهو لم يعر ما سمعه عن خطاب السادات الذي تحدث فيه عن استعداده للذهاب إلى إسرائيل من أجل السلام أي اهتمام، اعتبره زلة لسان أو كلام خطب، أما أن يذهب الرئيس المؤمن فعليًّا إلى دار اليهود بقدميه فتلك طامة أخرى... كان اعتقاده دومًا أنه لم يمكن للإسلام في بر المحروسة مثلما مُكن له في

عهد السادات... فقد أطلق الإسلاميين وحل حبسهم بل ومكن لهم في الجامعات والنقابات حتى علا صوتهم على من سواهم، طالما أكد الأستاذ عبد الحميد له ذلك، وكذلك أكدت كل جرائد الدعوة التي كانت تصله... فما باله يركن إلى جانب الصهاينة قتلة الأنبياء وأحفاد القردة والخنازير في عصر نحن من يمتلك به ناصية النصر... كيف ذهب السادات إلى القدس المحتلة يخطب في الكنيست بينما الحجيج وقوف على عرفات يبتهلون إلى الله بتحرير القدس من اليهود... هكذا راحت الأفكار تتصارع داخل عقله وتدق كل خلايا مخه فتطحنها طحنًا.

قادته حيرته إلى «الباب» فلم يجد عند الشيخ عبد الكريم ما يشفي حيرته، الرجل صامت وإن تكلم فهي طلاسم تحتمل أكثر من معنى... ذهب للأستاذ عبد الحميد يقرأ كل المقالات التي كُتبت في الجرائد التي يجلبها معه من المركز... كلها تنطق بما ينطق به الأستاذ عبد الحميد عن خطوة السادات الشجاعة وتشيد بعبقرية رجل الحرب والسلام... لم يقتنع بأي من ذلك وقاده البحث عن إجابة تداوي حيرته، بعيدًا عن الجدل العقيم بباب الحجازي وعن شطحات الأستاذ عبد الحميد، إلى أحد المساجد في قرية ميت الشوكة المجاورة حيث اشتهر شيخ بأحد مساجدها بعلمه الواسع وجرأته العاتية، هناك تعرف لأول مرة على الشيخ محمود قطب، كان مسجده صغيرًا بسيطًا على نقيض جامع الحجازي الضخم. ضاق المسجد الصغير بمحبي الشيخ محمود الذين احتلوا الطرقات والساحات المجاورة للمسجد للاستماع إلى درس الشيخ... كان سعيد يسمع عن الشيخ لكنه لم يحضر له درسًا من قبل... كتب سؤاله في ورقه وصلت إلى الشيخ بعد أن فرغ من درس الثلاثاء دفعًا للحرج من كثرة التلعثم.

انتظر سعيد الشيخ، الذي جاءته العديد من الأسئلة الشرعية، حتى قرأ

.. اله، صمت الشيخ قليلًا فقدر سعيد أن الشيخ ذا الوجه المغضن والظهر المنحني آثر السلامة، فهو يعرف أن جدران المعتقل لن تعامل شيخ مثله في عقده السابع جيدًا، إلا أن الشيخ أجاب بما لم يتوقعه سعيد أبدًا

يسأل سائل عن حكم زيارة عميل الصهاينة أنور اليهود لأوليائه في إسرائيل... وهو سؤال مكرر... أجبنا عليه عدة مرات، لكن ربما يكون السائل حديث العهد بمجلسنا لذا فنقول له أن الدولة كالسمك يفسد من رأسه، وأن أخطر أنواع الحكّام هم المنافقون الذين يدعون التدين والدين منهم براء... يتظاهرون أنهم يحكمون وفق ما أنزل الله بينما هم يحكمون أهواءهم

صمت الشيخ المسن قليلًا ليستجمع أنفاسه ثم تلا قوله تعالى:

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ [1]... وحكم الدار هو حكم تلك الأحكام التي تعلوها، فإن كانت تعلوها أحكام الإسلام فهي دار الإسلام وإن كانت تعلوها أحكام الكفر فهي دار الكفر... والآن أجبني أيها السائل بالله عليك... أين هي أحكام الإسلام... انظر حولك وفي قوانينك الوضعية النجسة وأجبني... عملاء الصهاينة في بلادنا يسيرون على الأحكام التي وضعها الغرب الكافر ويتركون أحكام الله التي تأمر بكل خير وتنهى عن كل شر... قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى الإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه أو حرم الحرام المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا مرتدًا بالاتفاق... وختامًا نقول... هؤلاء قوم اتخذوا من اليهود والكفار أولياء فانسلخ عنهم الإسلام فهم لا يحملون منه سوى أسمائهم... هم كفار بالإجماع وإن صلوا

---

(1) ..رة المائدة ـ الآية ٤٤.

وصاموا... بل هم أسوأ من الكفار، فهؤلاء مرتدون وجب قتلهم.

كاد قلب سعيد أن يتوقف من سرعة النبض وتسارع الأفكار... ما هذا الذي يقوله الشيخ... الرئيس المؤمن كافر... تعالت صيحات الاستحسان والتكبير من بعض الجالسين بجواره بينما شرع الشيخ في الإجابة عن بعض الأسئلة الشرعية الأخرى قبل أن ينتهي درس الثلاثاء وينفض الجمع... ليبقى سعيد في مكانه لا يقوى على تحريك أطرافه... كانت إجابة الشيخ قصيرة محددة... وصادمة محطمة في نفس الوقت... السادات حاكم خارج عن الدين وجبت محاربته لإقامة دولة الإسلام وإقامة شرع الله في أرضه... هكذا قال الشيخ، وكلما رددها وجد لها صدى داخله، فمن يحالف اليهود لابد أنه منهم، ذلك تفسير يزيل عنه حيرته... لأول مرة يرى سعيد الأبيض أبيض والأسود أسود... قام من جلسته وسار إلى باب الحجازي شارد اللب... وما أن دخل داره حتى شعر بطمأنينة غريبة تجتاحه حتى حلت عقدة لسانه بعض الشيء مع هدوء باله وإنضاج الفكرة في عقله.

منذ ذلك اليوم لم يعد سعيد يحضر صلاة الجمعة في جامع الحجازي ولم يعد يهتم بكتابة الخطب للإمام بل تفرغ بالكامل للغوص في بحور ذلك النبع النقي الذي وجده يخرج من فم الشيخ محمود قطب... وأصبح لحياته نظام جديد بعد أن ألقى على زينب وإخوته النصيب الأكبر من العمل في الغيط ليتفرغ للذهاب إلى ميت الشوكة لحضور دروس الشيخ محمود قطب... التصق به سعيد أيما التصاق حتى لم يعد يفارقه في درس أو خطبة... وتوطدت علاقته به بالرغم من تغير وجه الشيخ في بادئ الأمر عندما علم بأنه من أهل باب الحجازي... أرض الضلال والبدع والشرك وأهل الغي، كما وصفهم الشيخ... إلا أنه وجد في سعيد نبتة صالحة خرجت من أرض بور فقربه منه... بهت سعيد في البداية لما سمعه في

،،وس الشيخ محمود قطب... فقد كان توجهًا جديدًا بالمرة لما تعلمه أو
ـن قرأه، يتعارض عما نشأ عليه وترعرع في رحابه، لكن الشيخ لا ينطق
ـرفًا بلا أسانيد من القرآن والسنة... هل يعقل أن يكون كل أهل القرية
ملى ضلال... هل يعقل أن يكون كل ما يعتقدون أنه الدين ما هو إلا بدع
وشرك... هل الشيخ عبد الكريم فاسق، وهل هذا سبب عدم اعتراضه
ملى سيد خطاب واستغلاله للباب في تجارته الملعونة؟

وصاموا... بل هم أسوأ من الكفار، فهؤلاء مرتدون وجب قتلهم.

كاد قلب سعيد أن يتوقف من سرعة النبض وتسارع الأفكار... ما هذا الذي يقوله الشيخ... الرئيس المؤمن كافر... تعالت صيحات الاستحسان والتكبير من بعض الجالسين بجواره بينما شرع الشيخ في الإجابة عن بعض الأسئلة الشرعية الأخرى قبل أن ينتهي درس الثلاثاء وينفض الجمع... ليبقى سعيد في مكانه لا يقوى على تحريك أطرافه... كانت إجابة الشيخ قصيرة محددة... وصادمة محطمة في نفس الوقت... السادات حاكم خارج عن الدين وجبت محاربته لإقامة دولة الإسلام وإقامة شرع الله في أرضه... هكذا قال الشيخ، وكلما رددها وجد لها صدى داخله، فمن يحالف اليهود لابد أنه منهم، ذلك تفسير يزيل عنه حيرته... لأول مرة يرى سعيد الأبيض أبيض والأسود أسود... قام من جلسته وسار إلى باب الحجازي شارد اللب... وما أن دخل داره حتى شعر بطمأنينة غريبة تجتاحه حتى حلت عقدة لسانه بعض الشيء مع هدوء باله وإنضاج الفكرة في عقله.

منذ ذلك اليوم لم يعد سعيد يحضر صلاة الجمعة في جامع الحجازي ولم يعد يهتم بكتابة الخطب للإمام بل تفرغ بالكامل للغوص في بحور ذلك النبع النقي الذي وجده يخرج من فم الشيخ محمود قطب... وأصبح لحياته نظام جديد بعد أن ألقى على زينب وإخوته النصيب الأكبر من العمل في الغيط ليتفرغ للذهاب إلى ميت الشوكة لحضور دروس الشيخ محمود قطب... التصق به سعيد أيما التصاق حتى لم يعد يفارقه في درس أو خطبة... وتوطدت علاقته به بالرغم من تغير وجه الشيخ في بادئ الأمر عندما علم بأنه من أهل باب الحجازي... أرض الضلال والبدع والشرك وأهل الغي، كما وصفهم الشيخ... إلا أنه وجد في سعيد نبتة صالحة خرجت من أرض بور فقربه منه... بهت سعيد في البداية لما سمعه في

روس الشيخ محمود قطب... فقد كان توجهًا جديدًا بالمرة لما تعلمه أو
ن قرأه، يتعارض عما نشأ عليه وترعرع في رحابه، لكن الشيخ لا ينطق
رفًا بلا أسانيد من القرآن والسنة... هل يعقل أن يكون كل أهل القرية
على ضلال... هل يعقل أن يكون كل ما يعتقدون أنه الدين ما هو إلا بدع
شرك... هل الشيخ عبد الكريم فاسق، وهل هذا سبب عدم اعتراضه
على سيد خطاب واستغلاله للباب في تجارته الملعونة؟

## (١٢)

تعالت أصوات المشاركين في السمعخانة التي تتربع خلف الباب... غرفة رحبة لا تحمل جدرانها العارية أي زخارف سوىٰ كوة صغيرة في أحد جدرانها وضعت بها لوحة قديمة كتب فيها بخط زخرفي "النجاة في الصبر"... تتصل بها حُجرات نوم أهل الحضرة من الدراويش وغرفة وحيدة للخزين... بالإضافة إلىٰ غرفة أخرىٰ مغلقة لا تُفتح أبدًا... يعلم جميع أهل باب الحجازي أنها تحتوي علىٰ الخرقة الصوفية، التي يقال أنها تحمل بركات مولانا الحجازي... يؤمن الجميع أنها خرقة أُخذت من ثوب الإمام علي بعد مقتله، تربط أجيالًا طويلة من شيوخ الصوفية الذين توارثوها حتىٰ انتهت إلىٰ يد الشيخ عبد الكريم. ويعد اختيار من سيكلف بحملها بعده أصعب قرار يواجه الشيخ عبد الكريم... ينتظره الجميع بفضول لمعرفة شيخ الحضرة القادم.

*يا صاحب القبر المنير بيثرب يا منتهىٰ أملي وغاية مطلبي*

*يا من به في النائبات توسلي. وإليه من كل الحوادث مهربي*

*يا من نرجيه لكشف عظيمة. ولحل عقد ملتوٍ متصعب*

*يا غوث من في الخافقين وغيثهم. وربيعهم في كل عام مجدب*

*يا رحمة الدنيا وعصمة أهلها. وأمان كل مشرق ومغرب*

في ركن بعيد عن وهج لمبة الزيت، جلست نادية هانم وحيدة تذرف الدمع في صمت... ترتدي "إيشارب" أصفر صغير فشل في تغطية الجزء الأكبر من شعرها الطويل... كانت عيناها معلقة بالشيخ عبد الكريم الذي التصقت بعض حبيبات العرق بجبينه بينما تدلى جفنه خلف نظارته السميكة كستار يخفي سواد عينيه، كما مال رأسه إلى اليمين بينما يداه تنقر على فخذه على إيقاع الدفوف الذي يتكامل مع الربابة في إضفاء حالة فريدة على أناشيد جلسة السماع.

راقبت مصطفى الرفاعي الذي انضم إلى حلقة مكونة من ثمانية عشر شابًا وشيخًا جلسوا القرفصاء في ثيابهم البيضاء... ألقى على وجوههم الوهج النابع من لمبة الزيت بظلال تتراقص مع تمايلهم يمنة ويسرة في إيقاع ثابت... وانطلقت الحناجر في تجانس وهارمونية جماعية خلابة بمدح في النبي الكريم.

سرعان ما أعادت نظرها إلى الشيخ عبد الكريم الذي تستمد منه ومن الجلسة الكثير من الصفاء... تحاول أن تحاكيه... الجو معبأ بالمشاعر وتكاد تلمس الوله والعشق الذي يشع من وجوه السميعة النورانية... تحملهم عذوبة الأنغام البسيطة وحلاوة الكلمات التي تلمس القلوب إلى دنيا غير دنيانا... يصفونها بأنها لحظات من الصفاء الخالص والارتياح

التام الذي لا يشوبه شيء من هموم الدنيا، فقط فرحة لقيا الحبيب بحبيبه... لحظات يسرقونها من بين براثن ضوضاء الحياة.

انتهت جلسة السماع قبل صلاة الفجر مباشرة بقراءة الفاتحة مرات ومرات، لأولياء الله الصالحين والأموات والمكروبين من أهل القرية، حتى قال الشيخ عبدالكريم "الخاتمة للنبي"، فقرأت الفاتحة هذه المرة بصوت جهوري أنهاه الحاضرون بمسح وجوههم. خرج الجمع يتحسس طريقه بينما بقيت نادية هانم جالسة في مكانها تستجمع شتات نفسها... ثم قامت إلى الباب تطالعه بانبهار من يراه لأول مرة... حتى أتاها الشيخ عبد الكريم ليودعها فأوصته أن يدعو لها براحة البال... فدعا لها مما زاد من نحيبها... لا تدري لم تبكي... تشعر أن المكان يطهرها من الداخل فيخرج مع دموعها كل ما علق بروحها من شوائب الدنيا... مرت دقائق قليلة جففت خلالها دموعها وعدلت من هندامها وخرجت من الباب

لم تكن روحها فقط التي تتأثر بجلسات السماع، بل تطرب لها جميع حواسها، فترى الأنوار ساطعة براقة والأشجار إزدادت خضرة والسماء أصبح أزهى والورود ككرنفال ألوان يتصارع لجذب انتباهها، وتصير الأصوات أنقى وأعذب، وتبقى ابتسامة رضا على وجهها لا تمحوها وضاعة الدنيا لفترة.

ابتلع الظلام سيارة نادية هانم التي أقلتها إلى السراي، فيما خرج مصطفى من السمعخانة إلى صديقه الذي كان يستند إلى جدار المقام يدخن سيجارة ملغمة... ما أن اقترب مصطفى منه وتبين عينيه اللتين غطتهما شبكة من الشعيرات الدموية كادت تحيل بياض عينيه إلى حُمرة الدم

- انت لحقت تطير يا ابن مصر

"ابن مصر" كما يدعوه مصطفى هو آدم السناري... صديق أيام الغربة في القاهرة، الذي أصر على اصطحابه إلى المظاهرات التي حبس مصطفى بسببها... هجر والداه القرية منذ فترة لكنه عاد إليها من جديد ليكتشف نفسه، فنان بوهيمي يعشق الفلسفة والدخان "خصوصًا إذا توافر الحشيش"... جمعت بين مصطفى الرفاعي وآدم السناري صداقة من نوع خاص... فهما طرفا النقيض في كل شيء تقريبًا، فالأخير هارب من القاهرة وضوضائها إلى هدوء القرية على خلاف مصطفى الذي يكره إيقاع القرية المحتضر ويتحرق شوقًا إلى القاهرة... كلما اجتمعا كان لهما نقاش طويل حول ذات الموضوع... وبالرغم من أن صداقتهما ترجع إلى أيام عمل مصطفى بالأوبرا حين كان يلتقي آدم على مقاهي الأزهر بعد العمل مع أصدقائه اليساريين من الفنانين والفنانات... إلا أن صداقتهما توطدت أوصالها منذ عودة مصطفى إلى باب الحجازي... توثقت حول جلسات السماع التي أصبح مصطفى يحرص على حضورها وما يتلوها من سمر يتحدثون فيه عما يجيش في صدورهم... تلك الجلسات التي تحوَّلت مع الوقت إلى انتماء يُشعر صاحبه أنه مختلف عن البقية، وأنه مازال يُبقي للأحلام والأسئلة الكبرى مكانًا في قلبه.

توجها إلى جلستهما الخاصة ليطالعا النجوم ويدخنون الجوزة أثناء أحاديثهما الممتدة فوق سطح بيت عم آدم السناري، حيث يقيم مؤقتًا ليرعى أولاد عمه وزوجته ريثما يعود من سفره إلى ألمانيا لفعل الخير... حسا طريقهما بين الركام وأعواد الحطب حتى وصلا إلى الحصيرة المفروشة من جلستهما السابقة... أشعل آدم الفحم وقال لمصطفى وهو يحضر "الجوزة" بخبرة من لا يحتاج الضوء ليتم عمله

ألف لك سيجارة تجرب... الحشيش من عند المحمدي الم...
معتبر

انت مبتزهقش. أنا مليش في الحشيش... كيري نفسين جوه
وبعدين مينفعش النهارده بالذات حتى لو عايز... محتاج أكون
فايق

إيه... حيمسكوك الوزارة أخيرًا وخايف تعك وانت بتفوا...
القسم... ووراك إيه النهاردة يا فريد زمانك

ابتسم مصطفى وقال

بعد العصر لما أخلص الشغل في العزبة... حاخد أمي وأخواتي
نزور أبويا

حبكت تزوره بكرة... بقولك المحمدي متوصي بيا

بنحسه بالونس يا جحش... عقبال ما أجي أحسك بالونس كده

ضحك آدم الذي أنهى إعداد "الجوزة" وجلس يسحب النفس تلو
الآخر فتوهجت الجمرات وتطاير الشرر وتعالت كركرة الجوزة واستوى
مزاج آدم السناري فتجشأ كقنبلة انفجرت قبل أن يقول

متخلي أخوك سعيد يقوم بالمأمورية دي

سعيد مبقناش نشوفه... لازق لشيخ من ميت الشوكة وبقى متنيل
أكتر ما هو متنيل

ولما هو بتاع مشايخ مشوفهوش معاك في جلسات السماع يعني

لا ماهو مش بتاع الشيوخ دول... سيبك منه... لو أبويا عايش جايز
كان عرف يعقله

.ت آدم برهة أخذ خلالها نفسًا عميقًا من الجوزة قبل أن يقول
،ان يخرج من فمه مع الكلمات

نعرف... الموت هو الحاجة الوحيدة اللي تستاهل تعيش علشانها... الموت هو الحاجة الحقيقة الوحيدة... لحظة التتويج... بس عارف يا واد يا مصطفى... الواحد لازم يموت موتة تليق بيه... مش يفارق الدنيا وهو بيترعش وبيهرب من الموت ومديله ضهره

نظر مصطفى إلى السماء التي بدأ يبزغ منها نور صبح جديد يشق ظلمات الليل... وظل يتفكر في كلمات آدم

أنا نفسي أموت موتة أوبرالي

أفلتت ضحكة آدم الصاخبة قبل أن يتماسك ويقول

ودي تبقى إزاي

تجاهل مصطفى سخريته مجددًا وقال

مش عارف... موتة تحرك مشاعر الناس وتنقلها لمستوى تاني... عارف يا آدم المكان الوحيد اللي خلى لحياتي معنى هو الأوبرا وموسيقى الأوبرا... نفسي أموت موته أوبرالي... حياتي كانت حتفرق كتير لو الأوبرا متحرقتش

سحب آدم نفسًا عميقًا آخر من الجوزة قبل أن يقول

مش حنبطل تعيش في لو... لو كنت لسة في مصر... لو الأوبرا متحرقتش... لو مدخلتش السجن... لو أبويا ممتش... قرفتنا يا أخي... آه لو كنت معرفتكش

انفجر مصطفى في الضحك فاستطرد آدم بلهجة جادة

حتى لو كل ده محصلش كنت حتبقى تعيس برضو... يا ابني خدها مني حكمة... إحنا خُلقنا للتعاسة... ومن التعاسة نأتي وإلى التعاسة نعود

انت مش فاهمني... قبل سفري لمصر وقبل ما اشتغل في الأوبرا كان دايمًا جوايا سؤال، هو الواحد مخلوق علشان يغرق في مشاكل البلد والدار... يا أخي العيشة هنا ضيقة لدرجة ممكن تطحن أحلام أي حد بيفكر في أي حاجة أكبر من لقمة العيش.. لحد ما اشتغلت في الأوبرا وشفت بعيني إن الأحلام الجميلة لها مكان... هناك حسيت إن في حاجة أكبر مني ومنك... حاجة تأكد لك إن الدنيا فيها حاجة أكبر من لقمة العيش... حاجة تخليك مش عايز الوقت يعدي عكس الخرا اللي هنا اللي خلى الناس يتمنوا يدفنوا بالحياة... الأوبرا دي الجمال ذاته... تعرف أكتر حاجة بتبسطني لما فؤاد باشا يكلمني عن أيامها و..

قاطعه آدم بحدة

متجبش سيرة الزفت الإقطاعي ده وأنا معاك

افلتت ضحكة أخرى من مصطفى فأكمل آدم

على كل حال أهي لحظات مسروقة وبعدين ترجع تأخذ اللي فاتك من التعاسة يا ابن الرفضي

انفرجت شفتا مصطفى ليرد... لكن صوت عويل النساء الذي دوَّى في ساحة الدار لم يمهله لينطق حرفًا.

## (١٣)

ما أن برزت الشمس من خدرها صباح ذلك اليوم حتى توالت الأحداث الجسام في العصف بباب الحجازي كزعابيب أمشير... البداية ،ات تلك المصيبة التي حلت بابن الحلال الذي ذهب لفعل الخير مع الشيخ الخليجي، فبعد سفر الرجل إلى ألمانيا لإتمام العملية توفي في .الك البلاد البعيدة وعاد إلى باب الحجازي محمولًا على الأعناق، ولم ,حن ذلك الرجل سوى عم آدم... وأحد أبناء عائلة السناري.

خرجت البلد عن بكرة أبيها تشيع جثمانه في مشهد مهيب قابض... ..ا الحزن جليًا على وجوه جميع أفراد العائلة، إلا أن وجه كبيرهم، الحاج محمد السناري، كان أكثرهم كمدًا... ظلت يداه ترتعشان من فرط الغضب طوال الوقت... وراحت النساء المتشحات بالسواد تنوح بينما الفت أرملة المتوفى نفسها أرضًا، تردد المقابر أصداء صراخها وهي تأخذ .ن أديم الأرض وتضع على رأسها في هستيريا وصلت إلى الأطفال فراح

بعضهم يبكي بلا سبب واضح... انضمت زينب إلى نساء القرية لمنعهم من اللطم وشق جيبها... مؤكدين لها أن ما تفعله يعذب المتوفى في قبره

بعد أن فرغ الإمام من إلقاء كلمة مقتضبة والدعاء على قبر المتوفى التقت عيناه بعيني زينب... وبرغم جلال مشهد الدفن الذي فرغ منه للتو وبرغم مرارة الرفض التي لاتزال عالقة بحلقه لكنه كان يتمنى منها نظرة رضا ليركع تحت قدميها... يركع تحت قدميها في التو واللحظة أمام أعين الجميع... لكن نظرة الرضا لم تأت... بل هي نظرات نارية كوت ما تبقى من كرامته فأطرق أرضًا... لِمَ تكرهه زينب إلى هذا الحد وهو الذي لم يحب أحدًا مثلما أحبها... غازل خياله رؤى جسد زينب الوارف وعودها الباسق وقدها الرقيق. إلا أنه استعاذ بالله من الشيطان واستحضر هيبة الموقف ليصرف تلك الصورة... أنبه ضميره كثيرًا أن سمح لتلك الصورة الفاحشة أن تتكون في ذهنٍ أراد له أن يكون طاهرًا عفيفًا.

انشغل الإمام فور عودته إلى دكانه في قضاء حاجات الزبائن.. راح يطالع الفتيات... سيتزوج مثله مثل غيره، وألف من تتمنى نسبه في القرية... حاول ترديد مقولة أن كل النساء سواسية فور إطفاء النور لعله يستريح... كل ما عليه أن يتقي من تصون عرضه... إلا أن صورة زينب عاودته الهجوم في ضراوة أسقطت حصون التمنع فترك نفسه لخيالاته التي تتلاعب بها غرائزه الجائعة... زحفت الرغبة فوق أسوار حصن مقاومته المحطمة كجيوش المغول تعصف بكيانه وتأتي على كل قواعده دفعة واحدة... لم يعد يستطيع أن يزيلها من خياله... أو لعله لا يريد، شعور جديد لم يألفه من قبل، دبت الحياة في عروقه الخاملة، غمرته لذة الخيال فأذعن لها وتركها تعبث بجسده. لم يعد يرى بين حشود القرية سوى زينب... كيف صرفه الخوف من نفورها المحتوم عن التفكير في

المشاعر لعن جبنه ألف مرة... ر المطالبة من جديد بحقوقه الحب كإنسان.

أغلق دكانه وتعمد المرور من أمام دارها لعل القدر يسمح أن يجتمع .. وجدها في إطار مشترك... وإن كان هذا الإطار هو شارع يفصل بينا الناس والبهائم... كان يريد أن يحس بلهيبها يحرق خلايا جسده جديد... أحس أن القدر يستجيب له عندما لمحها تقود الحمارة تجاه الغيط... خرج اسمها من فمه دون وعي حقيقي منه... عندما التفتت إليه مر أن الدنيا تبتسم له... عاوده ذلك الشعور الذي يدغدغ خلايا جسده جميعًا... لكن ذلك الشعور سرعان ما تبخر عندما اكفهر ذلك الوجه الجميل

عايز إيه

إنتِ بتكلميني كده ليه يا زينب... أنا ضريتك في حاجة يا بنت الناس... أنا كل ال..

شوف يا ابن الحلال... إحنا لا بنا ضرر ولا نفع... شوف سكة تانية غير سكتي

بس أنا..

قاطعته زينب

الله في سماه... تكون فاتح الموضوع إياه تاني أو حتى تكلمني لأكون مفرجة عليك كلاب السكك... فاهم

تلك الليلة، غطى الحزن والكآبة على كل دور باب الحجازي حتى بدا أن الصمت وصل إلى وحوش البراري فكفت عن النباح وكف الأطفال عن الصياح فلم يعد هناك صوت في القرية سوى صوت الفقيه الذي يتلو

ربع حزب تلو الآخر في عزاء أقيم بمندرة السناري... زاد ذلك الهم الحزين من كآبة الإمام... وعقد العزم من جديد على الانتقام لكرامته من تلك العاهرة في أقرب فرصة، ليستأصل صورتها التي تشعبت في خلاياه كالسرطان.

كان الحاج محمد السناري واقفًا على رأس العزاء عندما دخل الإمام المندرة... نظر إليه الحاج محمد بعينين أحس فيهما الإمام بلهيب الغضب

يرضي ربنا اللي حصل ده... حنفضل ساكتين لحد إمتى

تحسس الإمام كلامه

ربنا يصبرك يا حاج محمد

أشار الحاج محمد إلى آدم وأولاد عمه المتوفى، الذي جلس بجوارهم مصطفى الرفاعي

العيال في قلبها نار ح تحرق دار سيد خطاب وهو جواها

تلفت الإمام حوله داعيًا الله ألا يكون قد سمع الرجل أحدٌ... نسي كل ما يتعلق بزينب وشحذ كل تفكيره فيما سيقول كي يتقي المشاكل

ربنا يصبر أهلة والبركة فيك يا حاج

منين يجي الصبر... ربنا ميرضاش بالظلم

هكذا قال الحاج محمد بحسم من عقد العزم على أمر ما ولا يريد الاسترسال في الحديث فاتجه الإمام إلى أحد المقاعد الشاغرة ومر بسيد خطاب الذي جلس منزويًا في العزاء مع بعض أتباعه وأعوانه بينما تجنبه جمع المعزين على غير العادة... جلس الإمام مطأطئ الرأس يتظاهر بالاستماع في خشوع للمقرئ الذي جلس في واجهة القاعة، بينما عقله

..سرعة جنونية... دخول عائلة السناري في مواجهة مع سيد خطاب،
م ذلك، حتمًا سيفضي إلى تغيرات جذرية في غد القرية... لكن من
... أن يبقى بعيدًا عن أي صراع محتمل حتى يتبين ما ستفضي إليه
.. ما أن اهتدى إلى ذلك القرار حتى شعر بشيء من الطمأنينة وبدأ
.. بالاستماع إلى المقرئ.

عندما عاد الإمام إلى دكانه كان كامل المجذوب يجلس بجواره يمزق
.ضا من الخبز ويرميه لكلبته التي تلتهمه في نهم... بادره كامل قبل أن
. ح الدكان بقوله

سيد خطاب بيقولك تحصله على الدُوال بعد العِشا

مرت تلك الساعة ثقيلة محملة بالاحتمالات السوداء... ما الذي يريده
. سيد خطاب... أكله الترقب حتى دخل الدوار فوجد سيد خطاب
جالسًا مع ابنه الأكبر، جمال، وهو رجل أربعيني قصير قليل الكلام لا
يرتاح له الإمام... أشار له سيد خطاب بالجلوس فجلس

الواحد زعلان أوي على اللي حصل ده... شوف يا أخي الواحد
يروح يعمل خير يتقصف عمره

هكذا قال سيد خطاب في تأثر مصطنع ونظر إلى الإمام نظرة حادة
اخترقت صدره ونفذت إلى روحه... أدرك الإمام أن الرجل يستنطقه رأيه

ده قضاء وقدر يا حاج سيد... قضاء وقدر ومحدش يعترض على
قضاء ربنا

ابتسم سيد خطاب وابنه في رضا فهدأ روع الإمام قليلًا وأدرك المراد
من هذه الجلسة

- شوف يا حاج سيد... الواجب على المسلم أن يرضى بقضاء الله

تعالى، ويصبر لحكمه جل شأنه، ويعلم أنه تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها ويوقعها في مواقعها، والمؤمن الحق مهما أصابه، يصبر، ويعلم أن في صبره الخير الكثير، بل وبما كان هذا البلاء منحة من الله تعالى له لما يترتب عليه من حسن الأثر وعظيم الثوا ... اسمع قول الله تعالي مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ[1]... وكمان قال تعالى وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ[2]... والكلام اللي انت قلته، قصف العمر وما شابه... دي وساوس شيطان... فاستعذ بالله منه يا حاج... أنت رجل مؤمن ومش أنت اللي تقول كده

هز سيد خطاب رأسه في رضا، وراح الخفر حوله يمصمصون الشفاه استحسانًا لكلام الإمام... بينما ارتسمت ابتسامة سخرية على وجه جمال ابن سيد خطاب الذي قال

الله يفتح عليك يا مولانا... تصدق الواحد ارتاح كتير بعد ما سمع الكلمتين دول... عايزينك تريح أهل البلد زي ما ريحتني كده... إيه رأيك تبقى خطبة الجمعة الجاية عن موضوع الرضا ده... تقول فيها نفس الكلام المريح ده... الواحد عامل على أهل البلد بعدين يدخلهم الشيطان ويملأ قلوبهم زي ما انت قلت... لازم تنور القلوب بعلمك الواسع

لعن الإمام سيد خطاب وابنه في خاطره وقال

أكيد يا حاج جمال... من غير ما تقول

---

(1) رة التغابن ـ الآية ١١.

(2) رة الشورى ـ الآية .

ـمرج الإمام من دوار سيد خطاب يلعن حظه العاثر الذي وضعه في ـال معركة وشيكة لا ناقة له ولا جمل فيها... برغم محاولاته المستميتة على الحياد لتجنب العاصفة حتى يتبين أي الطرفين سيغدو ـمنتصرًا... إلا أن طلب ابن سيد خطاب سيضعه في مواجهة عائلة السناري ـومعها الجموع الغاضبة من أهل القرية... لكنه قدر أن عائلة السناري ـمجتمعين لن يقدروا على سيد خطاب... وأنه من الأسلم الركون إلى ـجانب سيد خطاب.

مر يومان بعد تلك الجلسة وبرغم انتهاء العزاء إلا أن مندرة السناري ـلم تغلق على مدار الأيام التالية... لفيف من رجال القرية يذهبون ويأتون ـمن المندرة التي أصبحت لا تفرغ... أيقن الإمام أن هنالك شيئًا يُعد ـوتجنب حتى المرور من أمام المندرة كي يتجنب أن يراه رجال سيد خطاب بجوارها، لكنه كان يسترق الأخبار من رواد دكانه الذين أكدوا أن أولاد السناري لن يسكتوا وأنهم يعدون العدة لتقليم أظافر سيد خطاب. كما بلغه أن أبناء عائلة السناري وقفوا مع أحد الفلاحين ضد محمد أبو حطب، وهو أحد أعوان سيد خطاب، واستردوا له قيراطًا من الأرض كان قد اغتصبه منه بإيعاز من سيد خطاب نفسه... ولم يبد أن سيد خطاب سيرد الصاع صاعين كما هي عادته.

انتشر أمل جديد على باب الحجازي... أمل معلق في الأجواء ينعش صدور الفلاحين بعد استرداد ذلك القيراط من بين براثن أبو حطب... وعلى النقيض من ذلك أصبح القلق والتحفز باديًا على أعوان سيد خطاب ورجاله... حتى افتعل أحدهم مشاجرة مع أحد الفلاحين وانهال عليه ضربًا ليثبت للأهالي، أو لعله يثبت لنفسه، أنهم لازالوا فوق الجميع.

لكن ذلك لم يفت في عضد الأهالي... فتجرأ بعضهم على الشكوى علانية من الظلم وأصبحت مندرة السناري تعج بهم ليل نهار... يكاد

الإمام يسمع الآهات التي كتمتها الصدور على مدار عقود ودفنها الفلاحون في الغيطان وورووها بعرق الظلم... يكاد يسمع ذلك الأنين يشق الأرض ويصم الآذان... ازداد عدد زوار مندرة الساري التي تحولت إلى مركز القرية وأهم بقاعها، يحج إليها كل مظلوم... يشكون للحاج محمد ولبعضهم البعض... يشجعهم صوتهم العالي وعددهم الذي يزداد بالبوح بما لديهم... بقول "لا" للظلم وإن لم يكن في وجه الظالم.

وخلال الأيام القليلة التي تفصل الإمام عن خطبة الجمعة، استشرت الحوادث والنزاعات بين الأهالي ورجال سيد خطاب على ملكية الأرض الزراعية ثم تصاعد الخلاف على أولوية الري مع القائمين على فلاحة أرض سيد خطاب نفسه في سابقة لم تحدث من قبل... تحدثت عنها القرية طوال الليلة، بعضهم يستنكر ذلك التحدي السافر لجبروت سيد خطاب وما سيجره من شر يطال الجميع... بينما البعض الآخر يراها مواجهة تأخرت كثيرًا قائلين في إيمان "ما ياخذ الروح إلا اللي خلقها

جلس الإمام في دكانه يراقب المارة في توتر... يحاول أن يزن أموره وخطوته التالية التي ستحدد مصيره... هنالك ذلك الصدع الذي شق القرية إلى فريقين وعليه الاختيار... شيء ما تغير في الوجوه، أأصبحت الظهور أكثر انتصابًا أم أنه يتوهم ذلك! فجأة أحس أنه يفتقد صديقه الذي شاءت الأقدار أن تأتي الفرصة التي قد تمكنه من تحقيق هدفه بينما هو عازف عنها في ملكوت آخر... افتقد وضوح رؤيته وتصميمه على المواجهة... أكان سعيد الرفاعي على حق حين قال أن الرجال سيقفون في وجه الظلم... لكن من أين له باستشراف المستقبل... وكيف له أن يوقن أنه لن يُترك وحيدًا في مواجهة المدفع حين تحين لحظة الحقيقة... كيف سيتغلب أهل القرية على خوفٍ رضعوه أطفالًا حتى أصبح من صلب تكوينهم... وكيف سيراه أهل القرية إن أصبح

إمامهم بوق سيد خطاب بتلك الفجاجة التي طلبها منه ابنه... هل سيحترمه أي منهم بعدها... كادت الأسئلة أن تقضي عليه... تعتصر دهنه وتعصف بكيانه... يزداد رعبه كلما اقترب موعد تلك الخطبة التي سيرتبط بها مصيره.

## (١٤)

يبدو أنه مع تمنع زينب تحولت رغبة الشيخ الخليجي إلى هوس... فعرض على سيد خطاب أن يكسو زينب من عنقها حتى قدميها بجدائل الذهب إن هي وافقت على "الزيجة" تعجب سيد خطاب من ذلك العرض الغريب لفتاة لم يرها سوى مرة واحدة في حياته... "صحيح المزاج غلاب" هكذا ردد في نفسه، لكن "مزاجه" اليوم لم يكن رائقاً ليتفرغ لتلبية نزوات الشيخ، فهو في مواجهة غضب الناس... لم يكن الرجل يقلق من مواجهة كبرى أو ثورة تطيح به، لكنه لن يسمح بأي تبجح أيضًا يهدد ولو من بعيد استقرار مملكته... هو فقط في انتظار خطبة الإمام التي ستنزع فتيل الغضب ومن ثم يلقن كل من تجرأ من الرعاع درسًا لن تنساه القرية بأكملها... لعن سيد خطاب اليوم الذي رأى فيه ذلك الفيل الخليجي الذي لم يأته منه سوى المصائب... "حقًا لا تأتي المصائب فرادى" ترددت تلك الحكمة في عقله وهو ينهي

.مداده لحضور خطبة الجمعة... طمأن نفسه بأن الإمام بارع في .مربك مشاعر أبناء القرية وحتمًا ستداوي الخطبة الجروح التي سببتها الحادثة.

جلس سيد خطاب في الجامع في مكانه بالصف الأول الذي لا يجرؤ احد على شغله مهما تأخر، صلى سنة تحية المسجد في خشوع وجلس ينظر بدء الخطبة بعد أن سلم عليه كل من حوله من أتباعه بحرارة حتى ارتقى الإمام المنبر وبدأ خطبته

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فقد خلق الله الخلق جميعًا لغاية واحدة... لعبادته وحده لا شريك له... وقد بين لنا ـ سبحانه وتعالى ـ كيفية العبادة، وفصَّل لنا أنواعها، فثمة عبادات الجوارح كالصلاة والصيام... وعبادات أخرى قلبية كالخوف من الله، والتوكل عليه، والرضا به، ومن هذه العبادات القلبية التي نتعبد بها... الثقة بالله، وصدق الاعتماد عليه، وحسن التوكل عليه، وتفويض الأمور إليه

ابتسم سيد خطاب في رضا عن اتجاه الخطبة... وأعجبته نغمة الرضا بقضاء الله التي ترن في جميع كلماتها فأخذ يهز رأسه في خشوع كأنما يؤمن على كلام الإمام الذي راح يقول

الثقة بالله صفة من صفات الأنبياء... فهذا خليل الرحمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما أُلقي في النار كان على ثقة عظيمة بالله حيث قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل" فكفاه الله كيد الجبابرة، وحفظه من أن تصيبه النار بسوء، قال تعالى:

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [1]... ولما فر نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جبابرة قريش فدخل الغار وقال "حسبنا الله ونعم الوكيل" "حفظ الله نبيه من كيد الكفار، وحرسه بعينه التي لا تنام

تصاعدت همسات الجمع بالصلاة والسلام على النبي... قبل أن يردف الإمام بصوته الجهوري

إنها ثقة الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ العظيمة بالله، "حسبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [2]... ففي مثل هذه الأوقات العصيبة التي تعصف بنا كان حبيبنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في ثقة عظيمة بالله. ونحن نعمل كقدوتنا... ففي أوقاتنا العصيبة نقول "حسبنا الله ونعم الوكيل

بدأ التوتر يغزو أنامل سيد خطاب فراح يتأمل الإمام كأنما يحاول أن ينفذ إلى داخل صدره فيرى ما يخفي... أيحاول أن يمسك العصا من المنتصف حتى لا يبدو منحازًا في وجه غضب الناس فيفقد مصداقيته أم أنه يضمر شيئًا آخر.

تأمل أخي الحبيب قول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [3]... أنت خليفة الله في أرضه، فكل ما في الكون خلقه وسخره الله لك... لك أخي

---

رة الأنبياء ـ الآية ٦٩.

رة آل عمران ـ ا

رة البقرة الآية .

الفلاح الذي يشقى طوال النهار بحثًا عن رزقه... فهل تقبل على نفسك أيها الخليفة بعد ذلك أن تأكل الحرام؟

تكمن أهمية هذه الخطبة في أن الكثير من بلدنا، للأسف، يأكل الحرام ا مرون يتذللون للبشر ليحصلوا على رزقهم. أقول لهم جميعًا انظروا إلى اسم الله الرزاق في القرآن... يقول الله تبارك وتعالى ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾(1)... ويقول تبارك وتعالى ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(2) فكما سبحانه وتعالى لا شريك له في ملكه فسبحانه لا شريك له في رزقه. ولا يكتمل إيمان مسلم إلا بيقينه باسم الله الرزّاق.

تصاعدت أصوات البكاء من بعض الحاضرين فعم جوٌّ من الوجوم على الجميع... نظر سيد خطاب خلفه نحو صوت النحيب فوجد بعض "أولاد الحلال" قد سالت دموعهم بلا تحكم... بينما أخذت الجالسين حولهم حماسة الخطبة فراحوا ينظرون إليه شذرًا.

وفي الحديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها"... أتؤمن بذلك أم لا؟ فلن تموت ناقص نَفَس... لذلك أقول لكم مهما زاد عدد من يأكل الحرام فلا تكن منهم، وإذا كثر عدد من يؤمن بالله الرزاق بالظاهر فقط، فكن أنت من يتغلغل اسم الله الرزاق في خلايا جسده، لأن الله لن يتركك بعد أن تكفّل برزقك... كيف لك بعد ذلك أن تأكل من حرام... وكلنا نعرف أن منا من يأكل من الحرام... عندما تبيع لحمك فأنت

---

(1) سورة الملك ـ الآية ٢١.

(2) سورة هود ـ الآية ٦.

تأكل من حرام... عرفت كل الكائنات الله الرزاق من زرع وطير وبهائم... إلا أنت أيها الإنسان... أيها الخليفة، فماذا ستقول للرزاق يوم القيامة عندما يسألك عن أكل المال الحرام؟ فبماذا سترد على الجبار يوم العرض؟!! هل ستقول لم أكن أصدق أنك الرزاق؟

انطلقت كلمات سعيد الرفاعي من فم الإمام كالعواصف تهز أركان باب الحجازي وتعصف بروح سيد خطاب وتزلزل عروش مملكته... تحررت أخيرًا كلمات خطبته الحبيسة منذ سنوات طوال

لن نكتفي بالكلام... بل نريد فعلًا وعملًا وتطبيقًا. يا عباد الله أشهدوا الله أن باب الحجازي لن تاجر من اليوم فيما حرم... لن تبيع باب الحجازي لحمها بعد اليوم... واعلموا أن ليس كل الرزق مال فقط... فنمو زرعتك تحت الشمس رزق، والجار الصالح رزق والروح التي في جسدك رزق، والزوجة الصالحة رزق والصحة والولد رزق... فاحذر أن تسعى خلف المال الحرام فيأخذ الله منك كل ذلك.

تملك الغضب سيد خطاب حتى دقت شرايين عنقه كالأفاعي التي تسعى للتحرر من رقبته وتلون كل ما يراه بلون الدم المندفع إلى مقلتيه... هب من جلسته فتبعه رتل من رجاله قبل أن ينهي الإمام خطبته، يدفعون في طريقهم الناس بأرجلهم حتى خرجوا من الجامع... أطلق ساقيه للريح كما لو أن إبليس يطارده ليقتنص روحه. إلا أن كلمات سعيد الرفاعي يحملها صوت الإمام الجهوري لاحقته كأنما تريد أن تقتنص روحه

أقول للجبابرة أن هناك أمواتًا تحت الأرض وأمواتًا فوق الأرض تفتتم في مص دمائهم واقتطاع لحومهم... أقول للجبابرة أنكم المسؤولون عن اهتزاز ثقة العباد في الرزاق... يا عباد الله إن الله ـ تعالى ـ قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه، وتصديق ذلك

في كتاب الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1] ومن استجار به أجاره... فلا تخشى في الله لومة لائم أو عتو جبار... اللهم اغننا بحلالك عن حرامك واغننا بفضلك عمن سواك

كان ذلك آخر ما سمع سيد خطاب من الخطبة قبل أن يغلق عليه بابه.

رة الطلاق - الآية ٣.

# (١٥)

كان سعيد الرفاعي يستمع بإنصات لدرس الشيخ محمود قطب الذي يلقيه بعد صلاة الجمعة مباشر، عندما سرت همهمات وهرج ومرج بين الحاضرين على غير العادة في دروس الشيخ محمود حتى أنه لاحظ تغير وجه الشيخ... فقام أحد تلاميذ الشيخ من الصف الأول ومال على أذنه وسرعان ما انبسطت أسارير الشيخ الذي قال

يعلم الجميع ما في القرية التي تجاورنا، والتي سميت على اسم ضريح، من شرك وكبائر ترتكب آناء الليل وأطراف النهار... يقول الله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [1]... وكلنا نعلم بفسق كبيرهم الذي استباح التجارة في ما حرم الله

---

رة الإسراء الآية ١٦.

انقبض قلب سعيد... وأحس أن العيون كلها توجهت إليه فانكمش في مجلسه في حين أكمل الشيخ

لكن من فضل الله علينا أنه مازال في تلك القرية صوت ينضح بالحق لا يخشى في الله لومة لائم... لقد أجرى الله اليوم الحق على لسان إمام الجامع بتلك القرية فحرم تلك التجارة الملعونة... والأخبار التي جاءتنا الآن أن تلك الخطبة لاقت استجابة طيبة من أبناء القرية... وذلك إن دل على شيء ف...

لم يعد سعيد يستطيع التركيز فيما يقوله الشيخ محمود... لا يمكن وصف شعوره في تلك اللحظة... إنه الحلم الذي عمل من أجله سنوات وسنوات... هاهو يتحقق... كم كان يتمنى أن يكون هناك بجامع الحجازي الآن ليرى بأم عينه تلك الاستجابة الطيبة التي يتحدث عنها الشيخ... راحت أسئلة كثيرة تدور برأسه... ما الذي أقنع الإمام أخيرًا بإلقاء تلك الخطبة... وما رد فعل سيد خطاب... هل الإمام بخير... ثم ما لبثت تلك الأسئلة أن توارت خلف سعادة جامحة... سعادة الإنجاز... لم يتمالك سعيد نفسه ففاضت عيناه بالدمع حتى بللت لحيته التي أعفاها من الحلاقة على مدى الشهور الماضية... كان بداخله شوق لرؤية الإمام واحتضانه... كان يود أن يطير إلى هناك... لكنه انتظر حتى انتهى الشيخ محمود من درسه واقترب منه وحكى له قصته مع الإمام وتلك الخطبة... لا يدري سعيد لم قص ذلك على الشيخ محمود... ربما لم يستطع الانتظار حتى العودة لباب الحجازي ليشارك الإمام في فرحته... ربما كان يحتاج أن يرى نظرة التقدير التي يراها الآن في عين شيخه... لا يدري لكنه حكى... ولم يمنعه تلعثمه هذه المرة من الاسترسال في حكايته... وما أن انتهى حتى قال له الشيخ محمود

بارك الله فيك يا سعيد... بارك الله فيك يا ولدي... حكايتك تذكرني بقصة سيدنا موسى وهارون

صمت الشيخ محمود قليلًا وهو يربت على كتف سعيد

لكن الطريق لازال طويلًا يا سعيد... بلدكم يا ولدي بها من البدع والمعوبقات ما يزكم أنوف البشر أجمعين

أطرق سعيد ولم يعلق... وأحس أن نشوة النجاح بدأت تنسحب منه

تقول لي أن الإيمان بدأ يدب في قلوب الأهالي هناك

أوما سعيد

إذن هم مستعدون لتصحيح عقيدتهم التي طالها من البدع والانحراف ما طالها... معركتك التالية مع الباب يا سعيد... مع الباب وحارسه الفاسق

استدعى الشيخ محمود أحد تلاميذه وناوله مفتاحًا لمكتبة المسجد وسمى له بعض الكتب ليحضرها... ناولها لسعيد وقال له

اقرأ الكتب دي حتى أراك الجمعة القادمة

أخذ سعيد الكتب وعاد مهرولًا إلى بلدته... حتى وصل إليها فوجد جمع من الأهالي، أكثرهم من عائلة الساري، ملتفين حول الإمام بالقرب من دكانه... وما أن رآه الإمام حتى اتسعت ابتسامته واحتضنه ثم عاد للانخرط في أحاديثه مع المحيطين به... لم يستطع سعيد الاختلاء بالإمام في تلك الليلة أو ما تلاها من ليال... أصبحت الخطبة موضوع حديث الرجال والنسوة في ليالي السمر كما تحول الإمام نفسه إلى بطل شعبي واجه جبروت سيد خطاب وحده بلا رهبة، وتحولت خطبته إلى كلمات مأثورة يتداولها الأهالي وهم يمصمصون الشفاه من حكمته وشجاعته...

ساحكون على منظر سيد خطاب وهو يخرج من الجامع مهرولًا، بعث الحكاوي عن أصول الإمام التي قال أحدهم أنه سمع أنها تمتد الى النبي الكريم وأن الإمام من الأشراف... وانتشرت حكاوي أخرى عن اعماله الخيرية التي كان يقوم بها في السر ولا يدري بها أحد كي لا يفقد ، كما أصبح للإمام مريدوه الذين يتبعون أينما ذهب... تابع سعيد كل ذلك دون أن يتدخل ليصحح أو يعترض أو حتى ليأخذ لنفسه نصيًا من المجد.

وبينما الإمام ينعم بشعبيته الجامحة ويكتوى سيد خطاب بسياط العضب المكتوم... انكفأ سعيد على قراءة الكتب التي أعطاها له الشيخ محمود قطب عن الصوفية... مرت أيام لا يكاد يقوم خلالها سعيد لقضاء حاجته... حتى أنهى مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية وتلبيس إبليس لابن الجوزي... ففقه الشرك البين الذي عاشه ويعيش فيه أهل الحجازي... والذي اعتاده القوم حتى صار أمرًا مسلمًا.

على مدار تلك الأيام التي استغرقها في قراءة الكتب... تغير فكر ورؤية سعيد الرفاعي كما يتغير منتج يمر بخط تصنيع ليبرز مغايرًا لحالته الأولى... وبرغم ثبات كل ما يحيطه في باب الحجازي إلا أن شيئًا لم يعد كما كان في عينيه، عادات أهل القرية الجاهلية والاختلاط بين نساء القرية ورجالها والبيوت المفتوحة والأصوات العالية وفحش القول وإهمال البعض للصلاة والاستهانة بالمحرمات. إلا أن أشد ما أصبح يؤلمه هو مقام الحجازي، المقام والباب، رموز الشرك البين.

اشتدت غربة سعيد بين أهلة ولم يعد يشعر بالألفة بين أحضان القرية التي شهدت صباه وشبابه.. بل صار توافًا إلى الذهاب لأرض الإسلام الأولى... تلك الأرض التي عايشها في صفحات الكتب وعلى لسان الشيخ محمود... حيث كان الإسلام نقيًا... حيث المجد الذي حققه

المسلمون الأوائل حينما نهلوا من النبع الصافي للإسلام... ساعا
ذلك التخيل في تشكيل فكرة في عقله لما ينبغي أن تكون عليه با
الحجازي... فهو إن لم يستطع الذهاب إلى بلاد الإسلام فإنه بلا شا
قادر على نقل الإسلام إلى باب الحجازي... تناول سعيد قلمه وأورا
وتفرغ لكتابة خطبة جديدة للإمام... خطبة تقطر كرهًا على المقام والبا
وترمي كل من يزوره بسهام الخروج من الملة.

# (١٦)

فوجئ المصلون لدى دخولهم الجامع، في صلاة الجمعة التالية، بكم كبير من البيادات الميري تبعثرت أمام المدخل... سرت همهمات بين المصلين عندما تضاعفت المفاجأة بظهور شيخ أزهري معمم كخطيب جديد للجامع... الخطبة الأولى لذلك الشيخ الخمسيني شهدت حضور رتل من عساكر المركز يتقدمهم المأمور شخصيًّا، الذي كان له وجه خُلِق خصيصًا ليبدو غاضبًا، حتى عندما يكون رائق المزاج يستشعر من حوله أنه على وشك الفتك بهم. ارتقى الشيخ ذو العمامة الأزهرية المميزة والجبة والقفطان والحزام الحريري المنبر بينما جلس سيد خطاب في مجلسه بالصف الأول بجوار المأمور، إلى أن بدأت الخطبة... وما أن انتهى الشيخ من حمد الله حتى طفق يقول

وقد نُهي عن الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، بل نرى طاعتهم من طاعة

الله عز وجل، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة... قال تعالىٰ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(1)

وفي الصحيح عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم، أنه قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني. وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف. يا حبيبي يا رسول الله، فما الحال إذا رأينا ما يشتبه في كونه معصية يصدر من ولاة الأمر... لا تسمعوا كلامي... اسمعوا كلام حبيبكم... قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: من رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، فميتة جاهلية. كما قال حبيبكم عن ولاة الأمر: ألا من ولي عليه وال، آه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدًا من طاعة. طيب يسأل سائل إيه الحكمة، والحكمة الجليلة هي أنه يترتب علىٰ الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما ينتج من جورهم، بل في الصبر علىٰ جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل... وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما."

اتسعت ابتسامة المأمور في رضا وربت علىٰ فخذ سيد خطاب الذي بادله الابتسامة... جلسا ينصتان إلىٰ الخطيب حتىٰ قام المصلون للصلاة، لا يدرون أين الإمام ومن هذا الشيخ الذي أنهىٰ الركعة الثانية من الصلاة بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ

---

(1) رة النساء ـ الآية ٥٩.

.. كثير[1]. وما كاد ينتهي من السلام حتى قفز العساكر إلى باب الجامع ا ...وا ينتقون بعض الرجال يقتادونهم إلى سيارة الترحيلات التي وقفت ... ار الجامع كخرتيت جائع يلتهم أبناء القرية.

عدد غير قليل من عائلة السناري أُخذ مع من أُخذ... لكن كبير العائلة، الحاج محمد السناري لم يمس... كان سيد خطاب أفطن من أن يفسد ا وازن الدقيق لموازين القوة في القرية... وهو لابد سيحتاجه عندما مي الأمر إلى التفاوض المحتوم... كما أن الإمام شخصيًا لم يمس، ام الأهالي منه فيما تلا الخطبة أنه أُخبر صبيحة ذلك اليوم بإيقافه عن الخطابة في الجامع... هكذا أُبلغ رسميًا بخطاب من وزارة الأوقاف على يد أحد عساكر المركز بعد أن أعد خطبته وارتدى ملابسه... بلا مقدمات... الغريب أن الجامع لم يكن وقفًا لدى الوزارة... اعتكف الإمام في داره وأغلق الدكان وأغلق معه فمه... إلا أن الفم الذي لم يغلق كان فم آدم السناري ومعه مصطفى الرفاعي اللذين راحا يحثان الناس على عدم الخضوع للأمر الواقع.

اعتُقِل كل من سولت له نفسه تحدي سيد خطاب أو أحد رجاله... أُخذ وراء الشمس كما قال الأستاذ عبد الحميد في شيء من الشماتة الظاهرة بينما يحدث بعض الرجال الغاضبين عقب الصلاة

إيه يا جماعة... أغلب اللي اتاخدوا حرامية ولاد كلب... والله بيتساهلوا أكتر من كده

أجابه أحد الفلاحين في احتداد

يا أستاذ عبد الحميد في عيال كتير من دار السناري اتاخدوا!... دول كمان حرامية!

---

ر ة الشورى ـ الآية .

بلاش حرامية... مش متربيين يا جماعة... وبعدين إنتم قلقا
ليه... اللي حيتاخد غلط أو التحقيق يظهر أن معلهوش حا
حيطلع تاني... واللي على راسه بطحة هو اللي يخاف... النا
لازم تعرف إن في حدود

نظر إلى الرجل وأكمل في ما يشبه التهديد

وفي حدود للكلام... ساعات الكلام ممكن يضر أكتر من
ضرب الفاس... يا رجالة البلد دي من غير الحاج سيد خطاب
متـــواش... كلنا عارفين كده... هو اللي عمل لنا قيمة وسط البلاد

قال الرجل في احتداد

قيمة إيه... بأمارة المية اللي مش مكفية الأرض... إحنا لو لنا قيمة
صحيح كان البحَّار ارتجع

أيده آخر قائلا

إحنا خلاص بنعض في الأرض

فقال ثالث

وبعدين الراجل قال كلام ربنا... والحرام ميدمش

والشيخ الأزهري ده قال كلام أمه... مهو كلام ربنا برضو... وده
شيخ أزهري... يعني متعلم مش زي التاني اللي محدش عار
بيجيب كلامه منين

هكذا قال الأستاذ عبد الحميد الذي ظل يرهب ويرغب فيمن حوله.

لم تخل جلسة من جلسات المساطب من تلك النقاشات... وظل
الشيخ الأزهري الجديد يخطب في الناس... إلا أن هنالك حدود للقوة

ذلك ما بدأ يدركه سيد خطاب في أعقاب خطبة الإمام
..ملت تلك الفتوى المصيبة... لمس ذلك في نظرات الناس...
..ودهم التي اختلط بها الاحترام الظاهر في الألفاظ بالاحتقار
..نزاز المبطن في النظرات وتعبيرات الوجه... واعتذار ثلاثة من
ا..لاد الحلال" عن "فعل الخير" بلا إبداء أسباب ظاهرة... حاول سيد
..ال ممارسة الإغراءات المادية لكنها لم تجدِ سوى مع شرذمة قليلة
.. سريعًا مع تأنيب الأهالي لهم على فعل "الحرام" ذلك الفعل
.. ي كان منذ أيام يسمى "فعل الخير"!!

## (١٧)

لم يطل اعتكاف الإمام في داره... طارده الزائرون والمريدون كالذباب... لكنه كان يدرك أن ذلك الذباب هو الذي يوفر له الأمان... هو الذي حال دون اعتقاله مع من ذهبوا وراء الشمس... لم يكن يفصل بينه وبين غدر سيد خطاب سوى ذلك الجدار الرقيق من المريدين... لذا فقد عمل على توسعته... ولم يكن بحاجة إلى الكثير من المجهود... فقد انصرف الأهالي عن الخطيب الجديد المندس عليهم وظلوا يستمعون إلى الإمام في الغيطان وعلى رؤوس الترع وفي البيوت... حتى تحول دكانه الصغير إلى حلقة علم، يتربع في عمقه كشيخ العامود حوله حلقة لا تنفض إلا برحيله... تتناقل كلماته بين الناس لتصل إلى الجميع.

ظل الإمام يتابع جمهور المريدين وهو ينمو، يكبر... يتنافسون فيما بينهم للحظوة بمكان أقرب إليه... رويدًا رويدًا حتى عاد التحدي والثقة إلى النفوس... ذلك التحدي الذي أدرك الإمام أن مصيره معلق به... ومع

.ن عاد إليه بعض الاطمئنان ووجد نفسه تواقةً لمزيد من السلطة... السيطرة... استشرى ذلك النهم في نفسه حتى أصبح يعد الوجوه التي ،، مجلسه... يتشي بكل وجه ذي شأن ينضوي تحت عباءته.

على النقيض من شعبية الإمام المتنامية فقد حُمِّل سيد خطاب أوزارًا ،، أوزاره فأصبح في ذهن الأهالي هو والشيطان سواء... حتى أن ٨٠، الأسعار بعد توقف المساعدا - العربية لمصر عقب زيارة السادات لإسرائيل تحمله سيد خطاب... فسرت إشاعات في البلد بأنه من تسبب في الغلاء انتقامًا منهم... كان الإمام يستمع إلى تلك الإشاعات ويتشي ..كانة سيد خطاب المتآكلة.

في تلك الأثناء كان سيد خطاب يحاول جذب الشيخ عبد الكريم إلى صفه لتوازن الأمور لكن الشيخ اعتذر بجفاء... هكذا أحس سيد خطاب... كما تملكه شعور بأن جميع الأبواب تُغلق في وجهه فلجأ إلى الباب الوحيد الباقي له... ذهب إلى المقام وأخذ يدعو... دعا كما لم يدع من قبل... وخلال الأيام التالية ساءت حالته النفسية كثيرًا... وأصبح متقلب المزاج عكر الوجه يصرخ فيمن حوله بلا توقف... ثم اعتزل في حجرته ولم يعد يخرج حتى للصلاة فعم التوتر بأتباعه.

ذات ليلة دخل عليه ابنه الأكبر، جمال، غرفته ليجده جالسًا بجوار الهاتف ملتصقًا بالحائط على أريكة بلا ظهر... تنحنح جمال ليتنبه والده الذي كان شاردًا لوجوده قبل أن يقول

الرجالة بدأت تقلق من عدم وجودك... والسؤال كتير والكلام اتتور يابا

الناس مفيش وراها إلا الهم

هكذا أجاب سيد خطاب دون أن ينظر إلى ابنه الذي قال بعد تردد

وانت إيه اللي جابرك على الهم يابا... نروح نقعد في المهندس
نراعي المعرض ونشوف أشغالنا في مصر وإسكندرية... ملعون
أبو دي بلد مجلناش من وراها إلا الهم

نظر إليه سيد خطاب وهو يجاهد لأخذ أنفاسه

عايزني أسيب بلدي يا جمال... عايزني في السن ده أهرب.
وعلشان إيه، عيل جربوع افتكر نفسه شيخ... أنا اللي عملته شيخ
وأنا اللي فاتح كل بيوت البلد دي، أنا اللي بنيت الجامع وعملت
للباب قيمة... وتقولي أمشي... دي بلدي، أنا اللي بنتها وحموت
وأندفن فيها... بيعاقبوني على إيه... أكونش بضربهم على إديهم
علشان يعملوا الخير وينفعوا نفسهم وغيرهم... إيه الحرام في
اللي عملته... واحد مريض ربنا يريد يكتبله عمر جديد على
إيدي وواحد ابن حلال يساعده وياخدله قرشين ينفع بيهم نفسه
وأهله... كفرت أنا كده... البلد كلها نسيت لما كانوا يترجوني
أقضيلهم مصالحهم... متمرش فيهم الخير... كلهم ولاد قحبة

ثم أردف فيما يشبه الصراخ

علي الطلاق ما أنا سايبهم... وبكرة يعرفوا إن الله حق... كلها كام
يوم ونخلص من ابن الهرمة اللي صدق إنه شيخ

أشار إليه سيد خطاب ليتركه وحيدًا... فخرج دون أن يستفسر عما يدبره للخلاص من الإمام... وجلس هو وحيدًا يجتر همومه... الآن فقط أدركه عمره الذي تعدى الثمانين... بدأ يدرك أنه قد هرم ولم يعد الزمان زمانه... لم تعد له تلك الهيبة التي كانت تكفي لإرهاب الرعاع وإيقافهم عند حدهم... شيء ما تغير في باب الحجازي بينما كان هو في غفلة من أمره... كيف لم يتنبه إلى حجم الإمام الذي أخذ ينمو حتى

كيف تجرأ محمد السناري عليه فجأة... كيف تحولت جميع
..ات الأمان التي كان يعتمد عليها لإحكام قبضته على البلدة إلى
، نريد أن تقتنص روحه... يعيش كابوسًا يخنقه بينما لا يقوى حتى
،حريك أطرافه... أحس بضيق وجبل يرسو على صدره فجاهد
أنفاسه... يتساءل لم يمعن القدر الملعون في ذبحه حتى وصل
م اه إلى شغاف القلب!

# (١٨)

كان يومًا قررت فيه جهنم أن تطل على باب الحجازي... لم يكن الهجير يأتي من السماء فقط، بل قررت الأرض التضامن فأصبحت تنفث حممها سخونة لتصهر جثث الموتي الأحياء السائرين في طرقات البلدة حينما جاء رتل من عساكر المركز في سيارتين للشرطة، ركب إحداهما المأمور بنفسه... هبط المأمور بوجهه الجهم في هدوء وأخفى صلعته بقبعته بينما قفز عساكره من السيارتين... هرع الرجال والنساء يلتقطون أطفالهم... يسوقونهم إلى داخل البيوت جزعًا من وجوه العساكر المتحفزة... بإشارة من المأمور اخترق العساكر في خطوات سريعة إحدى الطرقات الضيقة التي عجزت سيارات الشرطة عن دخولها واقتحموا أحد البيوت وسط عويل النساء من الدور المجاورة... خرجوا في أعقابها يقتادون الإمام في ملابسه الداخلية وقد ارتسمت على وجهه أعتى أمارات الارتياع... اقتادوه عبر الطريق الضيق ومنه إلى سيارة الشرطة... حاول أحد أتباع الإمام اعتراض طريق العساكر فتكتل عليه

...م منهم وطرحوه أرضًا وانهالوا عليه ضربًا وركلًا في غلٍّ حيواني... ا ار لهم المأمور باشمئزاز فحملوه وألقوا به إلى جوار الإمام في سيارة الشرطة التي ما لبثت أن أطلقت صفارتها وانطلقت تشق طريق العودة .. أن كادت تدهس بائعة الفجل البدينة الجالسة بجوار "الرشاح" على حل القرية.

ما أن استقر الغبار في القرية حتى بدأ الناس يستوعبون الصدمة... اهمر سيل من رجال القرية على مندرة الساري حتى ضاقت بمن فيها ، تعالت وتداخلت الأصوات الغاضبة

المركز في جيب سيد خطاب

حسيبوا الراجل يتخطف من وسطينا كده

المأمور بيقبض من سيد خطاب وكلنا عارفين كده

وقف الحاج محمد الساري في وسط هذا الغضب الجامح لا يملك إسكاتهم أو تقديم حلول فاكتفى بالمراقبة... الرجال يتصايحون فيما بينهم فيزيد الهياج من الغضب... حتى ارتفع صوت آدم الساري قائلًا

عايزين نفكر بالراحة يا رجالة

هدأت الأصوات قليلًا فأردف

أنا ح أخد مصطفى ونروح المركز نشوف إيه التهمة اللي حيشيلوها له

ارتفع صوت من آخر الجمع

متنساش الراجل الغلبان اللي اتاخد في الرجلين معاه

ذهب كل من مصطفى الرفاعي وآدم الساري وبعض الأهالي إلى

مركز الشرطة... بينما بقي الرجال في جمعهم بالمندرة حتى صلاة العصر، ثم انفض الجمع بالتدريج... وبرغم انصراف الجمع، إلا أن وجوه الرجال المكفهرة في الطرقات كانت تنبئ بأن البركان المكتوم يكاد ينفجر ويقذف بحممه في وجه الجميع... وهكذا شهدت الفترة الفاصلة بين العصر والمغرب العديد من التحرشات بين رجال سيد خطاب والأهالي... لكن الأهالي هم من كان يبدأ التحرشات هذه المرة... أصيب أحد رجال سيد خطاب بشج في رأسه بعد أن تجمع عليه الأهالي يخرجون فيه غليلهم وخوفهم من المجهول الذي ينتظرهم... نمى ذلك إلى علم سيد خطاب فأحاط دواره من جميع الاتجاهات بالخفر وبقى هو وأهله لا يبرحونها.

بحلول المغرب عاد مصطفى وآدم من المركز إلى مندرة السناري... وما أن رآهم الرجال حتى تجمعوا من جديد... توسط مصطفى الجلسة

المأمور مرضيش يقابلنا... لكن احنا عرفنا من الكاتب إن في محضر متقدم بيتهمه بتكدير السلم العام... والكاتب قالنا إنه ممكن يتحول للمدعي العام الاشتراكي تحت بنود قانون العيب

هكذا قال مصطفى فبهت الرجال لما سمعوا... لم يكن معظمهم يستوعب تلك التفاصيل، وإن كان ذكر اسم المدعي العام الاشتراكي كفيل لإشعارهم بوقع المصيبة

دلوقتي يا رجالة إحنا عارفين مين اللي ورا العملة دي

هكذا قال آدم السناري وهو يقلب ناظريه في وجوه الرجال

ميبقاش فيكي راجل يا بلد لو واحد من النهاردة اشتغل في أرض سيد خطاب

بهت الجميع ولم يعلق أحد فيما بدا الرعب واضحًا على بعض الوجوه... فعدد العاملين بالأجرة في فلاحة أرض سيد خطاب كبير...

، إ..اعهم بترك مصدر رزقهم سيكون ضربًا من الخيال.

انصرف بعض الحاضرين في هدوء حذر بينما بقي مصطفى وآدم ..عض الشباب المتحمسين لتلك الفكرة، بالإضافة إلى مريدي الإمام ،من هبت في نفوسهم المروءة من وقع الإهانة... لم ييأس شباب ،رية وظلوا يتجمعون كل ليلة بمندرة الساري... يستأنسون بعددهم الـ.ي يزداد بانضمام المزيد من أهل القرية إليهم... يتباحثون الحلول ،يطردون ما يتسلل للنفوس من اليأس. نظموا أنفسهم فخرجوا في البداية ،حاطبون أقرانهم من الشباب ثم توجهوا إلى البيوت التي وقع عليها ظلم سيد خطاب ورجاله من قبل... كان الخوف مسيطرًا على النفوس التي اعتادت تلقي الصفعات في صمت ذليل... وبرغم المقاومة فقد تزايد .دد من انضم لمصطفى وآدم على مدى أيام فأخذوا يطوفون بدور البلدة يستحثون الفلاحين على مقاطعة العمل بأرض سيد خطاب عقابًا له... يستحثون بهم النخوة ويذكرونهم بالمظالم المتراكمة التي اعتادتها باب الحجازي حتى تحولت إلى "سلو البلد" وألفها الرجال حتى لم يعودوا يلتفتوا إليها... الاستجابة كانت ضعيفة... لازال الخوف يسيطر على القلوب... قال البعض أنهم على استعداد لترك العمل إن توحد الجميع على ذلك، لكنهم لن يتركوه فرادى فيقعوا فريسة سهلة تحت أنياب رجال سيد خطاب.

في المقابل تصاعد تحرش رجال سيد خطاب بكل من يعلمون بانضمامه إلى مندرة الساري... ذلك الصباح استل شيخ خفر سيد خطاب طبنجته العتيقة... أخذ يأرجحها بين يديه الغليظتين وهو سائر في رتل من الخفر إلى دار أحد المتغيبين عن العمل أمام أعين الجميع... عندما وصل إلى دار الفلاح كان الأهالي قد تجمعوا بالفعل حولها... أحاطت الأجساد بالفلاح وامرأته من جميع الجهات فور خروجهم من الدار

الشغل مش بالعافية... والله الغني عن فلاحة أرض سيد خطاب

نظر شيخ الخفر حوله إلى العيون المتحفزة

الإيد البطالة نجسة... حتأكل عيالك منين يا بهيم

تعالت الأصوات المحتجة وبدأت الاحتكاكات بين الخفر وبين الأهالي المتجمعين حولهم فحسم شيخ الخفر أمره وانسحب يسب الجميع بأقذع الألفاظ وهو لا يزال شاهرًا طبنجته في عداء واضح.

قرر آدم التصعيد فور علمه بما صدر من شيخ الخفر فذهب تلك الليله على ضوء الكلوبات في وفد من الشباب إلى أرض سيد خطاب... تعمل صفوف من النساء والرجال في مكافحة دودة القطن التي كادت أن تأتي على المحصول... راح الشباب يتغلغلون بين الصفوف وسط احتجاجات رجال سيد خطاب... يحثون الفلاحين والفلاحات ذوي الظهور المنحنية على الرحيل وترك العمل... على التوحد في وجه الظلم... اعتدلت بعض الظهور... بعضها رحل وبعضها عاود الانحناء من جديد... لكن في صباح اليوم التالي كادت أرض سيد خطاب أن تخلو من الفلاحين.

وعلى مدار أيام قليلة... وبالرغم من الترغيب والترهيب للعودة إلى الزراعة... تسلح الفلاحون بالجمود في وجه رجال سيد خطاب وتحول الأمر إلى امتناع عائلات بأكملها عن العمل بالأرض... يتكفل كبار كل عائلة بإقناع جميع أفرادها بالكف عن العمل... ويتكافل أفرادها مع من تضرر من قرار العائلة ليبقى بيته مفتوحًا لا ينقصه شيء... وهكذا، تحولت أرض سيد خطاب إلى وصمة عار تنال عائلة من يعمل بها.

مع تعطل العمل في الأرض جاهد مقاول الأنفار تحت وعيد سيد خطاب لجلب فلاحين من القرى المجاورة للعمل... لكن الفلاحين

استطاع تدبيرهم لم يكونوا بالعدد الكافي لفلاحة الأرض ا‍سعة... وكانت الدودة أسرع من تلك الأيادي القليلة التي استماتت العمل... وهكذا تبخر محصول سبعين فدان من الذهب الأبيض دفعة ومني فريق سيد خطاب بلطمة أذهلته وأذهبت ما تبقى له من ،، وبث في قلوب أهل باب الحجازي ثقة وفخر لم يعهدوه من قبل.

،انعدام ظهور سيد خطاب أو ردود فعله على ما حل بأرضه، تحول توتر ،اله إلى حسرة على عز ولى... وأصبح الأتباع الذين كانوا ملء السمع ،ا صر يتحاشون الأهالي... واختفت جلساتهم على المصاطب وتقوقعوا ، أنفسهم مع تعامل الأهالي معهم كوباء يرجون الخلاص منه... إلى دوى صريخ سيارة الإسعاف لأول مرة في باب الحجازي... ترددت اه ،اؤه في الشوارع الضيقة وخرج الجميع يتفقدون المشهد الفريد... ـ السيارة تقف بجوار دوار سيد خطاب... وسرعان ما خرج ممرضان ،مهم طبيب شاب يحملون سريرًا نقالًا استلقى فوقه جسد سيد خطاب الم،بل بلا حراك

نصاعدت همهمات المحيطين

ربنا على المفتري

آدي أخرة الحرام

دي دعوة المظلوم

يمهل ولا يهمل

حسبنا الله ونعم الوكيل

نظر إليهم جمال خطاب شذرًا ولم يعلق، وتبع سيارة الإسعاف التي ،حمل أباه بسيارته الخاصة... لم يعلم أهل باب الحجازي ما الذي ألم

بسيد خطاب لكن أشيع أنه أصيب بجلطة تركته مشلولًا لا يقوى على النطق... لم يُخف الكثير من الأهالي شماتتهم... وأصبحت المظالم التي صبر عليها الأهالي لسنوات طوال هي مسار الحديث في البلدة يتعجبون فيما بينهم كيف طال صبرهم عليها كل هذا الزمن.

وهكذا باتت باب الحجازي ليلتها وطرفا الصراع الطاحن مغيبان عن المشهد... لكن ذلك لم يفت في عضد أهل باب الحجازي الذين قرر بعضهم الاحتفال برحيل سيد خطاب... ربما أرادوا أن يزرعوا داخلهم ذكرى ذلك النصر العزيز كي لا تغدر بهم الأيام ويفعل بهم الزمان أفاعيله فيُخرِج لهم سيد خطاب جديد... لكن تلك النشوة تبخرت صباح اليوم التالي عندما انتشرت في البلدة إشاعة بأن سيد خطاب قد أمر المركز بإطلاق زبانيته على باب الحجازي... استبد القلق والخوف بالناس... وسرعان ما تحول الغضب إلى هياج حتى اضطر بعض رجال سيد خطاب إلى مغادرة البلدة خوفًا من أن تطالهم نيران ذلك الغضب... لكن شيخ خفر سيد خطاب، لم يحالفه الحظ بالخروج بهدوء من البلدة... ارتعشت شفتا الرجل عندما لمح الشر في أعين بعض الشباب المتوتر الذين اعترضوا طريقه، فأخرج طبنجته العتيقة وهددهم بها إن اقتربوا منه... أخذت يداه ترتجان حتى تحققت أسوأ مخاوفه... خرج عيار طائش من الطبنجة التي لم تستخدم يومًا فأصاب أحد الشباب الذي سقط وهو يصرخ... كان الهلع البادي على وجه شيخ الخفر كافيًا بشله لكنه وجد طاقة هائلة تتدفق في شرايينه... فترك كل ما بيده وتمكن من الهرب بأعجوبة... لم يتوف الشاب... أصاب عيار الطبنجة ساقه وحُمل إلى مستشفى المركز... لكن الغضب الذي فاض من نفوس الشباب تحول إلى وقودٍ للنار التي أحرقت دوار سيد خطاب.

تجمع الأهالي حول دوار سيد خطاب التي يتصاعد منها دخان أسود

..اب الحجازي... وقف الجميع في ذهول كأنما لا يصدقون أن
ا.. ستطيع أن تأكل الدار الوحيدة المبنية بالطوب الأحمر في البلدة...
.. و ن كيف واتتهم الشجاعة، أو التهور، لإحراق دوار سيد خطاب...
، ، حرك أحد لإطفاء الحريق الذي وحَّد الصفوف وألقى بالجميع، حتى
اان مترددًا، في خندق واحد... ومع تنفيث الغضب لم يتبق سوى
، الفاتل مما ستحمله الساعات القادمة.

صباح اليوم التالي أفاقت باب الحجازي على إشاعة جديدة بأن
ا ١.ا.ور قرر ترحيل جميع المحتجزين في سجن المركز، بما فيهم الإمام،
إلى سلخانة معتقلات العاصمة انتقامًا منهم. فخرجت جماعة من مريدي
الإمام مع العديد من أهالي المحتجزين تجاه المركز، متسلحين بالعصي
، المزوس... كان مشهد زحف الناس على المركز مهيبًا بكل ما تحمله
الحلمة من معاني... أذهبت كثرتهم ودفء أجسادهم المتلاحمة عنهم
القلق وبثت بهم ثقة نادرة.

لم يكن المأمور حاضرًا عندما حوصر المركز... لكنه حاول أن يتخيل ذلك الحصار عندما جلس صباح اليوم التالي يستمع إلى الضابط الذي وقف يتلجلج أمامه في محاولة لتبرير اضطراره لتحرير أسر المساجين... أخرج المأمور جام غضبه على الضابط المسكين وأحاله إلى محاكمة عسكرية... لكنه عندما اختلى بنفسه، جلس طويلًا يتخيل ذلك المنظر الذي بدا له ضربًا من ضروب الخيال... الأهالي يحاصرون المركز... يقذفونه بالحجارة ويهددون باقتحامه بينما يتمترس العساكر داخله ترتعش الأسلحة في أيديهم أمام صياح الرجال... أطلق من صدره نفسًا يحمل لهيب الغضب... ولم يعترف لنفسه أنه شعر بالارتياح لعدم اضطراره لمواجهة الأهالي تلك الليلة... أدرك أن الأساليب القديمة لم تعد تجدي مع واقع القرية الجديد... كان شبح فكرة خبيثة يتجسد في عقله، لكنه كان

في حاجة لمشاورة تلك الفكرة مع صاحب الشأن قبل التنفيذ.

حملة التفتيش التي تلت تلك الواقعة كانت واهية... وبدت شكلية إلى حد مضحك... لم يجد العساكر الذين كانوا يتحاشون الاحتكاك بالأهالي أي أثر للإمام أو من هرب معه... ولم يعاود المأمور البحث عنهم... ومع اختفاء العساكر وذهاب القلق نسبيًّا من النفوس خرج الأهالي الذين عاودتهم النشوة إلى ساحة الباب والشوارع... يتحدثون ويضحكون. وأبدع كامل في تقليد الضباط المرتاعين أمام جبروت الأهالي أثناء موقعة المركز.

لا يتذكر أحد من بدأ ذلك الأمر... لكن مندرة السناري تحولت إلى مركز يحج إليه الرجال والنساء على السواء... كلٌّ يحمل ما تيسر من زاد أو كساء... لم يتخلف أحد برغم ضيق الحال... حتى تكومت أرغفة الذرة والحبوب والملابس فبعث الحاج محمد السناري بآدم ومصطفى مع آخرين يدورون بالدور الأكثر عوزًا في القرية في جنح الليل يدقّون الأبواب التي كانت تعتمد على فلاحة أرض سيد خطاب وتلك التي كان يخصص لها دخلًا من وقف الباب... يدخلون الطعام والحبوب التي تسد جوع البطون... ويشرق معها ذلك الأمل الوليد في قلوب عزَّ الزمان عليها بالحلم بغد أفضل.

# الفصل الثاني

## (١)

في ليلة صافية جميلة، سبقها ليلتان للحنة، ارتفعت الزغاريد تقاطع الغناء الخارج من إحدى دور السناري المتلاحمة كبيت عملاق ذي ابواب عدة تلتحف بأكوام الحطب والقش فوق الأسطح، كانت النسوة قد انتهين من إعداد الطعام الذي حُمل على الرؤوس في طابور أمام المندرة المقابلة بينما يعلو صوت الصبايا من الدار

*وسطي بيوجعني من إيه؟! وسطي بيوجعني من رقص إمبارح*

*يااللي ع الترعة حود ع المالح*

*وشوف الحلوة اللي عودها سارح*

أشار الحاج محمد السناري إليهن بإدخال الطعام بعد أن أُعدت الحصر في المندرة... وضعت الفتيات الطعام ثم عدن إلى الدار حيث تحزمت الأرداف بالطرح وأخذت بالاهتزاز يمنة ويسرة... تنطلق الضحكات

كطيف شفاف وسط الرجال فانفطر قلبها إشفاقًا عليه.

توقف الغناء باضطراب عند دخول شاب جاء مهرولًا ليشير لل..
بالهدوء فور اقتراب الإمام من المندرة.

شوفي مين اللي شرف... صدق اللي قال... الدنيا زي الغزية
ترقص لكل واحد شوية

هكذا قالت أمها وهي تشير إلى الإمام الذي دخل في رهط من أتباعه إلى المندرة وعانق الحاج محمد الساري... لم تمض بضع دقائق حتى استأذن مع أتباعه وأدار ظهره ليعود من حيث أتى... إلا أنه رفع عينيه قبل أن يختفي عن ناظريها... ولوهلة شعرت زينب أن سهم تلك النظرة أصابها... شيء ما في عينيه يشع طمعًا، نظرة تاجر جشع يسيل لعابه لبضاعة يراها زهيدة الثمن... كاد وقع ذلك السهم أن يثير غثيانها... إلا أن تصفيق النسوة الذي عاد ليرتفع من جديد برحيل الإمام شتت انتباهها فجلست شاردة بينما إحداهن ترقص وسط دائرة من صديقاتها

*بس الوله يجي... بس الولة يجي*

*يجي عالمحطة... وادبحله بطة*

*يجي عند دارنا... وادبحله حمامنا*

*واشاورله يجي... يجي عالتسريحة*

*وأحطله ريحة*

في المندرة، تلقى مصطفى وصول آدم الساري، الذي أصبح مقيمًا بدار عمه منذ وفاته وعزف عن العودة إلى القاهرة، بابتسامة عريضة... سريعًا ما استقر آدم بجواره بعد أن انتهى من مصافحة الرجال المنشغلين في الأكل... لم تمض أكثر من ساعة حتى بدأت علامات الاضطراب

عليهما... أشار آدم إلى ساعته قبل أن يميل مصطفى على أخيه

أنا رايح الجلسة يا سعيد

انعقد حاجبا سعيد وتكدر وجهه فابتسم مصطفى قبل أن يسحبه بعيدًا من زحام الفرح وسط استكار الأهل... لكن برغم الاستكار إلا أن الجميع يعلمون أنهما لن ينتظرا أكتر من ذلك... فلن يحول شيء بين مبعة وبين جلسات السماع.

مصطفى الأوبرالي لابس جلية بلدي... أنا بحلم يا عالم

الجلية مريحة أكتر يا ابن مصر

والله انت اللي شكلك بعت مصر بالرخيص واشتريت باب الحجازي

لم يعقب مصطفى واكتفى بالابتسام في رضا... فقد نفذت باب الحجازي إلى روحه وتوقف عن بناء عوالم زالت ولن تعود كتلك التي تعج بها حكايات الباشا... عاوده معنى "الدار" الذي كاد ينساه... لماذا لم يكن ذلك المعنى جليًّا من قبل... أم أنه تاه في خضم صخب حياة العاصمة وزحامها. في باب الحجازي الأهل جميعهم في دار واحدة... والجميع يعرفون بعضهم البعض على نقيض القاهرة المتنافرة، المكونة من مجموعة من الغرباء النازحين من كل حدب وصوب، لا يجمعهم شيء. بينما هنا، حتى المقابر لا تفصلها أسوار عن الأحياء من الأهل والأقارب... يُقرِئون الأموات من الأهل السلام في غدوهم ورواحهم، يجتمعون في المحيا والممات قبل أن يلتم الشمل من جديد في الدار الآخرة. ما يخزيه أنه أدرك ذلك بعد فراق والده.

تناهى إلى سمعيهما صوت الصبايا المرح الذي بدا خافتًا وهن يبدأن وصلة جديدة من الغناء

*اتدحرج واجري يا رمان*

*وتعالي على حجري يا رمان*

*دانا حجري حنين يارمان*

*يخلك ويميل يا رمان*

ذكره مرح الفتيات بالقبح الهاجم على باب الحجازي... الإمام لم يعد له هدف يوجه له سهام الكراهية سوى الباب وعادات أهل البلد "الجاهلية"... يعتصر بكلماته قلب القرية ليفرغه من كل معاني البهجة والجمال القليلة الباقية للمساكين... تذكر في تلك اللحظة حريق الأوبرا التي عشقها يومًا... أكلما وجد نفسه في شيء احترق... لم يكن يدري وهو يسير صوب الباب أن الإمام لا ينطق سوى بكلمات أخيه الذي تركه للتو.

انضم مصطفى وآدم إلى السميعة على حصيرة السمعخانة، بدأ الشيخ عبد الكريم الإنشاد بصوته العميق، ترتل خلفه جوقة الدراويش مع إيقاع الدفوف والربابة... مع ذكر النبي الكريم تناسى مصطفى ما يثقل باله... خارج عالم الحضرة هناك الباحثون عن السعادة وهناك المنقبون عن الهموم... أما داخل عالم الحضرة فهنالك هؤلاء القلة الذين كفوا عن البحث فاهتدوا إلى السكينة.

انتابته صحوة ذات مذاق خاص، حوله تتغير أبعاد القاعة لتصبح أرحب... تتباعد الجدران حتى لا يكاد يراها، ويصبح المكان أكثر إضاءة... تزداد حرارة الإنشاد ويعلو الصوت حتى يسمعه نابعًا من أعماقه، وتتمازج وجوه السميعة لتصبح ذات ملامح واحدة نورا... ثم تحلق الأرواح لتنظر إلى سماء زرقاء زهرية بلا غيوم... وبلا حدود... يشعر أن تلك السماء ألقمت صدره بعضًا من رحابتها فيختفي ذلك الضيق الذي

ما، مليه... يتنفس بعمق، يسمع الهواء يملأ صدره عن آخره ليسترخي
. م كل نفس ومع كل كلمة ذكر ينطق بها. ثم هنالك تلك الرائحة التي
-ال رتيه... رائحة كأنما تبعث من أعماق ذاكرته، لا يستطيع تحديد
م . ، ها، إلا أنها تحمل عبق طفولته. ألقى التفكير في الرائحة وراء ظهره
، اطاق لجناحيه العنان مع ترتيل "البُردة" حتى انجذب، تبدد المكان
، . هف الزمان وذاب في الحضرة، يروي روحه المشتاقة إلى الحبيب،
ن الأجساد مع دقات الدفوف التي راحت تهز القرية حتى جذورها.

محمد سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجمِ
نبينا الآمرُ الناهي فلا أحدٌ أبر في قولِ لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هولٍ من الأهوال مقتحم
دعا إلى الله فالمستمسكون به. مستمسكون بحبلٍ غير منفصم
فاق النبيين في خلقٍ وفي خُلُقٍ ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ غرفًا من البحر أو رشفًا من الديمِ
وواقفون لديه عند حدهم. من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيبًا بارئُ النسم
منزهٌ عن شريكٍ في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ماشئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له. حدٌّ فيعرب عنه ناطقٌ بفم

في تلك الليلة، وبعد أن انتهى الفرح وبينما السميعة في عالمهم الخاص، استيقظت باب الحجازي بعد أن آوى كل حي إلى داره على صوت شجار عنيف... فُتحت الأبواب الخشبية وخرج الرجال والنساء

متفخي الأعين يحملن صغارهن على أيدهن إلى مصدر الصو..
خرج سعيد الرفاعي تحت أثر خدر النوم ليجد كامل المجذوب يهر ا
عليه

الحق خالك ملاته حتخلص عليه

عندما وصل إلى دار خاله، خليل الورداني، كانت زوجته تصر في وجهه... تصيح في هستيريا بأنه صرف آخر قرش لديهم في جل. القهوة... جرته من شعره في الشارع وأخذت تضربه بنعلها وهي تصر ، فيه بأن أولادها سيموتون من الجوع... الزاد لم يدخل الدار منذ تبحر عمله في أرض سيد خطاب. تصرخ المرأة وتردد الطرقات الساك، صرخاتها... كل الدور تشكو مر الحال... وكل النساء يتفهمن ما أقدمت عليه رغم شذوذه... بينما الرجال يعطون العذر لخليل المشعث الشعر الذي استند إلى جدار طيني متهدم في استكانة، بعد أن نجح الناس في التفريق بينه وبين زوجته... يوزع نظراته الزائغة على من حوله... كيف له أن يقوى بداره ليل نهار يحدجه الجوع من أعين أطفاله. لم ينجح الظلام في إخفاء وجه خليل المنكسر... ولم تغط أصوات المتجمعين على صوت المرأة التي خارت مقاومتها وجلست على باب الدار تولول بقولها

مشتوه ليه يا كفرة

للحظات، تناسى سعيد شعوره بالتشفي في خاله، الذي جاء ذات يوم وسيطًا لبيع عرض أخته، ورأى فيه ذلك الرجل المنكسر فرق قلبه لحاله وأخذ يهدئ من روعه

مشتوه ليه يا ولاد الكلب

هكذا صرخت زوجة خاله فانقبض قلبه... الجميع يعلم من تقصد... سرًا، وإن لم يجرُؤ أحد على التفوه بذلك، يتحسر البعض على أيام

معطاب... يسترجعونها في خاطرهم بالكثير من الحنين... الحنين المألوف حتى وإن كان مرًّا كالعلقم... فهو لن يكون أمرَّ من انتظار ...مهول... فرحيله لم يخلف وراءه سوى تلك الأرض البور... كل من ...م شخصية سيد خطاب ويعلم كيف يعمل عقله لم يستغرب ما فعل... لم يعجب من قراره بتبوير أرضه إمعانًا في إفقار الفلاحين الذين تجرءوا ... كان عليه أن ينتقم منهم وإن كلفه الانتقام آخر نفس له في حياته... لم يستطع أن يرحل بهذه البساطة، فزرع بذور الموت وترك البيوت تدفن ... ركام الفقر.

كما أن مصيبة بوار أرض سيد خطاب لم تقتصر على العاملين بها، فمن ...ان يمتلك بعض القراريط البسيطة تأثر حاله بمغالة البحَّار في الاستقطاع ... نصيب باب الحجازي من مياه الري... ولم ينجح الإمام، الذي ...صدر واجهة البلدة منذ عودته، في تغير ذلك... تأثرت بذلك الانحدار ...ل أوجه الحياة، حتى لهو الأطفال لم يسلم منه... فتحول لهوهم من الغميضة والعبث بالتراب، إلى الضرب وتعذيب الحشرات.

لم يعد لكثير من الرجال مثوى من مطالب العيال التي لا قبل لهم سدادها، سوى القهوة المطلة على الترعة، التي أصبحت تعج بالعاطلين عن العمل، بعضهم يحدوه الأمل في الخروج في تلك الأعمال المتقطعة مع مقاول الأنفار، بينما فقد البعض الآخر الأمل واكتفى بالهروب من الدور الفارغة إلى القهوة تعلو وجوههم غمامة عابسة وتغطيهم أتربة الهموم.

مشتوه ليه يا كفره

هكذا أخذت تردد المرأة، يشق صريخها صمت الليل، تضرب على صدرها وتلطم الخدود في نوبة هستيرية جديدة.

لم يحسم النزاع ولم يتمكن خليل من دخول داره تلك الليلة سوى بحضور الشيخ عبد الكريم الذي عاتب المرأة على ما فعلته بزوجها وانتحى بها قليلًا ثم ذهب إلى خليل الذي قبَّل رأس الشيخ عبد الكريم ودخل داره.

## (٢)

مساء اليوم التالي قطع سعيد المسافة الفاصلة بين باب الحجازي وميت الشوكة عدوًا. عند وصوله إلى مسجد الشيخ محمود قطب كان عرقه قد امتزج بالتراب فتحول طينًا يغطي وجهه، إلا أن الطين لم ينجح في أن يطمس تلك السعادة البازغة من عينيه والمرتسمه على تقاسيم وجهه... لم يتبق سوى دقائق على آذان العشاء والمسجد خالٍ إلا من بعض رجال تناثروا في زواياه يستندون إلى الجدران الصفراء بقرب الإضاءات الخافتة يقرأون القرآن. جلس سعيد في ركن المسجد ينتظر قدوم الشيخ محمود لأداء الصلاة... كان يلهث من فرط الترقب والإثارة، يتخيل وقع الأخبار التي يحملها على أذن شيخه.

ما أن هدأت أنفاسه من أثر العدو حتى عاوده التساؤل الذي حاول أن يتجاهله طوال الطريق... لِمَ لم يكن على نفس القدر من الحماسة لنقل تلك الأخبار إلى الإمام... منذ خروجه من السجن لم تعد علاقتهما كما

كانت... هنالك ذلك الحاجز الذي بزغ بينهما... يرفض سعيد أن ي
أن ذلك بسبب رواسب رفض زينب للزواج من الإمام... ويرجع
من ذلك الحاجز إلى مكانة الإمام الجديدة... وذلك التعالي... لا ا
تعاليًا، بل وقار فرضه الوضع الجديد على الإمام... فهناك حدود للتبا ما
بين الراعي والرعية... والإمام الآن راع بلا شك... لكن الدافع الأ
وراء ذلك الحاجز هم بطانة الإمام الجديدة ممن ساعدوه على الهر
من الحبس... الذين يهمسون في أذنه بأنه لا يجب أن يُرى كثيرًا مع
المهموس" وذلك ما تم منذ عودة الإمام للظهور بعد توقف ملاحه
المركز... وما تلاها من تغير موازين القوى... فقد أضفى خروج الإمام
بتلك الطريقة نكهة النصر الإلهي... وتبدلت أحواله تمامًا... فتحول من
بطل القرية إلى كبيرها الذي يعود له الكثير من الأهالي في باب الحجاز
في كل أمورهم.

انتزعته من أفكاره الأصوات العميقة التي خرجت من الساعة العملاقة المعلقة بجوار المنبر... وشرد عقله قليلًا في مصدر تلك الساعة ذات البندول الضخم التي تصرخ تنافرًا مع بساطة المكان لكنه سرعان ما أعاد ذهنه إلى الخبر الذي يحمله... هناك نقاط في حياته، لا يزيد عددها عن أصابع اليد الواحدة، يرى أنها أوصلته لحيث هو الآن، ساهمت في تشكيل حياته وكونت شخصيته بشكل أو آخر... لكن ليس هناك أغرب من أن تتحول حياته لخبر سمعه، وقع على بعد آلاف الكيلومترات في بقعة يجهل مكانها على الخريطة... لكن ذلك بالتحديد ما حدث معه اليوم... فمنذ ما يقرب من عام وبينما هو في غفلة تامة عما يدور في ذلك البلد البعيد... وفي عشية رأس سنة ١٩٧٨ على وجه التحديد... وقف الرئيس الأمريكي جيمي كارتر مرتديًا بذته كاحلة السواد ورابطة عنق حمراء ليلقي كلمته في ختام زيارته لإيران... أثنى عليها في وجود الشاه، الذي ظل يتابعه بقلق لم تفلح نظارته السميكة في اخفاءه، قائلًا أن

جزيرة للاستقرار في وسط منطقة تموج بالمتاعب، وأرجع كارتر إلى قيادة الشاه الحكيمة وحب الناس له... أثلجت تلك الكلمات ،:ا، الملوك وسلطان السلاطين وظل الله في الأرض، الشاه محمد رضا ، الذي أنهى الزيارة بقرع كأسه بكأس الرئيس كارتر ورسم ابتسامة ،.ِمسة على وجهه، ممنيًا نفسه بإنهاء القلاقل التي تجتاح بلاده بدعم ،. بخا... لكن لم يكن مقدر لتلك الابتسامة أن تدوم، ولعل الشاه اعتبر الرئيس كارتر فيما بعد نذير شؤم.

تحولت تلك الجزيرة المستقرة إلى بلد يشله المظاهرات والاحتجاجات ،امن فساد وديكتاتورية الشاه... وأشعلت كلمات كارتر الشوارع، تلك الالمات التي حفرت في ضمير كل إيراني، وأكدت نبوءات آية الله الخميني، .ان أمريكا تريد احتلال إيران بينما يغض الشاه نظره... فقد تزايد عدد الأمريكيين على الأراضي الإيرانية لصيانة وتدريب الجيش على السلاح الأمريكي الذي أنفق الشاه كل أموال البترول عليه... وهكذا خرج الإيرانيون يطالبون بإسقاط الشاه، خرجوا من جميع الأطياف والألوان والمشارب كل يحلم بإيران العدل والمساواة والرخاء والحرية.

وبسقوط الشاه في أوئل ١٩٧٩... احتفل الإيرانيون، البعض تسكرهم النشوة بلا خمر... والبعض الآخر احتفل بفتح أرقى الخمور الفرنسية المعتقة... ولعلها كانت آخر خمور فرنسية تدخل البلاد بطريقة شرعية... فبعودة الخميني إلى إيران أعلنت جمهورية إيران الإسلامية وأخرِست أصوات رفاق الثورة المحتجة.

لم يكن سعيد على علم بأي من تلك التفاصيل حتى صباح اليوم، لكن كعادة الأخبار في باب الحجازي، دائمًا ما ترشح بطرقها الخاصة، فقد حمل ساعي البريد اليوم "مكتوب" ابن عمه الذي يعمل عامل محارة بالعراق إلى أهله في القرية... يشكو لهم التوتر الذي خيم على المغتربين

هناك بعد الإشاعات عن قرب قيام حرب بين الرئيس صدام حسين، الا ي
حرص على ذكر لفظ الرئيس خوفًا من المتاعب إن وقوع الخطاب في أيا ي
المخابرات العراقية، وبين النظام الجديد في إيران بقيادة الخميني..
ذلك الخطاب أخوه مصطفى... كما أنه علم أن الأستاذ عبدالحميد علام
راح يتغنى بقرار السادات الحكيم باستضافة الشاه المنفي في مصر ام
يكن الأستاذ عبد الحميد يدري في واقع الأمر أن السادات يرد الجميل
للشاه... فمنذ ستين، وفي لهيب الاحتجاجات التي اعتقل فيها مصطفى
الرفاعي كانت طائرة السادات رابضة في مطار أبو صوير استعدادًا إلى
الفرار به إلى طهران إن حتمت الأمور ذلك عقب المظاهرات التي كادت
تطيح بنظامه... كان الشاه في استقبال أصدقائه دائمًا مما حتم رد الجميل
عندما تبدلت الأدوار.

بالرغم من شهرة إيران منذ زواج الشاه من الأميرة فوزية أخت الملك
فاروق... لكنها بدت أرضًا بعيدة لا تستدعي أحداثها الاهتمام... ولم
يكن للخبر صدى في باب الحجازي، فلم يعرها من لم يكن له أقارب
في العراق أي اهتمام... إلا أن أذن سعيد الرفاعي أطربها وقع كلمة
"إسلامية" جمهورية إيران "الإسلامية"... ما أجمل نغم تلك الجملة
الساحرة على أذنه... لم تعد الماركسية أو الشيوعية أو الرأسمالية هي
الدواء لألم الشعوب ومصدر طلب العدل والتقدم... إ الإسلام... ما
أحناه وما أعظمه من دين... إذن فقد صدق الشيخ محمود.

ما أن وصلت أفكاره إلى الشيخ محمود... وكأن خاطره قد ناجاه...
دخل الشيخ الهزيل في جمع من مريديه مرتديًا جلبابه الفضفاض وسرعان
ما انهمك في سنة تحية المسجد قبل أن تتاح له فرصة الحديث معه... لم
يستطع سعيد أن يخشع كعادته في الصلاة هذه المرة... تتخاطفه الخواطر
والأحلام... وبمجرد فراغه من الصلاة قادته قدماه إلى مجلس الشيخ

..مود... لا يدري ما قاله للشيخ ولا كيف قاله بعلة لسانه... لكنه رأى . على وجه الشيخ محمود الذي أشرق وراح يتمتم بالتكبير وحمد . تكاثف رواد المسجد حول الحلقة التي تكونت لرؤية دموع الشيخ ..مود تنهمر بلا تحكم بينما يبشرهم بالخبر الذي حمله سعيد... حتى اصبح للجامع الصغير ذي الإضاءة الخافتة روحه الخاصة به... ينبض ا شوة ويصدر منه أزيز كأزيز النحل بينما ينساب الخبر بخروج الرواد ، طلقون كالرصاصات إلى أرجاء القرية.

باتت ميت الشوكة ليلتها ولا حديث على مساطبها سوى قيام الدولة الإسلامية... البعض لم يتذكر اسم الدولة التي قامت بها، لكن ذلك ا م يكن المغزى من الحكاوي... كل ذلك على الهامش... أما صلب الحكاوي فكان عن تصور حال الناس في تلك البقعة من العالم... ، صوّرونها جنة رغداء تفوح منها روائح المسك والعنبر بينما ترتفع ،ها المآذن تصارع عنان السماء... شرع الله مطبق والناس في نعيم ، سعادة... تعلوا وجوههم النضرة وضحكاتهم المليئة بالرضا بعد أن ، ح عليهم المولى بركات السموات... كما تطرق الحديث إلى تأثير ذلك عليهم وهل سيقوي ذلك من عضد الشيخ محمود الذي كان يحلم بذلك المشروع ويبشرهم به منذ زمن... هل ستعود دولة الخلافة كما حدثهم عنها الشيخ!

انفعل سعيد بنبأ قيام الجمهورية الإسلامية إلى حد الهذيان... وعلى مدى أسابيع طويلة منذ سماعه الخبر، لم يستطع إخراج تلك الخيالات التي راحت تجتاح عقله، في صحوه وفي منامه... يرى باب الحجازي شرق بنور الإسلام... ذلك الإسلام الذي سمعه في كلمات الشيخ محمود الذي راح يبشره بقرب فتح الله على عباده المخلصين، وإقامة دولة الإسلام واسترجاع الخلافة... وكان لابد من وجود نقطة لانطلاق

تلك الدولة... يجب أن تطبق تلك الدولة حكمها ولو على أصغر قرية تسيطر عليها، ومن ثم تتوسع حتى تغمر سطح البسيطة كما بشر الرسول الكريم.

لم يستطع سعيد الرفاعي انتزاع تلك الخيالات حتى في مجلسه في جامع الحجازي... شغلته عن الاهتمام بحقيقة أن جماعة الإمام أصبحوا في الصف الأول حيث السجاد الجديد الذي تغوص به الأقدام بينما هو قابع في الخلف حيث الحُصر القديمة... شغلته تلك الخيالات حتى عن متابعة الوجوه من حوله كعادته ليتابع أثر كلماته عليهم... جلجل صوت الإمام من فوق المنبر بأن المقام والباب شرك بالله... وأن الفقر الواقع عليهم ماهو إلا غضب من الله لن يُرفع إلا بالخلاص من ذلك الباب النجس... كان سعيد حاضرًا بجسده فقط بينما عقله وروحه يطوفان في باب الحجازي الجديدة التي يريدها... ذلك المركز الذي ستنطلق منه الدعوة وتنتشر في ربوع المحروسة.

## (٣)

كانت الشمس قد انتصفت في كبد السماء عندما توقفت سيارة نادية هانم بالقرب من ساحة الباب التي لم تعد تتسع لدخولها... كادت الهانم ، تتعثر في إحدى البائعات المرابطات حول الباب... تأففت عندما اشتمت أنفها رائحة الدواجن المختلطة بروائح الجلود المصبوغة والعطور الريفية... أخذت تتحسس موطئ قدميها حتى دخلت إلى الفناء أمام الباب... لم يكن الوضع بهذا السوء في البداية حين انتشر بعض النسوة بعد رحيل سيد خطاب لبيع الحصر والمنسوجات البسيطة... ثم تفاقم الوضع بانضمام المزيد من بائعي الفخار والخوص... ثم انتشر في المكان باعة السجاجيد والجلود المصبوغة وقطع زخرفية يدوية مع بعض الآيات القرآنية على شكل الباب كانت تباع للمريدين من المدن وبعض السائحين العرب قبل اختفائهم... لم تكن الحياكة متقنة لكن تأثير الباب والمقام على المريدين جعلهم يبتاعون أي شيء يذكرهم بلحظة الصفاء

التي عايشوها عنده... وسرعان ما تحول المكان إلى سويقة خضر ...
بجوار الباب أخذت في النمو مع تزايد النسوة اللاتي يتصارعن من أ
المكان المميز... كلٌ يعرض بضاعته التي يقل الطلب عليها يومًا ...
ضاق حال البلدة.

كانت باب الحجازي تذبل كما يذبل أهلها... انحدرت الأحوال ...
لامست الحضيض... لم تعد القرية تلك المساحة الشاسعة من الـ...
الخضراء بعد بوار أرض سيد خطاب... وبعزوف أهل الحظوة والكبار ...
حضور المولد وحلقات الذكر توقفت الأموال عن الهطول في صنـ...
وقف الباب، الذي كان يتصرف فيه سيد خطاب ليساعد المحتاجين ...
أهل البلدة.

زادت الأزهار الذابلة في الممر المؤدي إلى السمعخانة من حسر...
نادية هانم، القبح واليأس لم يرحم شيئًا. لم يكن بإمكانها رؤية كل ذلك
والبقاء صامتة، كان عليها فعل شيء... أي شيء.

وضعت "الإيشارب" على رأسها ودلفت إلى السمعخانة حيث كان
الشيخ عبد الكريم يجلس القرفصاء. جلست في صمت، تطالع الأرضية
القذرة وملابس الدراويش المهلهلة التي علقت على حبل في طرف
القاعة حتى انتهى الشيخ من الذكر ونظر إليها فقالت بلا مقدمات

يا مولانا... انت ليه سايب الوضع كده

أشارت في اتجاه الخارج وصمتت كي يسمع صوت البائعات يصرخن
على بضائعهن

سامع!! المكان باظ من الريحة وصريخ الستات... فين الصفا بتاع
زمان

ابني آدم أهم من المكان يا بتي

م في مرارة قبل أن يكمل

اهم بيشيلوا الزبالة اللي بقت تترمى قدام أولياء الله

.ابك حاجباها الدقيقان وهي تقول

كله من الخطب اللي بتكفر كل اللي يقرب من الباب والمقام... إمام الجامع بتاعكوا ده اتجنن... إيه اللي رجعه وفين الشيخ الأزهري وليه المركز سايبه بعد ما هرب

اطرق الشيخ عبد الكريم وقال

إرادة المولى

لم تعجبها تلك الإجابة المبهمة فاستطردت

سمموا أفكار وعقول الناس لحد ما اتجرأوا على أولياء الله

سمموا قلوبهم... اللي هم فيه ده مش مرض عقل... ده مرض في القلب... القلب اللي قال عنه المولي "وسعني قلب عبدي المؤمن"... لكن القلب القاسي يطرد الإيمان

تنهدت الهانم وقالت

هم ليه بيكرهوا الجمال وعايزين يقضوا على كل اللي مش عاجبهم

محدش يقدر يكره الجمال... الجمال ده صفة من صفات المولي... الحبيب المصطفى بيقول إن الله جميل يحب الجمال

أشارت إلى الباب بعصية وقالت

إزاي يا مولانا... دول عايزين يقضوا على أجمل حاجة في البلد

لو قضوا على الباب يبقى طمسوا فيض الجمال اللي تجلى ع
حسنه... لكن الجمال باقي

كانت نادية هانم تلهث من فرط الانفعال أمام هدوء الشيخ عبد الك
الذي أحست لأول مرة أنه مستفز... أو لعلها تلك اللامباله التي تص
الدراويش... لم تشأ أن تدخل معترك فلسفي لن يفضي إلى شيء فقال
وهي تكظم غضبها

طيب أعمل إيه يا مولانا... قولي أقدر أساعد إزاي

فوضي أمرك للكبير المتعال... العمل من عنده

أنا مش حقف اتفرج يا مولانا... كلمني بالعقل شوية...
وقت زهد ودروشة

إحنا بنزهد في القليل الزائل

قليل زائل!

هكذا صرخت

انت مش حاسس باللي بيجرى حواليك... المكان كله حيضيع..
دا انت حتى مبقتش تصلي في الجامع الكبير من كتر الشتايم
اللي بتنزل عليك وعلى الباب وكل اللي يقربله... حاول تبص
حواليك... محدش عارف بكرة ممكن يعملوا إيه... البلد
اتقسمت خلاص وكل يوم بيسمموا عقل جديد طول ما المن
تحت إيدهم واحنا مبنعملش حاجة

لم يهتز الشيخ عبد الكريم أمام هياجها وقال بهدوء

عارفة ليه زعابيب أمشير لما بتهجم على بلدنا مبتدخلش تراب في
البيوت؟

ـ نادية هانم للسؤال وفتحت شفتيها لتتكلم لكنها أطبقتهما من
قال الشيخ عبد الكريم

الطينة اللي في الأرض ماسكة نفسها... جدور الزرع ماسكة
حبات الطينة مع بعض... حتى المطر لما ينزل... أرضنا تاخد
منه اللي يفيدها وترتوي... ولو المطر شديد والسيل جري على
الطين... الأرض متفرطش في طينتها... ولو الريح أو المطر
شال حاجة فبيشيل القش والزرعة الميتة... وبعدها الأرض تبقى
أنضف وأقوى... واحنا زي طين أرضنا ماسكين في بعض يا بتي
وهم زي السيل مسيرهم يمشوا بعد ما يفتكروا إنهم غرقوا الأرض

انت ازاي مطمن كده

ـسم الشيخ عبد الكريم

اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله... بكرة لما المولى يشاء
والحكمة تستوفى، الهم ينزاح من حيث لا تحتسبي

..ا أنها لم تقتنع

أنا عارفة الناس دول كويس... رجعين

قالت الكلمة الأخيرة باشمئزاز ثم استطردت

بيجبوا كلام شيوخ من قرون فاتت وعايزين يحشروه في زور
الناس بالعافية

أومأ الشيخ عبد الكريم برأسه وقال

هم درسوا العلم لكن نوره مدخلش قلوبهم... بيهاجموا الباب
وأهل الله وسيدي الحجازي وبيرمونا بالكفر... ناسين العبد

الصالح اللي فتح عليه المولى بمقام نوراني عالي وأمر مو...
النبي يتعلم منه... ولا حينكروا القرآن... بس هم قلوبهم مقسوا...

غلفتهم لحظة من الصمت جالت خلالها بنظرها في أرجاء السمحا...
التي نال منها الإهمال هي الأخرى... وغرفة الخزين التي بدت فار

الدراويش كمان بقوا كسالى

الأيادي قلت

خسارة

انحدرت الدموع ساخنة من عينيها

خسارة اللي بيحصل ده

شوفي يا بتي... المولى بيقول من عادى لي وليًا فقد آذ...
بالحرب... لكن الصبر على البلاء منهاج العارفين

عندما انصرفت نادية هانم ابتسم الشيخ وأخذ ينظر إلى الباب بينما
صوت جدال النسوة يرتفع خلفه... ثم عاود الإنشاد في هدوء بصوت لا
يسمعه سواه في ضوضاء السويقة.

## (٤)

عندما دخل مصطفى غرفة التدخين بسراي فؤاد خيري، صباح اليوم التالي، كان الباشا منغمس مع نادية هانم في نقاش بدا له جادًّا حتى أنهما لم يلتفتا إليه، فجلس بهدوء يتابع النقاش على استحياء من السؤال عما يريده الباشا الذي أرسل خفير العزبة في طلبه.

عبثت نسائم الصباح المتسللة من الشرفة بشعر نادية هانم التي جلست تستمع إلى الباشا في تحفز واضح

في نهاية الأربعينات كانت الصحف بتهاجم الملك بضراوة... كان في حرية صحافة

هكذا قال الباشا في فخر فابتسمت نادية هانم في سخرية وقالت

والصحفيين اللي كان بيتقبض عليهم بتهمة العيب في الذات الملكية... ده تسميه إيه؟

قال الباشا بهدوء بدا متعمدًا

استثناءات وكان بيفرج عنهم بسرعة... قارني ده بالوضع دلو
وبعدين كلميني عن الحرية والانفتاح

قالت نادية هانم وهي تقضم على أسنانها

السادات بيواجه مد يساري وناصري مش مخليه عارف يتحرك

المد اليساري كان في الجامعات والصحف من أيام الملك
لكن السادات فاكر أن اليساريين والناصريين والمثقفين أعداء
وطالق عليهم وعلينا الرجعيين دول... انتِ عارفة إني ضد الفكر
اليساري... لكن حله ميكونش بالترويج للرجعية اللي حتحرق
الكل

نفث الباشا دخان سيجارته ثم استطرد قائلًا أن الحسنة الوحيدة للمد اليساري أيام الملك الذي كان يصل إلى الطلبة في جامعتهم والعمَّال في مصانعهم ولا يكاد يترك بابًا دون طرقه... أنه كاد أن يقضي على الرجعية المستترة في الدين... إلى أن مُد الرجعيون بشريان الحياة من حيث لا يحتسبون بإنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ ليجدوا فيها القضية التي سوف تبقيهم على الساحة... ومع حرب فلسطين ومع انكشاف الجيوش العربية والهزيمة النكراء تم التآمر للقضاء على كل الحركات التقدمية لصرف النظر عن الكارثة والهزيمة التي لم يصمتوا عنها، واسْتُخدمَ أيضًا اليمين الديني حينها... أشار الباشا إلى مصطفى قبل أن تتغير لهجته لتحمل مرارة واضحة وهو يقول

المصيبة الأكبر لما شباب زيه يشوف كل الهدم والانحطاط ده
وكل قيم الجمال بتروح ويحل علينا القبح والنذالة وكل الشيوخ
والحكام يقولوا إن ده أحسن مجتمع... بلمتك مش دي حاجة

الباشا نفسًا من السيجار يحمل لهيب غضبه بينما هجم تروي، الباشا، على القاعة يتبعه الخادم الذي وضع بعضًا من الكيك أمام ملعق وصب الشاي لكل من الباشا والهانم... داعب الباشا تروي وهو

المصريين تصحروا لدرجة إنهم نسيوا إزاي يبقوا بني آدمين محترمين... والبلد مبقتش دولة... بقت عزبة بيديرها ناظر... وكل اللي شاغل أهلها المطالب الدونية وما دامت ماشية محدش بيسأل الصح فين... وطول ما كل اللي يهمهم هو الستر ومحدش بيفكر في قيم الجمال والحضارة يبقى البلد لسه حتخرب أكتر ما هي خربانة... عايزين نقضي على النوع ده من البشر، بتغيير الثقافة يا هانم، زي ما قولتلك... عايزين أتاتورك مصري، أو إسماعيل باشا جديد

مشكلتك إنك فقدت الإيمان بالناس لدرجة إنك مش قادر تتصور إنهم ممكن يغيروا من واقعهم من غير المستبد المستنير اللي بتحلم به ليل نهار... أنا عن نفسي مؤمنة إن التغيير حيجي من الناس... جائز ياخد سنين... جائز يهلك أجيال... لكن حيحصل... ثم أنت ناسي أن الخديوي إسماعيل دَيّن مصر وجابلها الاحتلال يا باشا

احتقن وجه الباشا فشغل نفسه في مداعبة تروي حتى هدأ ثم قال

التغيير في بلدك بيجي من فوق... الناس بتقدس اللي في السلطة واللي في السلطة بيتمحك في المقدس علشان الناس تقدسه... وتاريخنا مفيهوش غير طغاة إدوا الناس بالجزمة فمشيوا كويس... علشان كده إحنا عايزين أتاتورك مصري

صمت ثم أشار إلى صورة الخديوي إسماعيل وأضاف في ء

أو إسماعيل باشا جديد

تابع مصطفى النظر إلى صور أسلاف الباشا وأقاربه التي تراص
الجدران فيما يشبه شجرة العائلة بجوار صورة الخديوي... علم مد ماء
خلال فترة عمله بالعزبة أن الكثير منهم تبعثروا خارج مصر منذ الا.
التي يصر الباشا على تسميتها بالانقلاب.

ازاي بتقول كده... إحنا عندنا تاريخ يكفي العالم كله...
نبت أقدم حضارات وعلمنا الناس الفنون والأدب ومر على ،
كل الغزاة من أول سارجون والإسكندر وقيصر لحد الإنجلي .
بلادنا عدت عليها الرسالات السماوية التلاتة...

هكذا قالت نادية هانم في شيء من الحدة

دي حضارة المكان مش الناس اللي فيه... أي مكان يبقى فيه النا
كان حيبقى مركز حضاري... المصريين حظهم إنهم موجودين
في المكان ده... لو رعاع كانوا فيه كانوا حيبقوا أحسن منهم..
ومتقلقيش، كل التاريخ ده بيموتوه بإيديهم... بيقضوا على كل ده
بخسة لا تضاهى وغباء ملوش حد

انت ليه بتكلم كأنك مش مصري

أشاح الباشا بيده في استخفاف فاستطردت نادية هانم

متغالطش نفسك، دي حضارة الناس... النيل بيعدي على دول
المنبع والحوض والمصب... لكن مفيش غير مصر واحدة،

مفيش غير حضارة فرعونية واحدة... بلدنا كانت منورة الدنيا كلها بناسها وعقولها

قال الباشا بعناد

ده مايمنعش إن التغيير في مصر بيتفرض على الناس... عمرك شوفتي شعب غير دينه ولغته ٣ مرات في أقل من ألفين سنة

ثم تعلق نادية هانم فتابع الباشا وقد بدا من نبرته أن تحمس لكسب الجولة من الجدل.

أقولك الناس أد إيه سلبية... آخر مرة كان المصري بيحكم بلده بنفسه كان أيام الفراعنة، من ساعتها وانتِ محتلة واللي بيشيل الاحتلال احتلال تاني بياخد مكانه، الفرس خرجهم الإغريق، وبعدين شالهم الرومان، وبعدين جه العرب وبعدين جه العثمانيين وبعدين شالهم الفرنساويين وشال الفرنساويين الإنجليز

ثم قال الباشا عابثًا وهو يشير إلى مصطفى

وبعدين طب عليهم احتلال الإمام

خفق قلب مصطفى بعنف فيما أكمل الباشا

المثاليات متنفعش مع مجتمع واصل للقاع... جائز تنفع مع مجتمع عدل إنه يبقى أحسن... لكن المجتمع المهترئ يلزمه واقعية بحتة... إحنا مش محتاجين تغيير يا هانم... إحنا محتاجين القضاء على المصريين علشان ننقذ مصر منهم... كوليرا جديدة تخلص البلد من الدود اللي ملا بطنها

التفت الباشا إلى مصطفى الذي ظل صامتًا منذ دخوله

وعقبال ما ده يحصل لازم نحافظ على الثقافة والنضافة الفا،ا،
للبلد لحد ما أهلها يفوقوا أو يتغيروا... الحاجة الجميلة اللي م
بلدكم حتضيع يا مصطفى... الهانم طلعت قرار من هيئة الآثار ،ا،
الباب والمقام مكان يتبع الوزارة وده يخليه تحت حماية الدولة
وفي نفس الوقت حاولت أنا أخلي الشرطة تدخل بس المأم
ميتحركش... واضح إنه بيتجنب أي خلاف مع الإمام بتاعكم
أنا عايزك تساعدني أحافظ على الباب

أساعد حضرتك إزاي يا باشا

تبادل الباشا ونادية هانم نظرة ذات مغزى قبل أن يستطرد

انت عارف بلدكم النهارده كام واحد؟

بدت الدهشة على وجه مصطفى من السؤال المباغت قبل أن يقول

حوالي ...

أيام الخديوي كانوا كام ٧٠٠ نفر... عايشين في خضرة وزرع
بيوتهم القليلة بيدخلها الهوا والنور وعيونهم على مدى ما تجيب
زرع أخضر من أول الباب لحد المقابر اللي كانت بره البلد،
النهارده الناس عايشة جوه المقابر، زي الأموات... ده حتى
الميت له كرامة... فالحين يخلفوا عيال ويقولك بيجوا برزقهم...
أهم كلوا رزقهم ورزق أخواتهم وقاعدين جعانين لحد ما حيكلوا
بعضهم... مصر بقت أربعين مليون يا مصطفى

قالت نادية هانم

تخيل إنك ميت من الجوع في داركم مع أمك واخواتك وقدامكم
أكل انت عارف إنه يكفي خمسة... ح تاكل لحد ما تشبع ويمكن

لما تشبعوا توزع الباقي على الغلابة

اوما مصطفى برأسه وهو لا يدري إلى أين ستفضي تلك المقدمات

أما لو كتم عشرة والأكل يكفي خمسة كل واحد ح يركز في أكله ومحدش ح يبات شبعان

الباشا

ولو كنتم مية؟... حتموتوا بعض يا مصطفى... وده اللي حيحصل قريب... ضيف على ده الجهل، مش بس حتموتوا بعض، حتموتوا القيم والحضارة معاكم... حيبقى مجتمع كله حقد مبيقدسش غير القوة... وده مكان مينفعش يبقى فيه حاجة جميلة زي الباب

عايزين تنقلوه؟

هكذا قال مصطفى بدهشة ما لبثت أن تحولت إلى استنكار عندما قال الباشا

عايزين نشتريه ونحافظ عليه

تشتروه إزاي... ومن مين

نشتريه من أهل البلد... نحط مبلغ كبير تحت تصرفكم توزعوه عليكم زي ما انتم عايزين... الجعان ياكل والعريان يلبس

وحتودوه فين

حنحافظ عليه... الباب محتاج اللي يقدره

لماذا يهتم هؤلاء المنعمون بالحجر أكثر من البشر... يقولون أن أبناء القرية سيأكلون بعضهم البعض وكل ما يشغلهم هو إنقاذ الباب... إلى هذا المدى يعتبروننا حشرات... وهم في مهمة لإنقاذ الثقافة من أيدينا

القذرة... هكذا تصاعد الحنق داخل نفس مصطفى وأحس أنه يرغب في المغادرة

الباب اللي عايزين تشتروه ده حتة من البلد... حتة منا

حتة منكم تقوموا ترموا زبالة قدامه... انت عارف إن في ناس عايزين يحرقوه... مش قالوا عليه كفر

أيوه لكن ده كلام... محدش يقدر يقرب للباب

جايز يكون النهارده كلام... احسبها كويس يا مصطفى... انت قدامك اختيار من اتنين... يا تحاول تقنع الناس إنهم يبيعوا الباب ساعتها تبقى حافظت على الباب وهم استفادوا... أو تسيبه للهمج يولعوا فيه... ويبقى دمرت الباب والناس مكسوش غير الدخان

حتى لو اتكلمت... محدش يقدر يبيع حاجة من المقام... الناس تخاف يا هانم

اخترقت ضحكة الباشا الصاخبة أذنه

انت فاكر الحجازي ده والي بجد ولا إيه

استطرد الباشا عندما لم يبد أن مصطفى قد فهم مراده

الحجازي كان حرامي آثار... العيال ولاد الكلب في العزبة كانوا يحفروا يطلعوا آثار، في الأول مكنوش فاهمين فيها وكانوا بيخافوا من التماثيل اللي بيلاقوها، فاكرينها شياطين وعفاريت مسخوطة... لحد ما فهموا وبقوا يبيعوا الآثار للأجانب اللي يهربوها برا... الحجازي بقى كان متخصص يسرق منهم الآثار دي على الجاهز بعد ما يطلعوها، والباب ده سرقة من سرقاته،

متفهمش عجبه ولا حب يخوف أهل البلد بيه علشان محدش يقرب لبيته بإنه يطلع أساطير حوالين إنه موصول بأعمال وسحر وكلام من ده... وطبعًا الناس صدقت الأساطير وكبرتها يوم بعد يوم وجيل بعد جيل وحطوا شوية تحابيش من الدين عليها من الكرامات والمعجزات لحد ما الراجل مات وفضلت الناس تعبد أساطيره... لكن هو في الحقيقة حرامي

توترت جميع عضلات جسد مصطفى وشعر بجفاف حلقه... لا يدري لم تذكر عبارة آدم الساري أن الباشا ماهو إلا إقطاعي لا يشعر بمن دونه، أو لعله لا يراهم من الأساس... والآن يسخر من معتقداتهم ويشكك فيها... بل ينسفها نسفًا... لابد أنها إحدى ألاعيبه لينزع القدسية عن الباب الذي يريد أن يشتريه كبضاعة رخيصة يرمي ثمنها للمساكين... لابد أنه سيزين به مدخل غرفة نومه في السراي الكبيرة... تصارعت أفكاره فأخذ يغمغم

إيه الكلام ده يا باشا... ... محدش..

الكلام ده محدش بيقوله علشان اللي عارفينه أجبن من أنهم يتكلموا... خايفين من رد فعل الناس لما تهز حاجة هم مؤمنين بيها... لكن الفلاحين في بلدكم عارفينه وساكتين... والفلاحين في عزبة كامل اللي سرق الحجازي منهم الباب عارفين أصله... حتى لحد النهارده العيال كل فترة بيحاولوا يرجعوا الباب ومش عارفين

## (٥)

استلقى مصطفى الرفاعي وآدم الساري على الحصيرة المفرو..
بسطح منزل عم الأخير، بعد أن قص عليه ما سمعه من الباشا... ظل ينام
بنصف انتباه، أسراب الحمام المحمول على نسائم المغرب... عائدًا ..
رحلة البحث عن الرزق الطويلة إلى عشه بعد أن أوشك الضوء ..
الانحسار أمام هجوم الظلام... سقطت روح مصطفى صريعة رواية البا..
عن أصل الحجازي... لا يفارق عينيه مشهد الأوبرا المتفحمة والدخا..
المتصاعد منها كلما تذكر التهديدات التي تطال الباب بحرقه...
يشله التفكير فيما يجب فعله حتى أصبح التقاط أنفاسه عملًا مضنيًا.

إقطاعيين ولاد وسخة... لو طالوا يقلعوك جلبيتك مش حيتأخروا

هكذا كرر آدم واسترسل في سب الباشا الذي لم يذق طعم الجوع..
لم يبت ليلته يحلم بما يسد رمقه ومع ذلك يستنكر على الناس مطالبهم
"الدونية"

عارف بكره فيه إيه... مش يمكن الإقطاعي ده يكون الوحيد اللي يقدر يحافظ على الباب

قال مصطفى فانتصب آدم وحدجه بنظرة غاضبة

الحال قطران... وحيفضل قطران طول ما الناس مسلمة روحها امرها بتحكم فيها... إمبارح سيد خطاب والنهارده الإمام وبكره الإقطاعي اللي عايز يشتري ويبيع فينا... النهاردة قطران وبكره مره ما حيكون شهد طول ما انت فاكر إن الباشا بتاعك هو الوحيد اللي يقدر يحافظ على الباب... انت بقيت ضعيف لدرجة نفرف

سب مصطفى بدوره وقد انعقد حاجباه

أنا كل اللي باخده منك كلام... عيش معانا على الأرض شوية... قلي فين المصلحة... الناس هنا راضية بدور البهايم في الساقية، حاكمين الغمامة على عينهم ورفضين يشوفوا إنهم بيتحركوا في دايرة مرسومة لهم... بقولك الحجازي نفسه ممكن يكون حرامي والباب اللي انت عامله قضية ممكن يبقى ولا حاجة

وممكن يبقى كل حاجة... الحاجة بتكتسب أهميتها من إيمان الناس بقيمتها... متحولش تضحك على نفسك... وبلاش خوفك يخليك تستسهل تقول إن الباب ملوش قيمة... الإمام وجرابيعه مش دايمين... انت لحقت تنسى اللي الناس عملوه في سيد خطاب... الظلم والقهر ميدومش في بلدنا مهما طال

المرة دي مختلفة... ده بيطلع يقول قال الله وقال الرسول... مين اللي حيعترض على كلام ربنا... الواحد قرف ونفسه في حياة تانية مش الحياة دي

اتكأ آدم على الحصيرة من جديد وعاود التطلع إلى السماء وهو يقول

البلد دي محتاجة جرعات مركزة من التصوف ومجالس السماع علشان تعيش في وسط القرف اللي نازل عليها ده

مين عارف بكرة حيبقى في جلسات سماع ولا لأ... يا أخي أنا بكره نفسي لما افتكر إني كنت يوم من الأيام في صف الغبي اللي عايز يقلب حال البلد علشان تمشي على مزاجه... إحنا بلد اتكتب عليها الهم، نخلص من سيد خطاب يجلنا هم جديد

شعر مصطفى أنه لا يقوى على مواجهة ما ينهال عليه من متاعب فاستسلم للهم، وازدادت رقعة القتامة العالقة بنفسه... لم يكن قادرًا على تحمل رؤية احتراق شيء يحبه من جديد... تمنى تلك اللحظة أن يخوض في الترعة كما اعتاد في طفولته فتنسلخ عنه همومه ويأخذها الماء إلى القاع فتغرق بلا عودة

أنا حكلم جدي الحاج محمد السناري... هو كبير البلد وهو اللي يشور علينا نعمل إيه

مع انحسار النور، تجمع الرجال أمام مندرة السناري حول الحاج محمد بعد أن فرغ مصطفى الرفاعي من رواية كل ما دار بينه وبين الباشا فيما عدا ما يخص أصل الحجازي

اللي قاله الباشا ده عيب في حق أهل البلد يا مصطفى يا ابني... إزاي نبيع قلب بلدنا... وربنا يرضى عننا بعدها إزاي

اندفع آدم يقول بحده

يابا الحاج الإمام بيطلع على المنبر يكفر كل اللي بيزور الباب... الخطبة اللي فاتت دي قال إن لازم نمنع المولد وننضف البلد من

الشرك... وقال في الشيخ عبد الكريم كلام ميتقلش

زم الحاج محمد شفتيه وبدا الأسى جليًا على وجهه

لا حول ولا قوة إلا بالله... أنا مبقتش أصلي في الجامع الكبير... بروح الزاوية اللي بيصلي فيها الشيخ عبد الكريم... مين يصدق الراجل بتاع ربنا يتشتم... ومن على منبر الجامع اللي اتبنى ببركة المقام والباب

قال مصطفى بلهجة حاسمة

لو مش حنفرط بجد في الباب يبقى لازم تروح تكلمه يابا الحاج وتوقفه عند حده

بالمشيئة

قام الحاج محمد الساري وترك الشباب يكملون سمرهم على المسطبة... سرعان ما تفتت فتيل اللمبة الجاز فجلسوا على ضوء نيران الحطب وقوالح الذرة التي سترسو منها قطع على الجوزة بعد قليل... صمت ثقيل خيم على الجلسة، يكاد مصطفى يرى الأسئلة تقفز من أعين الحاضرين

إزاي يبقي الباب تحت حماية الحكومة ويعرضوا علينا يشتروه

لم يمهل آدم مصطفى للإجابة وسارع بقوله

هم عملوا موضوع وزارة الآثار ده علشان لو حد منا قربله يتاخد... والقانون ميطبقش على الباشاوات اللي حطوه... القانون يجي على الجعان ميجيش على الشبعان

تداخلت الأقوال وتشابكت الآراء بينما أنهمك آدم في إعداد الجوزة

بس الباب مش آثار

يا ابني الباب أثري عشان السياح كانت بتصوره... فاكر أيام ما كان بيجي أجانب وعرب

هكذا قال أحد الجالسين

لا مش أثري... السياح بيصوروا أي حاجة... دي حركة عملها الباشا بسلامته علشان محدش يقرب للباب.

إحنا مولودين في البلد دي وعارفين طول عمرنا أن الباب أثري أمال... يا اخونا ده من زمن الفراعنة وموصل بأعمال سفلية طب خلي حد يقربله وشوف حيحصل فيه إيه

قال مصطفى متهكمًا

انت بتصدق الكلام ده برضو

السحر مذكور في القرآن يا مصطفى

صمت الجميع، في حين رفع رجل خمسيني قصير طرف جلبابه وأراح قدمه إلى طرف المصطبة وحسم الخلاف صوته الغاضب الذي علا قائلا

آثار ولا مش آثار إحنا محدش بيسأل فينا... إحنا خلاص بنعض في الأرض... لو حيخلصوا من الباب يبقى يتباع وينوبنا من تمنه حاجة... وكأن الآثار أهم من البني آدمين اللي حيدفنوا بالحيا

نظر الجميع إليه بدهشة واستنكار... فتنحنح رمضان زوج فاطنة العايقة، الذي أصبح أحد مريدي الإمام

مينفعش يتباع... لإنه حرام والفلوس اللي تيجي من بيعه حرام برضو

لم يلتفت أي من الجالسين لقوله في حين قال أحدهم

اليوت اللي بقى لها شهور مدخلهاش الزاد دي لو اتهدت على دماغنا مش هيزعلوا علينا، هيزعلوا على الباب عشان آثار... والله ليهم حق يقولوا على الحكومة كافرة... هو في كفر أكتر من إنك تسيب العالم تموت من الجوع... الفقر قرين الكفر

حكمة تطل من عينيه وصوت هادئ، قال آدم الساري بعد أن انتهى من إعداد الجوزة

إحنا لا محافظة بتسأل فينا ولا حكومة... مفيش غير الباب ده هو اللي كان بيسد حاجة الناس... انتو لحقتوا تنسوا وقف الباب والخير اللي كان بيدخل كل دار فيكي يا بلد من ورا الباب... لكن هو بوز الإخص ده من ساعة ما خرج من السجن ومعاه شوية العصبجية بتوعه والفقر خيم على البلد... واللي عايز يحط راسه في التراب وميشوفش الحقيقة هو حر... الباب بركة البلد... ولو سيتوا حاجة الأوليا حيكون مصيرنا سواد... يا اخونا إذا كان العيش في البيت يبقى المش شبرقة

انتفض رمضان في غضب ظاهر

انت بتبقى نايم علي ودنك في الخطب ولا إيه... ولا شكلك مبتركعهاش من أصله... الأوليا والكلام ده شرك بالله... وهم سبب الفقر اللي عشش في دور البلد... ده غضب من ربنا... وبعدين بوز الإخص ده هو اللي خلصكم من سيد خطاب

قلَّب رجل نحيل ضامر الوجه ذو شارب كث يعمل في الجمعية الزراعية الصغيره بالقرية شفتيه في استنكار

- فين أيامه سيد خطاب... نص البلد بتترحم على أيامه... وبعدين

زعلت أوي من آدم علشان قال على صاحبك بوز الإخص
طيب يا سيدي... ده حمار، وآدي ديله

ضج الحاضرون بالضحك فقام رمضان وهو يقول بحدة مضاعفة

متقولش نص البلد... كل اللي بيكرهوا الإمام هم رجالة سـ
خطاب اللي راحت عليهم... وانت فاهم قصدي كويس... وأنا
مقعودش في جلسة يتشتم فيها أهل العلم

ضحك الرجل وسخر من رمضان بعد أن اختفى

يروح يتشطر على مراته مدام عملنا تقي أوي كده

استمر الحديث المستعر، لا يدري لم رأى مصطفى كلام الباشا منعكسًا في حديث الجالسين المتناحر حول مصير الباب... سيأكل الناس بعضهم... هل كانت أيام سيد خطاب حقًّا أفضل مما هم فيه الآن... ظل بلا إجابة شافية حتى انتهى الحديث باحتضار النار التي أكلت الحطب وتركت القرية في دياجي الليل الذي ابتلعها.

مرت ليلتان منذ تلك الجلسة حتى ذهب الحاج محمد الساري مع وفد من أهله ضم آدم ومصطفى إلى دكان الإمام الذي كان في انتظاره منذ أن نقل له رمضان أحاديث المسطبة ونية الرجل في الحضور... كان الإمام في حلقة من جماعته ضمت سعيد الرفاعي... تعمد ألا يقطع حديثه، الذي ازدادت وتيرة حماسته وسط آهات الاستحسان من الشباب حوله... راح يُحدِّث الجمع بأن المسلمين قد جربوا التشبه بالغرب واستوردوا عاداتهم وتخلصوا من تقاليد الإسلام ووصموها بالرجعية، أسقطوا رموز الدين لتنبثق رموز جديدة تدعوا إلى العلمانية الغربية وتتشدق بالقومية العربية كهوية على حساب هويتنا الإسلامية على وعد بالتقدم والازدهار... وفرَّطنا في أخلاقنا فانتشر البغاء والسفاح وضاع الدين... أضعنا ديننا

حصل على دنيانا فخرناهما سويًا... لكن الفساد لم يكن مقصورًا على انحلال الغرب بل هناك فساد في العقيدة ابتُلينا به من الداخل... وآن الأوان العودة إلى النبع الصافي والتخلص من كل ما شاب الدين من بدع وضلال لتقوم الدولة الإسلامية من جديد

إنها الصحوة يا شباب

هكذا أنهى الإمام حديثه وقام إلى الحاج محمد الساري الذي انتحى به جانبًا

شوف يا ابني... انت عارف إنك فوق راسنا كلنا... بس اللي انت ماشي فيه ده ميرضيش ربنا... مينفعش نحارب أولياء الله الصالحين اللي بنتبرك بيهم

ده شرك مش حنسمح بيه

متخليش لسانك عدو قفاك... نقي كلامك وانت بتكلم جدك الحاج

هكذا صرخ فيه مصطفى الرفاعي فارتج الإمام، تكوم الغضب في باطنه ككتلة جمر تصهر أمعاءه، قبل أن ينظر سعيد شذرًا لأخيه ويقول

هووو... ... اللي ينقي... ككك... كلامه مع أهل العلم

اخرس انت يا سعيد... لو أبوك كان عايش كان زمانه اداك بالبلغة

احتقن وجه سعيد حتى كاد ينبثق دمًا وتمتم ببعض عبارات غير مفهومة

قال آدم الساري

الحاج محمد كبير البلد وكلامه حيمشي ع الكبير قبل الصغير

قفز أحد الشباب من جماعة الإمام إلى قدميه

كبيرك انت... إحنا كبراتنا أهل العلم

فصل بينهما الإمام الذي نظر إلى مصطفى وآدم شذرًا حتى قطع ال
محمد الصمت المشحون بقوله

يا ابني دي عوائد أهل البلد من جدود جدودك

يابا الحاج محمد... لو عوائد أهل البلد دي عمل من أعمال ال
يبقى لازم نمنعه... وتبقى انت أول واحد يساعدنا في منعه.
دي الأُصول يا حاج

قال الإمام الكلمة الأخيرة بحروف مضغوطة وابتسامة مصطنعة

المولد حيتم في معاده... واللي يحب يحضر أهلًا وسهلًا
واللي مش عاجبه يلزم بيته... هي دي الأُصول

أنهى الحاج محمد حديثه وانصرف في غضب... تاركًا الإمام يتص
عرقًا وقد تحول وجهه إلى جمرة متقدة وسط شباب الصحوة.

انت كده بتناصر المعصية يا عم الحاج

هكذا صاح أحد أنصار الإمام فلم يلتفت إليه أحد من الوفد الذ
مضى

ده صوفي من أهل الضلال والبدع

هكذا صاح آخر بينما قال ثالث في حذر

مش لازم نحط راسنا براس الحاج محمد السناري... ماين أمور ا
معاه

أخذ الإمام عدة أنفاس عميقة، حاول أن يجعلها منتظمة كي لا ينفض

'، أو يظهر الغضب الذي يقضم أحشاءه فيما عاود الشاب الغاضب

مش حيقوملنا قومة في البلد طول ما الرجل ده موجود... الناس مش حتسمع كلام ربنا ويرتجعوا عن الحرام لو حسوا إن في حد أكبر من الشريعة... ولسه لحد النهارده في ناس بتروح للشيخ عبد الكريم... ولو طاطيت للحاج محمد حيركبنا

،مماشى الإمام النظر في أعين مريديه... لكن ذلك زاد من تأجج ' اعر التي راحت تنتقل كالعدوى بينهم فيما أكمل الشاب

الحاج محمد والنسارية بقوا يقعدوا كتير مع رجالة سيد خطاب اللي طلع لهم حس بعد ما كانوا بيقولوا يا حيطة داريني

ام ينبس الإمام ببنت شفة ولم يتحدث كثيرًا منذ ذلك اليوم لكن النار ، تستعر تحت الرماد.

## (٦)

صباح المولد اتَّشحَت أم سعيد بالجلابية والطرحة السوداء وسبقت الرجال إلى التُرب، إلى جوارها سارت زينب تحمل فوق رأسها سبتًا عملاقًا، تداعب نسمات مخضلة برائحة الزرع جسدها الوارف، العجيب كيف جادت أرغفة الذرة التي لا تغني على زينب بجسد لين كالعجين الخمران. منذ الصباح لم تنطق أم سعيد بكلمة قبل إلقاء السلام على زوجها الراقد في قبره ووزعت الفطير والقرص والخبز على الفقراء والفقهاء الذين حضروا خصيصًا إلى المقابر في انتظار مجيء النسوة ذلك الصباح "بالرحمة" تتمتم "رحمة على روح علي ابن زبيدة" مع كل قرص توزعه على الفقهاء الذين راحوا يقرأون الذكر الحكيم بصوت جهوري متمرس. وضعت زينب جريدة خضراء أمام التربة وسقت الصبار، بينما انتشرت النسوة في الترب، يفوح من ثيابهن عبق دخان الفرن البلدي الذي قضين ليلتهم أمامه في خبيز "الرحمة".

في طريق العودة، كانت الشوارع قد كُنِسَت ورُشَّت بالماء، الرجال يلبسون بكسوة جديدة عِوضًا عن الجلاليب التي أبلاها عرق الكدح بين الطين والتراب، يرحبون بالمريدين الذين توافدوا من القرىٰ المجاورة طالبين المدد من سيدي الحجازي في مولده، بينما يهرول الأطفال في حارات القرية حاملين رايات المولد الخضراء... مرت أم سعيد بفاطنة وقد انحنت، تعتصر ضرع الجاموسة داخل الزريبة التي تعمدت ترك بابها مفتوحًا، بينما برز ردفاها من الجلباب

ستتك لبن يا أم سعيد

بعودة الأيام يا فاطنة

ما أن مرت أم سعيد حتىٰ قالت لزينب

شوف الولية... طيزها حتغطي قرص الشمس... تقوليش أردبين قمح

ضحكت زينب بصفاء، وسارت أمها تقص عليها حكاية فاطنة عندما أمسكها الحاج محمد الساري وأحد الشباب يعبث بها... قاطع استرسالها نعيق غراب، فتجهم وجه أم سعيد وتكدر مزاجها

اللهم اجعله خير... ينعق بالخراب

شرعت أم سعيد فور دخولها الدار في قراءة آيه الكرسي بينما سبابتها مرتفعة، تدور بها في حركة دائرية لتشير إلىٰ حدود الدار، طلبًا لحمايتها من الشرور ثم بخرت كل الأركان.

كان المولد تلك الليلة غريبًا، لم يكن احتفاليًا كعادته، علت الوجوه كآبة مسيطرة لم تنجح مواويل الربابة في دفعها. كما أن الوجوه التي كانت تحضر المولد تغيرت، ودُفع البعض إلىٰ عدم الحضور. وزاد من الهم

غياب المنشد توفيق العروسي لأول مرة عن مولد سيدي الحجازي.

لم يذهب مصطفى إلى المولد وعزف عن حضور الإنشاد وحلقات الذكر واكتفى بالتسكع على المسطبة مع آدم حتى انقضى المولد وعاد إلى داره... ما أن دفع باب الدار الغارقة في الظلمة حتى فوجئ بلطمة على وجهه بددت صمت الدار ودفعته تجاه الزير الذي احتضنه وهوى به أرضًا. دوى صوت تحطم الزير في أذني مصطفى وضاعف من الآلام التي انتشرت في جسده... قفز عليه ذلك الظل الذي لطمه وجثم فوق صدره يستعد لتوجيه ضربته التالية، حاول بكل ما يملك من قوة مقاومته، قام بدفعه غريزيًّا، إلا أن وزنه حال دون ذلك ومنعه من تحاشي اللكمة التي استقرت في صدغه دافعة جرعات جديدة من الألم إلى وجهه وبعث مذاق الدم في فمه.

أضاء الساحة نور مصباح الكيروسين الذي حملته زينب وأمه الآتيين عدوًا من الغرفة الداخلية... ارتعدت عضلات وجهه وتشنجت تقاسيمه عندما تبين سعيد فوقه يلهث... يلتقطه من تلافيف جلبابه ويهم بضربه بقبضته من جديد، فارتمت زينب بجسدها تحول بينهما بينما ارتفع عويل أم سعيد فتوافد الجيران على الدار، يحولون بين الأخوة وهم يمصمصون الشفاه في تعجب وحيرة على ما يحصل في دار علي الرفاعي التي لم يُسمع لها حسٌّ من قبل

الناس سرها في صندوق إلا احنا سرنا في السوق

هكذا جلست أم سعيد في ركن الدار تولول وتنعي حظها، بينما راح الرجال الذين فصلوا بين الأخوين يحاولون تبين سبب الخلاف... أخذ مصطفى يمسح أطراف الدم الذي سال من خدوش عدة بجوار عينه بينما سعيد لايزال يلهث من فرط التوتر قبل أن يستجمع قوته ليقول صارخًا في مصطفى ليصله صوته فوق صوت حديث الرجال

... ارتحت لما ننتن... نصبوا صصصوان الكفر

نظر إليه مصطفى وقد قارب أن يجن جنونه ثم صرخ فيه

أنت عبيط ياله؟

يا ابن الكلب

سكنت جميع الأصوات في اللحظة التي خرجت آخر حروف تلك الكلمة من فم سعيد... وكأنما توقف الزمان... ليرتفع صوت أمه صارخًا فيه

إطلع بره داري... لا انت ابني ولا أعرفك

نظر سعيد إلى عينيها الجامدة... وقف لحظات يستوعب ما سمعه من أمه، تسلطت خلالها كل الأنظار عليه، ثم خرج يتحاشى نظرات الناس إلى أن ابتلعته الظلمة فعادت الأصوات تقطع السكون وعادت أم سعيد تنتحب

فينك يا علي تشوف ولادك

ربتت فاطنة عليها قائلة

دي عين وصابتكم يا أم سعيد... دي عين وصابت البلد كلها... شيطان دخل ما بينا... حتى المنيل رمضان عامل فيها شيخ ويقولي مادري إيه وأبصر إيه

بعد أن انفض مولد الحجازي في الخارج، انفض مولد الفضائح في دار علي الرفاعي وعاد كل حي إلى داره، تاركًا الصمت يغلف الدار، انسحب الطفلان إلى السرير الذي كان يضم سعيد إلى جوارهما... بينما بقي مصطفى يراقب أمه التي ظلت تنتحب في صمت.

ليه كده يامه

الكلب بيشتم أبوه، مش مراعي عضم التربة

صمتت قليلًا ثم أردفت كمن يحدث نفسه

الشجرة اللي ما تضلل على أهلها يحل قطعها

قبل الفجر، ومع فجور الصقيع، قادته قدمان ثقيلتان إلى مسجد ميت الشوكة... ارتمى سعيد على عتبة المسجد، يقتله إدراكه أنه أصبح طريدًا بلا أهل ولا مأوى. كانت فورة الغضب قد تبددت وحلت لعنة الندم، تعصف زعابيب أمشير داخل صدره المكتوم، والندم خليل الذكريات... لم يره أحد طبيعيًّا منذ وُلِد... حتى أمه... لازال يتذكر عندما قادته خفية مع زوج من البط في أعقاب صلاة الجمعة إلى قرية ميت الشوكة... عقدت جلبابه من الخلف وقبلته قائلة "دي تحميك" قبل أن تضعه فوق الحمارة... كان بعد طفلًا، لكنه يتذكر البط الذي راح يصرخ طوال الطريق حتى دار الكودية، التي سبق أن استقبلت "أثره"... قالت له أمه أن الكودية نامت على طاقيته الصغيرة ليلتان لتتعرف في المنام على الأسياد الذين يلبسونه حتى تستطيع طردهم من جسده.

عندما دخل إلى دقة الزار شاهد امرأتين في وسط الدائرة ترقصان بحركات هسترية... تتحرك أجسادهن بعنف... طمأنته أمه حينها بقولها أن الأسياد دائمًا ما يكونوا في حالة غضب في بداية الزار، لكنهم لا يلبثون أن يهدأوا... لم يطمئن سعيد إلى أن أغشي على الفتاتين وحينها فرغت له الكودية بعد أن قالت أن الأسياد رحلوا عن المرأتين وحان دوره... جاءته... أجلسته فوق كرسي ونحرت البطة التي ظلت تصرخ طوال الطريق إلى جواره، فوجئ بها تلطخ ثوبه بدمها فراح يصرخ بهستيريا... كأنما لبسته روح البطة... كانت الكودية التي تقود الزار تخاطب قرينه

وأخته وأخوه اللذين تحت الأرض... إلى أن هدأت نفسه فراحت الكودية تقول أن جنية حبشية كانت تلبسه... وأنها قد رحلت عنه الآن فاستبشرت أمه خيرًا وقالت لها

يعني حيبقى طبيعي

أومأت الكودية في ثقة.

سأل سعيد في طريق عودته إلى باب الحجازي عن معنى القرين فقالت له أمه أن القرين هو توأمه المتطابق... يولد بمولد صاحبه، يرافقه أينما ذهب حتى يموت... وهو أبدًا على شاكلة صاحبة في كل شيء، طويل إن كان طويلًا، سمين إن كان سمينًا، أحول إن كان أحول... يسير معه في حياته يرى ويشعر ويمر بما يمر به صاحبه من تجارب... لا يتركه كظله... تمنى سعيد في تلك اللحظة أن يكون لقرينه بيت يأويه... لكن أكثر ما كان يتمناه في وحدته لم يكن البيت... تمنى أن تكون توأمته، زينب... الشخص الوحيد الذي لم يعامله يومًا على أنه غريب أو ممسوس، لاتزال تفهم ما دفعه إلى تأديب مصطفى.

بعد صلاة الفجر، وبعد أن ذهبت دهشة الشيخ محمود قطب لرؤية سعيد بعد أن قص عليه ما حدث، قال له الشيخ مواسيًا

اذا كان أهلك لا يقدرونك حق قدرك، فنحن نراك لما انت عليه، لما في نفسك من عظيم العزم والصبر والطهر. انت بيننا كبير لإيمانك... كبير بذاتك ولذاتك

## (٧)

بحلول الخريف، تساقطت أوراق الأشجار، في بداية استعداد لتغير حلتها القديمة بأخرى جديدة، لكن القدر كان يحيك حلته الخاصة لباب الحجازي... نسيجها الغضب الذي ملأ صوت الشيخ محمود قطب من فرط الانفعال وهو يحمد الله في بداية خطبة تلك الجمعة... جاهد الرجل للسيطرة على انفعاله حتى كاد ينبثق من وجهه الدم... قبض على المنبر بعنف كي يمنع ارتعاش يديه... لم ير سعيد الرفاعي الشيخ غاضبًا مثلما رآه ذلك اليوم... لم يكن بجديد على الشيخ محمود هجاء السادات... لكن الخطبة اليوم تعدت الهجاء... بل تعدت السادات شخصيًّا، الذي وصفه بعبد أمريكا بعد أن ترك عبادة الله، لتطال النظام والدولة التي عاهدت ووالت اليهود... استرسل فيها بكلمات تقطر غضبًا عن اتفاقية كامب ديفيد التي وقعها السادات عميل الصهاينة منذ أيام مع الكيان اليهودي المغتصب لفلسطين، أرض الإسراء والمعراج... أولى

...ـلين وثالث الحرمين... انفعل الشيخ حتى أشفق سعيد عليه... لكنه ... خطبته حتى كفَّر النظام الخائن لله ورسوله والمؤمنين وأعلن فساده ... التعامل معه... وأعلنها حربًا صريحة على جهالة البداوة وجهالة ...ـدانة وجهالة السلطة.

التوت أحشاء سعيد من هول غضب الشيخ في تلك الخطبة... وما ... أن نقل ذلك الغضب وتلك الأفكار كالعدوى إلى باب الحجازي في ...عطبته التالية التي ألقاها الإمام في جامع الحجازي... حتى تكاد تسمع ...حشرجة أنفاس القرية المتسارعة... كان لابد من متنفس لذلك الغضب الذي عم النفوس... فوجهه الإمام وجماعته نحو الدولة الفاسدة مما زاد من عزوف أهل باب الحجازي عن الذهاب إلى المركز الذي لم تخطه قدم في عهد سيد خطاب... ومنذ رحيله ظل هناك فراغ كان الإمام سعيدًا باحتلاله أخيرًا وإحكام السيطرة عليه.

ظلت الأحداث في تسارعها المحموم في القريتين إلى أن أتى ذلك الصباح الذي أمل الجميع أن يهدئ من الجنون المسيطر... جرت الاستعدادات على قدم وساق في مسجد ميت الشوكة وجامع الحجازي لاستقبال حدث عظيم، قرن هجري كامل قد انقضى وأهلَّ قرن جديد... تمنوا أن يحل بكرم الله ويسطع نور الدين من جديد بعد أن خبت جذوته بتفريط العباد. كان سعيد في مسجد ميت الشوكة يستمتع بدروس الشيخ محمود قطب وصحبة إخوان المسجد الذين عوضوه عن أهله... جلس بين صفوف مرتلي القرآن يقرأ معهم فيما تحلق البعض في جلسات العلم يراجعون بعض المسائل الفقهية استعدادًا لطرح ما يُختلف عليه على الشيخ محمود قطب.

لكن الأجواء الإيمانية لم تلبث أن شابها بعض التوتر وبحلول الظهيرة توقف الترتيل تمامًا... في البداية كان الأمر همسًا لم يتبين سعيد

محتواه... لكنه كان همسًا محمومًا مليئًا بالغضب... صرح الشيخ محمود بعد صلاة العصر بما سمعه عن احتلال بيت الله الحرام فهوى قلب سعيد الرفاعي بين قدميه وأحس بجزء من روحه ينزع منه... مرت أيام انتشر فيها الحديث أن الأمريكيين هم من احتلوا المسجد الحرام بمكة... غلا الدم في عروق سعيد وعم الغضب أنحاء ميت الشوكة وخرج الأهالي إلى الشوارع لا يدرون ماذا يفعلون وخرج معهم سعيد والأخوة يهز صوتهم طرقات ميت الشوكة... البعض يحمل الفؤوس والعصي في تحفز كأنما ينتظرون أن يروا أمريكيًا على رأس الشارع ليقتلوه انتقامًا لما حدث... الحناجر تشقق والعيال تجري فزعًا تحت أقدام الأخوة الغاضبين... لم يعد هناك ما يستوجب السكوت.

تحولت دروس الشيخ محمود إلى وصلات سب في الحكومة الخانعة المنصاعة كعبد ذليل لأمريكا حتى بعد انتهاك العرض والشرف والدين... الأنجاس يدنسون بيت الله الحرام بمكة بينما السادات يهادنهم في أمريكا... توالت أخبار إحراق مبنى السفارة الأمريكية في العاصمة الليبية... ثم السفارة الأمريكية في باكستان... ثم احتجاز رهائن في إيران وردود فعل غاضبة في أنحاء العالم الإسلامي... بدا أن المارد الإسلامي ينهض، توحده الفاجعة... النصر قريب ولابد للشيطان الأمريكي من خضوع... امتلأت النفوس بالأمل وظن سعيد أن فجر الصحوة على وشك البزوغ... ثم توقف كل ذلك فجأة... بلا مقدمات... ذهب الحماس وعاد الهمس البغيض من جديد.

جاهد سعيد حتى تبين ما يقال... لم يكن الأمريكيون هم من احتل المسجد الحرام... بل احتله أخوان لنا في الدين... هكذا سمع سعيد... بُهت عندما تحدث الأخوة عن خروج المهدي المنتظر واعتصامه في المسجد الحرام وطلبه البيعة من المصلين بعد أن أخرج السلاح من

،موش أدخلت للصلاة عليها في المسجد، لكنها كانت معبأة بالذخيرة... ١،١، الأمر كضرب من الخيال أو قصة سيئة الإخراج... رفض سعيد ،صديق الأمر برمته... رفض تصديق الأجواء الاحتفالية التي عمت المسجد والقرية... ألم يكن الجميع منذ أيام يسب ويلعن فيمن احتل ،يت الله الحرام ودنس حرمته... لم يفلح الانسحاب إلى عالمه الخاص الذي جعله من اللونين الأبيض والأسود... لم يفلح الانسحاب بعد أن سيطرت على المشهد تلك الرقعة الرمادية القميئة من عدم الفهم... من التباس الحق بالباطل، المشهد ضبابي ولا يستطيع تفسيره، مهد الإسلام ، جوهرة التاج وبيت الله محتل! ومن مسلمين يدعي أحدهم أنه المهدي المنتظر!

لكنه لم يستطع تكذيب أذنيه عندما سمع الخطبة التي ألقاها الرجل ،بر مآذن الحرم وملأها بصراخ يصعب معه تبين ما يقول، والتي بثتها الإذاعات العربية والعالمية التي تَنَقَّل بينها ليتابع الأخبار بلا انقطاع... ،خيل صداها يتردد بين جبال مكة وشعابها حيث خطا النبي الكريم ،صحابته... يدنس جلال أطهر بقاع الأرض بصراخه الوقح... انهمرت ،موعه بلا تحكم كاعتذار عاجز عما يحدث في بيت الله الحرام... سمع ،عوات الرجل تخترق أثير الإذاعة إلى أهل مكة والقوات التي تحاصر الحرم للتوبة ومبايعة المهدي... لم يعد هناك مجال للإنكار... غرق في بحور الحيرة والشك وعاد إلى التلعثم مع تدافع الأفكار كالصواريخ الموجهة إلى لسانه، كيف يطلب من يحتل بيت الله إقامة شرع الله!

إلى أن انتهى الكابوس بعد انقضاء أسبوعين مخلفًا وراءه مئات القتلى ومئات الجرحى في ساحة الحرم وشتات كيان سعيد الذي تمزق ،م تلك الفاجعة التي هزت العالم الإسلامي برمته... لم يشاطر الأخوة

حزنهم المكتوم عندما علموا بإعدام المتبقين من رجال المهدي بعد أن قسموا إلى أربع مجموعات في ساحات أربع مدن رئيسية في أطراف بلاد الحجاز.

عندما اختلى سعيد بالشيخ محمود بعد صلاة العشاء تلك الليلة ألقى بهمومه على عتبة حكمته... يرجو إجابة شافية تعيد إليه يقينه وتذهب عنه حيرته التي شلت لسانه... أخبره الشيخ بهدوء أنهم يعيشون عصر الجاهلية المعاصرة... وسط حكام كفرة فرَّطوا في الدين حتى شابته البدع وضل العباد واضطر المجاهدون إلى طرق أبواب الحلول الجذرية وإن بدت متطرفة وعصية الفهم بعد أن عنت الحلول التقليدية عن الإتيان بثمارها... والغاية في النهاية هي إعلاء شرع الله من جديد.

طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بالسيف يا سعيد

هكذا قال الشيخ بحسم فجاهد سعيد لإخراج الحروف أسيرة لسانه ليقول أن هؤلاء المجاهدين قَتلوا الحُجَّاج وسفكوا الدماء في أطهر بقاع الأرض قبل أن يُقتَلوا في النهاية بلا نصر من الله وبلا جدوى من موتهم... فقال له الشيخ أن هؤلاء الحجاج يُبعثون على نواياهم وأنه لابد للحرب من ضحايا... صعقته تلك الإجابة التي تحمل في طياتها قسوة بلا حدود... لاحظ الشيخ ذلك التردد البادي على وجه سعيد وعينيه اللتين بدأتا تزوغان فأمسك بكتفيه ونظر مباشرة في عينيه

إن كان المجاهدون قد استشهدوا فإن الفكرة لم تمت يا سعيد... نحن لها... الإجماع عند أهل العلم هو أن الطائفة الممتنعة عن بعض الواجبات الإسلامية الظاهرة وجب قتالهم وإن تكلموا بالشهادتين... يقول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٥ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ[1]... فما بالك بمن أحل الربا وأجاز الخمر وحرم الجهاد وفرط في الجزية... يا سعيد هؤلاء باغون... اعتدوا علينا بتعطيل الحدود وإهمال شرع الله

هكذا قال الشيخ في هدوء متعمد... لكن رده كان شديد اللهجة عندما ا... ن سعيد نفوره من العنف وسفك الدماء وتفضيله الدعوة بالحسنى .. ا فعل في قريته حتى امتنع الناس عن بيع لحمهم... أخذ سعيد في ... ر نعاش وهو يستمع للشيخ الذي تحول حديثه إلى صراخ

هل ستقيم المنابر الدولة الإسلامية يا سعيد... لا تكن ساذجًا... تلك منابر خاضعة للدولة بالأساس وإن تجاوزنا خطوطهم التي رسموها أغلقوها واعتقلونا... يقول رسول الله: من لم يغز أو تحدثه نفسه بالغزو مات ميته الجاهلية... كيف تنجح الدعوة وكل منابر الإعلام تحت أيدي الفسقة الكفرة، أنت تدعو عشرة وهم يدعون الملايين... فلا تنشغل عن الجهاد بالدعوة... أم تريد تعطيل ونسخ فريضتي الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... استقم يا سعيد

توقف الشيخ لالتقاط أنفاسه والسيطرة على انفعاله مع الارتباك البادي ،ان سعيد

الإسلام صالح للتطبيق في كل زمان ومكان... وصالح لتسيير حياة الجميع... من المسلم صحيح العقيدة إلى الفاسق والكافر... وإن تعايش القوم مع أحكام الكفر فما بالك بأحكام الإسلام التي بها من الخير والعدل ما يكفي أهل الأرض والسماء ويفيض... كل

---

[1] رة البقرة ـ الآية ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

ما هنالك أن الفطرة السليمة قد فسدت واستمرأ القوم المعص
حتى لم يعودوا يعرفون مصلحتهم ووجب علينا تقويمهم ليعودوا
إلى فطرتهم السليمة... كيف يخرج شباب طيب في هذا الج
الذي أفسدته وسائل الإعلام بما فيها من فحش القول وانحراف
العقيدة... لذا وجب الاستحواذ على تلك الوسائل... وإذا تم لنا
التمكين من تلك المنابر تحقق النصر... الناس كالأواني الفارغة
تنتظر ما يملؤها ومن ثم يملكها ويحركها

تكرر سماع سعيد لتلك الكلمات خلال الأسابيع التالية... ثم تحولت كلمات الشيخ محمود قطب من مجرد خطب إلى واقع ملموس بفضل سواعد وألسنة أتباعه الذين راحوا ينشرون الفكرة في القرية، واشتدت شوكتهم بانضمام المزيد من الشباب إلى لواء الشيخ الذي أخذ منهم البيعة على المنشط والمكره... يكرر على مسامعهم الحديث الشريف

مَن أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْإِمَامَ فَقَدْ أَطَاعَنِي...
عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَىٰ الْإِمَامَ فَقَدْ عَصَانِي

ابتلع سعيد الرفاعي نفوره المتزايد وسار في الركب كي لا يخالف الجماعة... لكن بداخله شيء لم يعد كما كان... يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى في بناء رؤية الشيخ محمود للمجتمع الفاضل.

بحلول الشتاء كان هناك واقع جديد في باب الحجازي يماثل ميت الشوكة... في البداية اقتصر الإمام على تغير شيخ الكُتَّاب بشيخ جديد من ميت الشوكة ليعلم الأطفال صحيح الدين... ثم ظهرت دار بسيطة البناء، بداخلها لافتة صغيرة كتبت بخط متعرج تعلن أنها مقر "اللجنة الشرعية بباب الحجازي". يجلس بين جدرانها التي يغطيها اللون الأصفر قاضٍ شرعي للبت في أمور أهل القرية... حرص الإمام بإيعاز من سعيد الرفاعي أن يكون القاضي من ميت الشوكة، وهو رجل خمسيني

..ر رشحه الشيخ محمود قطب بنفسه، ليكون ملمًّا بالفقه الإسلامي
ي المسائل التي يحكم فيها... هناك يستمع ذلك القاضي لشهادات
ط في النزاع وللشهود، يدله مساعدوه من باب الحجازي على من عُرف
هم بشرب الحشيش، أو اشتهر بالسمعة البطالة، ليستثني شهادتهم...
، شيرون عليه ليستمع لمن عرف عنه التزامه الديني... كان الرجل
ـ مض شهادة من لا يقيم الصلاة ولا يقبل شهادة النصراني إذا كان طرفي
ال راع مسلم ونصراني، وفي النهاية يصدر حكمًا شرعيًّا ملزمًا لجميع
الأطراف... أما تنفيذ تلك الأحكام فقد آل إلى شباب من جماعة الإمام
اطلق الفلاحون عليهم "الفواعلية"

ظل دور الفواعلية محدودًا حتى أتى ذلك الصباح الذي أمسكوا فيه
امْا وأوسعوه ضربًا في قارعة الطريق... لم يعترض أحد من المارة على
..وة الضرب... بل ارتفعت أصوات تقول "يستاهل أكتر من كده"
، على مدى الأسابيع التالية تكرر المشهد وتعددت الجرائم وبدأت العيون
.مناد مشاهد ضرب المجرمين... تعتاد عويل الرجال يرتفع كخوار عجل
.مع عندما ينهال عليهم الفواعلية بخرزاناتهم... يتمزق نسيج صراخهم
، ن أنفاسهم المختلطة بأديم الأرض... لم يقاوم من وقع عليه العقاب
طامعًا في تخفيف حدة الضرب... وهو ما راعاه الفواعلية... فمن يلتزم
.الطاعة يعامل بالرأفة في الضرب... ورويدًا رويدًا تسلل ذلك المشهد
ا صبح جزءًا من الحياة الطبيعية لباب الحجازي ولم تعد مشاهد الدماء
الـتي تسيل من الظهور تؤذي العيون.

ومع اقتراب موعد المولد في ذلك العام خيم على باب الحجازي
صمت مقبض ولم تستعد القرية كعادتها لاستقباله... وهذه المرة لم يفتح
الحاج محمد السناري أو أي من الأهالي فمه... كان منع المولد وطرد
النسوة المرابطات أمام الباب تحت بصر وسمع الجميع علامة فارقة في

تاريخ باب الحجازي... تعاظمت من بعدها سلطة الإمام والفواعلية مم
كل تنازل وغضة بصر من الأهالي على تدخلهم في كل أوجه الحياة
يواصلون التقدم نحو الهيمنة المطلقة، يمهد طريقهم خوف الناس
المتنامي... وبدا أن البلدة تسبح في عالم موازٍ... بلا تدخل من المركز
الذي بدا أنه يبارك بصمته ما يتم.

## (٨)

كان الإمام جالسًا في إحدىٰ حلقات العلم التي لا تنفض في دكانه عندما دخل عليه رجل غريب عن باب الحجازي... برغم نحولته الشديدة، إلا أن أول ما لمحه الإمام كانت تلك الندبة البيضاء التي تشق فوده... عدل الرجل من وضع نظارته ذات الإطار الدائري قبل أن يخبره أن المأمور بنفسه هو الذي بعث به إليه مؤكدًا أنه سيجد طلبه لدىٰ الإمام

أهلًا وسهلًا بكل اللي ييجي من ناحية المأمور... نشرب شاي الأول

قام الإمام لعدة الشاي في زاوية الدكان بعد أن انفضت حلقة العلم ليختلي الإمام بضيفه... صب له الشاي من إبريقه النحاسي وعاد للجلوس

محسوبك فتحي... تقدر تقول إني الدراع اليمين لرجل كبير أوي

مال فتحي إلىٰ الإمام ونظر في عيني الإمام مباشرة كأنما ينفذ إلىٰ أعماقه

الراجل ده ليه طلب والمأمور قال لي إن الحل والربط في البلـ
مولانا

ابتسم الإمام في رضا... لم يكن يستوعب ذلك الوضع الغريب الـ
جمعه بالمركز منذ هروبه من السجن لكنه لم يكن ليعترض

اللي حيقدرنا عليه ربنا حنعمله إن شاء الله

عاد فتحي بظهره إلى الخلف قبل أن يقول

أنا متأكد إن ربنا حيقدرك يا مولانا... المأمور بيقول إن العشم اللي
بنكم بخليك مترفضلوش طلب... والراجل اللي أنا شغال عند
حبيب المأمور وحيزعل أوي لو طلبه متنفذش... أما لو إتنفذ تبقى
فتحة خير لك وللبلد كلها

تابع الأهالي بفضول فتحي الذي ظل في ضيافة الإمام حتى اقتربت الشمس من الغروب وقام الإمام يودعه... مر في طريق عودته بالترعة حيث اصطف الأطفال تتدلى أقدامهم فيها... يمسكون بالصنانير البوص القصيرة، يجاهد كل منهم لإيجاد سمكة حتى وإن كانت أصغر من كفه الدقيق... لم يتنبه فتحي إلى النسوة المصطفات على جانب الترعة... إلا أن زينب، التي كانت تراقب أخويها الصغيرين وهما يتشاجران مع أقرانهما حول الموقع الأفضل لصيد السمك، لمحته يرحل في صحبة أحد الفواعلية.

لم تعر زينب ذلك الوجه الغريب اهتماما وشرعت في غسل الأواني مع رفيقاتها في مياه الترعة يعلو صوتهن بالضحك الرائق والنميمة المحببة... إلى أن هدر صوت خشن

اتحشمي يا بت منك لها

...ان ذلك صوت الفواعلي الذي عاد لتوه من توصيل فتحي... عدلت ... من ثيابهن وخيم الصمت على الفور ولم يبق سوى صوت ما حاك آ... النحاس التي تقاوم النظافة في مياه الترعة.

الهي تنطس في قلبك يا بعيد

هكذا قال كامل بعد أن اختفى الرجل فانطلقت ضحكات الفتيات ...ديد، وعاد هو لتنظيف كلبته التي أوشكت أن تفقد شعرها في الماء

كانت زينب قد قاربت على الانتهاء من الأواني عندما جاءت ...طمة تلهث بالأخبار الواردة من ميت الشوكة... روت بصوت مرتعش ...كلمات متقطعة ما سمعته من زوجها رمضان أن حد الجلد قد طبق ...في ميت الشوكة على أحد الفلاحين... لم تعلم ماهي جريمته لكن أزيز ...السوط على ظهر الرجل مع صرير تمزق جلده الذي حملته كلمات فاطمة ...سم أذان النسوة على الترعة وملأ الأفئدة بالرعب... اصفرت الوجوه ...عندما روت ما قاله رمضان عن نية الفواعلية في الاحتذاء بميت الشكوة ...مع من يخالف الشريعة في المستقبل.

عندما عادت زينب إلى الدار كان الخبر قد سبقها إلى أمها... باتت ...باب الحجازي وليس لها حديث سواه... إلى أن علم الجميع صباح اليوم التالي أن المركز قد اعتقل بعضًا من رجال الشيخ محمود قطب مع تهديد صريح للشيخ ذاته إن تكررت تلك الأفعال... أثلج ذلك الخبر صدور الأهالي الذين باتوا ليلتهم تؤرق منامهم كوابيس ما سيفعله الفواعلية بهم إن أمسكوا سوط الشريعة يلهبون به الظهور بلا رقيب... برغم تنفس الجميع الصعداء إلا أن قلب زينب وأم سعيد انفطر قلقًا على سعيد، المقيم في ميت الشوكة، إلى أن أكدت فاطمة أنه لم يكن بين المعتقلين.

برغم ما شاب علاقته بأخيه من توتر ونفور... إلا أن مصطفى تنفس

الصعداء بدوره عندما علم أن أخاه لم يُعتقل... استلقى على سرير، يستنشق عبق الفرن الذي أشعلته أمه لطرد البرد... تلك الليلة انهمر المطر بلا توقف... كان الحبس بين أربعة جدران وتقييد الحرية هو أسوأ مخاوف مصطفى بعد أن عاش تلك التجربة العصيبة في المعتقل لشهور طوال بلا أمل في الخروج... شعر بالشفقة على من اعتُقِل من ميت الشوكة عندما تذكر آثار التعذيب البادية على أجساد رفاق المعتقل من الشباب أمثالهم الذين يتخذون من أبي الأعلى المودودي إمامًا ومن سيد قطب شهيدًا ويريدون قلب النظام الكافر لتكون الحاكمية لله... خاصة أولئك المساكين ممن لا ينتمون إلى تنظيم كبير يفاوض الحكومة لإخراجهم.. أصبح يشعر أن القرية ذاتها تحولت إلى سجنٍ كبير يضغط على صدره... وعاوده ذلك الإضطراب الذي دفعه يومًا إلى ترك داره والذهاب إلى عالم القاهرة المجهول... استلقى على جانبه وأخذ يراقب بقع الرطوبة تنتشر في جدران الدار... يحاول جاهدًا صرف "عفريت مصر" كما أسماه أبوه قديمًا.

لم يكن يعيش في عالم بكر مليء بالفرص التي تلهب حماس شاب مثله وتجعل كل الإحتمالات والأحلام ممكنة بعد أن تحولت قريته الصغيرة إلى مكان يحتضر يتهافت عليه أكلة لحوم الميتة والمترممين في منظر كريه... لا يدري لم تذكر أبيه... كم يفتقده... يعلم أن زينب تكثر من زيارته منذ اختفاء سعيد، كأنما تعتذر له عما بدر من توأمها... يعلم ذلك عندما يذهب لزيارته ويجد التربة لاتزال رطبة من أثر سقياها... مات جزء من زينب بموت أبيها. يعلم مصطفى ذلك جيدًا، فأبوه لم يعاملها كأنثى ضعيفة، بل كشخص كامل يعتمد عليه، ربى بها الاستقلال... يرجع مصطفى جزءًا من ذلك بسبب سفره، فبقاء أبيه وحيدًا مع سعيد القابع في عزلته، اضطره للاعتماد عليها... أحس بمرارة حقيقية عندما احتل سعيد فكره... كل المصائب التي حلت بسعيد ترجع إلى تقربه من الإمام...

مرارة نفسه، راح يلعن الإمام الذي لم تر القرية خيرًا منذ أن ظهر على ا منها.

عندما أشرقت شمس يوم جديد على باب الحجازي كانت السماء أفرغت ماءها... أيقظته زقزقة العصافير في سقيفة الحطب... مر في طريقه إلى عزبة فؤاد خيري بتجمع غفير، بعض الصبية يركضون حول رجل يقذفونه بالحجارة ويضربونه بالعصى... لم يتبين مصطفى وجهه ما يقتاده الفواعلية إلى الساحة الكبيرة أمام الباب... فيما وقف بعض الصبية يتراهنون على قدرة الرجل على التحمل، وهل سيتوسل للفواعلية لإيقاف الضرب ومتى سينفجر باكيًا.

لم يتوقف مصطفى لرؤية المشهد البغيض أو حتى ليتبين ما جريمته وأسرع الخُطا، يطارده صوت الرجل الذي أخذ ينخر ويلهث كالمحتضر... تلاحقه أصوات بعض حناجر النسوة تتمزق تحت وطأة العويل ككلاب مسعورة عقدت العزم على اقتناصه... في العزبة كان الفلاحون يتناقلون الأخبار... قال أحدهم أن الرجل شوهد في خلوة غير شرعية مع فتاة

يستاهل ابن الصرمة... مبقاش في خشى

ماقالوش مين البت اللي مسكوه معاها؟

لا ماقالوش

تراهن إنها البت فاطنة... حتى تلاقي رمضان جوزها كان بيضرب الوله بغل

ابتسم الرجل حتى بدت أسنانه التي أهلكتها الكيوف، ونغز الآخر في جنبه

البت الصراحة مربربة وزي لهطة القشطة

احنا حنقضيها حكاوي ولا إيه... اللي حيرفع راسه من خط القطن حتخصم يوميته

هكذا صرخ فيهم مصطفى فارعا إلى الأرض... لا يدري لم أصبح مزاجه عصبيًا حادًا... أهي البلدة التي أصابها الجنون أم أنه هو الغريب... أم أن تلك العصبية أثر انقطاعه عن جلسات السماع منذ أن فقد الرغبة في الذهاب بعد رواية الباشا عن الحجازي... بعد ذلك الشك الذي أذهب كل معنى ارتبط بالمكان وكدّر عليه صفاء تلك الجلسات... لم يكن كل ذلك مهمًا بعد أن منعها الفواعلية على الجميع فور صدور فتوى اللجنة الشرعية بحرمة تلك الجلسات... عاود لعن الفواعلية وإمامهم في نفسه قبل أن ينهمك في العمل.

بعد صلاة المغرب جلس مصطفى محني الظهر على مسطبة الستاري بينما يتندر الحضور على كامل المجذوب الذي يتراقص مع كلبته... حاول أن يسري عن نفسه... جاهد ليشارك الجمع في لهوهم لكنه لم يستطع فاستأذن وانصرف... عندما دلف إلى داره فوجئ بآخر وجه يتوقعه... في صحن الدار وقف الإمام ساكنًا... يطالع مصطفى... يؤكد سطوته وحضوره قبل أن يبدأ في قول ما عنده.

# (٩)

أخرج سعيد الحُصر من الجامع بعد صلاة الفجر وانهمك في تنضيفها بعناية... عندما أشرقت الشمس فاحت رائحة الزرع المخضلة بالندى وملأت صدره بينما يرتل أبو حسين الديك القرآن بصوته الجميل، فيما يردد بعض رواد المسجد "الله الله الله" هل سمُي الديك بذلك لحلاوة صوته، أم لأنه دائم الترتيل عقب صلاة الفجر... لا يهم، فترتيل اليوم مبهج بشكل خاص... بهجة تليق بيوم زفاف ا. ْ الشيخ محمود... تخيل وجه شيخه فرحًا بعد طول توتر بسبب الأحداث المتلاحقة التي لا تدع لمن يعيش في هذه السنوات الملتهبة مجالًا للتنفس... أسعدته الفكرة، فابتسم بينما يجمع الحُصر.

بحلول القيلولة حاول أن يجد وضعًا مريحًا على أرض المسجد الصلبة بعد أن انتهى من سُنَّةِ الظهر، اتكأ في مكان نومه بجوار الجدار وأغمض عينه... لم يدر كم انقضى من الوقت حتى أيقظه وكز في كتفه...

فوجئ سعيد بمصطفى يقف فوقه فجفل للحظة قبل أن تهدأ نفسه .. جديد... لم يكن رأى أيًا من أهله منذ طرده من الدار... شعر بغصة في حلقه عندما تذكر ذلك اليوم ولعن الشيطان في خاطره... انتحى الأخوان جانبًا من الإعدادات التي تسير على قدم وساق للحفل الذي سيبدأ بعد صلاة المغرب... أُعدت أواني الحلوى والمشروبات التي ستتلوها وليمة العُرْس بعد صلاة العشاء.

صاحبك اللي ضربتني وشتمت أبوك في تربته علشانه عايز يبيع أختك... وانت عايش في عالم تاني... الراجل الخليجي اللي جابه خالك دلوقتي مشغل صاحبك خاطبة... وعايز يشتري لحم أختك بفلوسه

أخذت الكلمات بضع ثوانٍ حتى استقرت في عقل سعيد الذي كاد ينصهر... أراد ألا يصدق... أراد أن يبكي حرقة... أراد أن يصرخ... أراد أن يموت قبل أن يصدق ما يقوله أخوه... لكن عيني مصطفى التي تخترق صدره لم تدع له مجالًا لذلك

ابن الكلب ده مش ناوي على خير... أنا شفت الشر في عينه... قال إنه لسه بيدور على البت اللي كانت مع راجل ضربوه امبارح علشان اتقفش معاها، وإن في كلام داير عن زينب... بيلمح يا سعيد إنه ممكن يرمي بلاه علينا... ده ممكن يبيع أمه علشان مصلحته

قطع الحديث دخول بعض الرجال بثيابهم الجديدة إلى المسجد استعدادًا للزفاف... يهنئون العريس الذي حضر لصلاة المغرب مبكرًا... زادت تلك البهجة التي تعلو الوجوه المحيطة من وضوح الهم الذي حمله

.. مصطفى، الذي خفض صوته وهو يقول

محدش عارف يقف في وشه... الحاج محمد السناري مبقاش له كلمة والشيخ عبد الكريم حيسيب البلد ويطفش الليلة... وكله من تحت راس الفقر اللي انت مصاحبه

اسسكت

انت لسه ليك عين تتكلم... أختك حتضيع وأمك حتموت من قهرتها

انصهر سعيد تحت لهيب نظرته وتصبب عرقًا

حح... حيعمل... كك... كك.. كده ليه

أكيد حينوبه من الحب جانب... مش بيع اللحم حرام يا شيخ سعيد... ولا ده حلال في عرفكم... أنا مش عايز منك حاجة، وأمك لو عرفت إني جتلك كانت قطعت خبري... أنا جاي بس أعرفك الوقعة المهببة اللي وقعنا فيها من ورا عمايلك

ظل سعيد صامتًا، وظل مصطفى يتحدث... لكن سعيد لم يعد يصغي... لم يعد يسمع سوى صوت الدماء الفائرة في عروقه

بات سعيد تلك الليلة في ظلام المسجد وحيدًا... تنغزه أصوات الأخوة التي تعلو بأناشيد العُرس في فرحة وسرور بلا حدود... أخذ يفكر فيما آلت إليه حياته.

نكاح شرعي... سرت قشعريرة باردة في ضلوعه عندما تذكر تلك الكلمة التي راحت تتكرر في إجابة الشيخ محمود... ذهب إليه يستنجد به في يوم زفاف ابنته عل قلبه يرق لينقذ زينب من أن يفترسها كهل... ذهب يخاطب فيه الأب الذي يفرح لابنته... كل ما أراده منه هي كلمة... يتعلق

بأمل أن يقول أن تلك زيجة حرام... يقول أنها دعارة مقننة والدين منها
براء... فإذا به يقول أنها مسألة فيها خلاف بين أهل العلم... والأكثرون
على جواز ذلك مادامت نية الطلاق ليس فيها مشارطة بين الرجل وبين
الزوجة أو أهلها فليس هذا من باب المتعة... قال أنه نكاح شرعي صحيح
عند جمهور أهل العلم... وكونه ينوي الطلاق في المستقبل عند سفره
فهذا شيء مباح له... ظل صوت الشيخ يطن في أذن سعيد حتى انبلج
الفجر وفُتح باب المسجد للمصلين الذين ناموا ليلتهم بعد أن امتلأت
بطونهم من وليمة الزفاف... كان حاضرًا بجسده فقط في صلاة الفجر
بينما عقله في مكان آخر... لابد أن أمه ظلت تسب فيه طوال الليل.
تخيلها وهي تقول أن لا خير فيه... يعلم أنها عنيدة لا تلين وتبحث عمن
يحمل الذنب دائمًا... لكنها محقة إن لامته هذه المرة، فالحقيقة أن
لا ذنب لأحد غيره في ما سيجري لزينب... توأم البطن الواحدة وأعز
مخلوقة لديه في الوجود... احتلت صورة الإمام مخيلته، ذلك المتزلف
المرتزق... كل مقهور هو قاهر تحت الطلب... كيف لم ير ذلك... لكنه
لن يبقى مكتوف اليدين بينما أخته تضيع بسببه... وكما يقول المثل، بعد
حرق الزرع لا معنى للجيرة... هكذا راح يتردد داخله وهو ينهي صلاته.

## (١٠)

اقتحمت زينب عليه خلوته... تعلو وجهها ابتسامة واثقة تشع عبثًا... لم تكن ترتدي الأسود كالعادة... بل ارتدت جلبابًا أبيض كفساتين الزفاف، بدا الجلباب ضيقًا عند الخاصرة... لكن الإمام سرعان ما حول نظره عن تلك المنطقة المحرمة من جسدها... جالت بخاطره تلك القناعة الراسخة التي وثقتها السنوات أنه محصن ضد غواية النساء. أفاق من ذلك الخاطر على نبض قلبه المتسارع عندما وقفت زينب أمامه مباشرة، خصرها في مستوى عينه، شيء ما في وقفتها، في مشيتها... شي ما أنبأه أن هذه ليست زيارة عادية، وأنه أصبح كالراعي يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه... تسارعت أنفاسه حتى اعتقد أن لهاثه أصبح مسموعًا وتسربت الرغبة الملتهبة تغزو جسده، لسبب ما قرر أنه لن يقاوم... ربما أراد أن يرى إلى أي مدى سيفضي ذلك الأمر... ربما تمنى أن يقع ما لا يمكن تخيله... سيرضى بالذي تسمح به زينب... فالحقيقة أنه يريد أن ينهل من نبعها

أنا جاية استفتيك

قالتها بصوت يقطر عهرًا محببًا... تنحنح الإمام وبحث عن كلام يقذفها لكنه لم يجد، فاتسعت ابتسامة زينب وعلم أنها تدرك أنه ... تحت رُحماها، الغريب أنه استمتع بذلك الشعور، استمتع بالوقوع تحت سطوتها تتلاعب به كالدمية... رفعت زينب جلبابها حتى بان فخذاها وجلست على حجر الإمام وجهًا لوجه، تلفح وجهه حرارة أنفاسها شعر الإمام بروحه تنساب، تنزع من صدره مزعًا حتى لم يعد قادرًا على التنفس

هو أنا لو ركبت الحمار كده يبقى حرام!

لم يميز الإمام الكلمات، فقط رأي شفاهها تتحرك... يلسعه جسدها حينما يشعر بالاحتكاك الآثم بين فخذيها... لم يدر الإمام بيديه اللتين انغرزتا في لحم ظهرها تدفعها نحوه... يدفن وجهه بين نهديها وهو يشهق شبقًا... لم يعد يفكر في مكانته أو يخاف من دخول أحدهم عليه في مثل ذلك الوضع... لم يكن بيده كبت جماحه، لكن زينب قامت كالملسوعة من فوقه فاتسعت عيناه في ارتياع... لم يستطع عقله تتبع ما يحصل... هل حدث ما حدث أم أنه يتوهم... اللعنة... وقفت زينب أمامه منتصبة تنظر إليه بغضب هادر... أفاقته تلك النظرة الغاضبة فأخذ يحدث نفسه بأنها من بدأت، هي من جلست عليه حتى أذهبت عقله... حاول الكلام لكن كل ما خرج من فمه كان غمغمة غير مفهومة.

أفاق الإمام من ذلك الحلم وقد بلل فراشه... فقام واغتسل بماء الشتاء البارد قبل أن يخرج لصلاة الفجر... كان قد اعتاد مثل تلك الأحلام التي تزايدت وتيرتها مؤخرًا... لكنه كان يحاول إقناع نفسه بحقيقة أن ز... لن تكون له... وأن ما سيحل بها هو عقاب عادل على عِندها وتكبرها... رفضته وهاهي ستزوج كهلًا برغم أنفها.

ا ماط به رهطٌ من مريديه في طريقه إلى داره بعد الصلاة وحيته الجموع
مة من الجامع وتلك الذاهبة إلى الغيطان يجرون خلفهم بهائمهم...
ا.هم تحيتهم وقد لاحظ تلك النظرة المميزة في العيون... نظرة اللوم
ر دان سيد خطاب يتلقى سهامها... يدرك أنه لم يعد يجدي الحديث
أنهار اللبن والعسل وقصور الذهب والفضة في الدار الآخرة بعد أن
. من السمن من الجرار وفرغت المخازن من الحبوب والدقيق... لا
.. ن من قوله افرحوا وتفاءلوا واحمدوا الله فهناك من هم أكثر منكم
ا بعد أن استحكم الجوع وتغول الفقر... البلدة تكاد تموت جوعًا...
..اهل الفلاحون أنهم انتحروا منذ زمن ببناءهم على الأراضي الزراعية...
ٍزون على الدخل الذي توقف من زراعة أرض سيد خطاب من تحت
... ودخل نسائهم من بيع التذكارات عند الباب الذي حرمه بنفسه...
.. ك الإمام أنه يسير على حبل معلق في السماء، يمسك منشارًا ينحر به
ا. ه بعد أن عبر... الكل يشير إليه بالبنان كلما ارتفع... وكلما ارتفع أكثر
دان هدفًا واضحًا سرعان ما سيقذفونه بالحجارة إن لم تتحسن الأحوال.

كان عليه أن يجد حلًّا... وقد رزقه الله حلًّا هبط عليه من السماء،
... ببعض المال بالإضافة إلى نشوة الانتقام لجرحه القديم من زينب
ا.ما تخيلها مع كهل عاجز عن أن يروي ظمأها... الإغراءات المادية التي
ر سها فتحي ستحل له الكثير من مشاكل أهل القرية التي تلتف حول
. فه يومًا تلو الآخر... سيهب البعض عقود عمل بالخليج تكسبه ولاء
ا.ريد من الأهالي، كما أن المال الذي سيوضع في يده سيمكنه من شراء
.ءس الأفواه بالقليل من السمن والغلة... كل ما عليه أن يتأكد من إتمام
ا. بجة بأي شكل وبأي ثمن.

بعد شروق شمس ذلك اليوم خرج الإمام من داره يتأبط بعض
او ريقات متجهًا إلى اللجنة الشرعية... وجهه كان جادًّا ينبئ بأمر جلل...

ما أن استقر بين يدي القاضي الشرعي، الذي قام مسرعًا من مجلسه وحياه بحرارة، حتى تقدم بشكواه... لبضع دقائق بدا أن القاضي لم يستوعب ما قرأ وغلف الحجرة صمت كالقبر.

عندما عاد الإمام وجد سعيد الرفاعي مع كامل المجذوب في انتظاره أمام باب داره، يحدجه بنظرة نارية... صرف الإمام كامل ثم بادر سعيد بقوله

عندي ليك أخبار حتفرحك... اسألني أنا جاي منين دلوقتي

لم يبد أن سعيد سيجاريه فأكمل الإمام

لسه مقدم طلب فتوى شرعية في موضوع الباب... قربنا نخلص منه يا سعيد... لا حيتباع ولا حيبقى... حنحرقه وأعلى ما في خيل الحكومة تعمله... ده إن سأل عنه حد أصلًا... وشيخ الحضرة غار في داهية خلاص ومعاه دراويشه والمقام بقى خرابة... خلاص يا سعيد... حلمك حيتحقق وشرع ربنا حيحكم البلد

عايز تخلص مممم... مم... من الباب ليه

انت اللي بتسأل يا سعيد... مش انت اللي قعدت تقول ده شرك

اختنقت الكلمات على طرف لسان سعيد فخرجت همهمه مبهمة... لكنه شحذ كل مجهوده ليقول

يا ابن الكلب

خرجت تلك الكلمة كالصرخة بين تهتهة سعيد فندت ضحكة قريبة... نظر الإمام إلى كامل الذي وقف خلف الدار يسترق السمع فالتقط حجرًا ورماه به فولى هاربًا.

احترم نفسك يا سعيد... أنا عامل اعتبار للعشرة... لولا كده كان يبقى ليا تصرف تاني معاك

تبعععع... ععع... عرضنا يا ااا...    ... ابن الكلب

لم يلحظ الإمام يد سعيد التي أخذت بالارتعاش بالرغم عنه

لآخر مرة بقولك حاسب على كلامك يا سعيد... الكلام معايا بحساب يا ابن الناس الطيبين... وبعدين بيع عرض إيه اللي انت بتتكلم عليه... ده جواز على سنة الله ورسوله... اتقي الله يا سعيد... سيب الكلام ده للجهلة... كلنا مجرد أسباب لتنفيذ مشيئة الله

لو قررررر... قربت للل... لل... لاختي حشق بطنك

عادت الضحكة من خلف الجدار فتصاعد توتر الإمام وصاح بكامل

والله لو مسكتك يا ابن الوسخة لأعلمك العافية

ثم التفت إلى سعيد وقد احتقنت عيناه وأخذت شفتاه في الارتعاش

أما انت فكده لازم تتأدب... ضحكت علينا البهايم... أنا مش فاضي لتهتهتك دي

هكذا قال الإمام وأدار ظهره منهيًا الحديث... ثم ما لبث أن ندم على ترك سعيد يغيب عن ناظريه عندما سكنت الريح فجأة وسمع حفيف نعلي سعيد يقترب منه مسرعًا... وقبل أن يتخذ أي رد فعل مناسب كان سعيد قد تعلق بعنقه.

خلفه كان وجه سعيد يحمل أعتى أمارا - الغضب والمرارة... لم يأبه لأظافر الإمام التي انغرست في ساعديه وراح يعتصر رقبته بكلتا قبضتيه

بكل ما أوتي من قوة... راح يضغط... يخلص نفسه من ذنب أخته.. يضغط... يسمع حشرجة الإمام التي لم تشف غليله فيضغط من جديد بكل قوته ليسمعه بيديه ما عجز لسانه عن قوله.

كان ينقص سعيد أن ينظر في عيني الإمام وهو يغيب عن دنيانا فأفلته ليقع أرضًا يشهق بعنف... أداره دون مقاومة منه حتى واجهه فأخذ الإمام يعول ويستغيث بصوت مختنق فجثم سعيد على صدره وحمَّل قبضته التي استقرت في وجه الإمام كل الغضب الكامن في صدره... راحت قبضتاه تتواليان في تكسير عظام وجهه... يراود سعيد صوت ذلك المختل الذي اعتقد أنه المهدي المنتظر واحتل الحرم... هل اعتقد الإمام أنه مهدي باب الحجازي المنتظر... كيف تناسى أنه مجرد متسلق ركب الموجة عندما سنحت الفرصة... حتى الكلمات التي خرجت من فمه وغيرت وجه القرية لم تكن كلماته.

استقرت قبضته من جديد في وجه الإمام الذي فقد ملامحه وأخذت عيناه الملتاعة تدور في محجريهما فيما تناثرت الدماء من فمه... شعر سعيد أن ما بداخله من غضب لم ينته بعد فقبض على شعره ورفع رأسه ليدقها في الأرض... لعله يخلص البلدة من تلك الأرواح الخبيثة التي سكنت هذا العقل الخرب... إلا أن الأيادي التي قبضت عليه من الخلف حالت دون ذلك، أيادٍ كثيرة وكلام متراكب لم يميزه سعيد في البداية حتى ارتد عليه بعض من وعيه. مال الرجال على الإمام يتفحصونه وقد بدا جثة هامدة فأطلق سعيد ساقيه للريح... لا يعلم إلى أي الأرض يذهب.

عندما أفاق الفواعلية من صدمة رؤية الإمام ممددًا على الأرض انطلقوا يبحثون عن سعيد في الطرقات والغيطان... فتشوا داره والدور المجاورة وكل دور أقاربه... ذهب بعض منهم للبحث عنه في ميت الشوكة...

ـحلول الظلام لم يفض البحث والتفتيش المحموم إلى شيء... تبخر ـعبد الرفاعي من على وجه الأرض.

نقل الفواعلية الإمام إلى مستشفى المركز غائبًا عن الدنيا وهناك ا ميرهم طبيب قصير ذو صلعة براقة أنه كان على بعد خطوة من الموت... ـف حول فراشه جمع من مريديه حتى اكتظت الغرفة المشتركة بهم... ـبعض طفق يدعو له بينما جلس آخرون في ركن الحجرة يتحدثون فيما ـبينهم عن معجزة بقاءه حيًا.

أفاق الإمام في وقت متأخر من تلك الليلة، فأتته ممرضة لم تخف شعورها بالضجر أثناء تغير ضمادات وجهه

دي حادثة؟

هكذا سألت الممرضة بلا اهتمام حقيقي بالإجابة، فظل الإمام صامتًا وأصر فور انتهائها أن يُنقل إلى داره... برغم الظلام الحالك الذي غلف الطريق إلا أن الإمام ظل يرى شررًا في عينيه... وبرغم ضلوعه التي تئن وجروح وجهه الذي انتفخ عن آخره، كان هاجسه الأكبر في تلك اللحظة خيالات تحوله إلى مادة خصبة للثرثرة... تلسعه الألسنة السامة بالتلاقيح الوقحة والنظرات الغائرة... ألهبت جراحه كلمات المواساة التي انهمرت عليه من مريديه طوال الطريق... ولم يشف غليله ركام السباب والوعيد الذي ألقي على سعيد... لم يكن بحاجة إلى سماع كلام الفواعلية ليعلم أن عليه الانتقام من سعيد الرفاعي إن أراد أن يتمكن من رفع رأسه من جديد في القرية.

بينما الإمام حبيس داره حتى لا يرى أحد الورم الذي أذهب ملامحه،

كان كامل المجذوب يطوف بالدور والمصاطب... يروي ما شاهده بأم عينه حين كاد الإمام يلفظ أنفاسه الأخيرة... راح يقُلد الإمام الذي أخذ يعول كالنساء بينما سعيد الرفاعي فوقه.

ضرب كامل بيده على قفاه ليقلد صوت الصفعات التي تلقاها الإمام

جاااي... جاااي... وسعيد يلوح لطشه بالكف على قفاه

هكذا أخذ يردد كامل ثم يتبع ذلك بوصلة جديدة من نواح النساء وهو يتلوى أرضًا فيضج الجالسون بالضحك... ضحك يحمل ما يموج في صدورهم من حنق وكره للإمام وجماعته.

# (١١)

قاومهم كامل حتى أدمى وجه اثنين منهم، حاولت كلبته حمايته إلا أن العِصي انهالت عليها بدورها... عندها حاول كامل حمايتها حتى بجسده... قبض على خصية أحد الفواعلية فتلوى أرضًا يصرخ في هلع، وعض أيادي الآخرين وهو يبكي ويسبهم بأمهاتهم يحاول الوصول إليها قبل أن تفر وهي تعوي... تكالبوا عليه حتى تمكنوا من تقييده... خمس ضربات من تلك الخيزرانة السميكة كانت كفيلة بطرحه أرضًا، طالت إحداها أذنه فأدمتها، بينما استقرت باقي الضربات على ظهره الذي تحول إلى شبكة من خطوط النار تشويها الشمس التي صعدت إلى كبد السماء لتراقب ما يحدث في صمت مخجل... بقى بعدها كامل بلا حراك هامدًا على الأرض يتلقى سيل الضربات المحمومة المختلطة بالسباب فيما ارتفع نحيب بعض النساء بينما فواعلية الإمام ينكزوهن بالعصي حتى يصمتن.

انطق يا ابن المرة... فين سعيد الأخرس

لم يجبهم كامل سوئ بوصلة جديدة من السباب فعاودوا الضرب بغل أكبر

حرام عليكم ده بتاع ربنا

هكذا قالت زينب فتعالت أصوات النسوة المستنكرة فأعملت العصي في الأجساد من جديد وأخرست الأفواه.

برغم الجنون الذي ملأ أعين الفواعلية وطفح على وجوههم وحركاتهم، وبرغم الرعب الذي كسا الأهالي إلا أنه كان من المستحيل ترك كامل راقدًا في قارعة الطريق فانتشله بعض الشباب من التراب بعد أن فرغ منه الفواعلية... سارعت زينب بإدخاله إحدئ الدور القريبة وأخذت تغسل وجهه من أثر التراب... فيما سارعت بعض النسوة إلى البيوت وعدن ببعض كسرات الخبز التي تراكمت بجوار كامل كاعتذار ذليل عن قلة الحيلة والعجز... في الخارج بقئ بعض الأهالي ذاهلين لما حدث للتو... شيء ما في رؤية كامل يتكسر أمام أعينهم أمات جزءًا في نفوسهم... جعلهم يبغضون عجزهم وخوفهم الذي ألجمهم... جعلهم يلعنون الظلم وإن لم ينهروه علانية.

بحلول الظلام، تناثرت الكلمات على مساطب وطرقات باب الحجازي بينما استمر البحث عن سعيد الرفاعي... راح البعض يؤكد أن كامل "يستاهل اللي حصله" لتجرؤه على السخرية من الإمام.. فيما راح آخرون يأكدون أن كامل يعلم مكان سعيد ويتكتم عليه وأنه كان قادرًا على إنقاذ نفسه إن أراد، لكنه عنيد أحمق... كما راح البعض يؤكد أنه من شاربي الحشيش... لكن مزاج الجلسة على مسطبة السناري كان مخالفًا... لم يبرر أحدهم ما حدث بل أخذ الجالسون يصبون جام

،صبهم على الفواعلية فاقدي الرحمة فيما ظل الحاج محمد الساري صامتًا يتابع الحديث في وجوم

حيموتوا الوله علشان يعرفوا مكان سعيد... من ساعة اللي عمله مع المكحوم بتاعهم

ابتسم أحد الجالسين في شماتة وقال

الفواعلية مكتمين على الموضوع وهو ميظهرش بقاله إسبوع... بيقولك وشه منفوخ وعينه مش باينة من العلقه اللي أكلها... علقة موت

والله براوة عليه الواد سعيد... راجل من ضهر راجل

هكذا قال الحاج محمد قبل أن يقوم ويدع الرجال إلى سمرهم الممتد

بعيدًا عن جلسات المساطب، وبعدما انتصف الليل وانتهى الحديث ،،، جرجر كامل جسده المثخن بالجراح وتسلل إلى الباب... هال سعيد ،نظر كامل يدخل عليه يعرج وقد تحطم جسده وغرق جلبابه المهترئ في دماء سوداء... ارتمى كامل في طرف السمعخانة كأنما خارت قواه ،وصوله إليها وناول سعيد بضع كسرات الخبز التي حملها في طيات ،ابه... قبض سعيد على كسرات الخبز... يطالع كامل الذي تكوم في ر ئن السماعخانة، يحاول أن يجد موضعًا للجلوس بلا ألم فلا يجد... ،لى سعيد بحرقة فراح كامل يهدئ من روعه

متخفش يا سعيد... أنا مقلتش لحد على مكانك

نظر سعيد إلى كامل... إلى تلك العيون الطيبة... وتساءل كيف استطاع أ ،حد أن يؤذي تلك البراءة المتمثلة في كامل... إلى أي مدى غاب قلب ، مفل من اعتدى عليه حتى يؤذي هذا المسكين تحت مسمى العدل...

وهل كان سيفعل ذلك بنفسه إن لم يكتب له أن يفيق أم أن فطرته كانت ستأبى ذلك.

لم يلبث كامل طويلًا وأخذ كليته ورحل... جال سعيد بنظره في السمعخانة، نظر بأسى إلى غرف نوم الدراويش المهجورة... نفس المكان الذي ساهم في خرابه يصبح الآن مأواه الوحيد حين تقطعت به السبل لا يدري لم قاده كامل إلى الباب دون غيره عندما قرر الهروب... فاجأه الحنين الذي اجتاحه وهو يدير عينيه في أرجاء السمعخانة الفارغة... رآها كصديق قديم لا يريد معاتبة خليله على الهجرة أو الخيانة... برغم أنها لم تستمر طويلًا، إلا أنه لازال يذكر تلك الفترة حين كان يأتي مع أبيه طفلًا إلى جلسات السماع... حتى توقف أبوه عن اصطحابه، فمن أين لأخرس بحضور جلسات عِمادها الإنشاد.

لكن الحنين لم يلبث أن توارى خلف الإرهاق وسرعان ما قهره سلطان النوم... انتابته أحلام مزعجة... لا يدري كم من الوقت صمد في مواجهة كوابيسه لكنه أفاق على صوت الشيخ عبد الكريم المميز يناديه... نظر في أنحاء السمعخانة الخاوية وأرهف السمع، لكن الصمت كان الحاضر الوحيد بجانب الظلام... إلا أن شيئًا جعل فكه يكاد يلامس صدره... برغم الظلام تبين سعيد باب إحدى الغرف مفتوحًا على مصراعيه... تلك الغرفة التي تشعبت الحكاوي عنها منذ صباه... الغرفة التي تحوي الخرقة الصوفية... يكاد يقسم أنها كانت مغلقة منذ دخوله المكان... تحسس سعيد طريقه حتى اقترب من باب الغرفة في حذر، داخلها كان الظلام دامسًا... لم يرى شيئًا سوى ظلال رسمها خياله

... انت هنا يا جِدّ؟

هكذا همس سعيد بصوت خفيض داخل الغرفة ليجيبه الصمت...

. هب إلى غرفة الخزين فلم يجد بها أحدًا فعاد ليجلس القرفصاء يستمع إلى سكون السمعخانة الذي بدا ثقيلًا مبهمًا... أقنع نفسه أنه كان يحلم ، أنه لابد لم يلحظ أن الغرفة كانت مفتوحة من قبل في غمرة ارتباكه.

مع مرور الوقت تسلل إلى قلبه شعور غريزي بالقلق... شيء مر مريح... لم يكن يحلم بصوت الشيخ عبد الكريم... كما أن الغرفة كانت مغلقة وإلا لاحظها من البداية في نور الصباح... فجأة باغته خاطر مرعب، هل تسلل أحدهم إلى المقام أثناء نومه وذلك ما أيقظه... ربما ذهب ليخبر الفواعلية بمكانه وهم في طريقهم إليه الآن... تسارعت نبضات قلبه وتوترت عضلاته... كان عليه ترك المكان الذي بدا صمته مرعبًا في الظلام... لكنه لم يملك أن يغادر المقام قبل أن يلقي نظرة داخل تلك الغرفة... عندما اقترب منها من جديد فاحت تلك الرائحة التي تحمل ذكريات الطفولة وأفراحها وآمالها المنسية... اهتز جسده كأنما صعق ببارق من السماء عندما ميز الرائحة... للحظة ظل سعيد يستنشق الرائحة... يملأ بها صدره... كم اشتاق إلى رائحة والده... وقف بلا حراك في مدخل الغرفة كأنما يريد التمسك بوالده لأطول مدة ممكنة... انتابه أمل أن يكون الشيخ عبد الكريم بالداخل، لعله عاد ليأخذ الخرقة... عاود النداء عليه فلم يجبه أحد... أشعل مصباح كيروسين كان بجوار الغرفة وخلع نعليه وقال كما كان يقول أبوه عند عتبه الدار، "يا بركة سيدنا النبي"، ثم خطا بيمينه إلى الغرفة قبل أن يمنعه التردد.

الإضاءة الضعيفة المنبعثة من المصباح ظلام الغرفة... جدران عتيقة متشققة... مسطبة خشبية وضعت بطرف الغرفة التي كانت خالية من أي شيء بخلافها، عدا عمامة الشيخ عبد الكريم المميزة... انتابت جسده رعشة قوية وهو يجول بعينيه في أرجاء الغرفة الضيقة كأنما يقتحم مكانًا مقدسًا... كان عليه إطفاء المصباح ومغادرة المكان حتى لا ينكشف

أمره... لكنه لمح علبة مخملية صغيرة اختفت خلف العمامة فالتقطها علىٰ عجل دون أن يرىٰ محتواها وأطلق قدميه للريح.

بات سعيد تلك الليلة في الغيط... برغم بداية تقهقر الشتاء أمام زحف الربيع إلا أن للعراء برد لا يرحل يتذكره منذ أول ليلة طرد فيها من داره. تحت السماء المفتوحة والنجوم الساطعة أخذ يطالع الخرقة التي وجدها بداخل الصندوق... تلك الخرقة التي تعددت حكاوي الرجال عنها منذ صغره... لم تركها الشيخ عبد الكريم عندما رحل... لا يدري، لكن مجرد حملها في يديه كان يريحه... يطمئنه... اتكأ علىٰ العلبة المخملية وراح يسترجع إحدىٰ الحكايات المرتبطة بأصول سيدي الحجازي التي تروي كونه أحد أبناء أعيان البندر الذي ورث عن عائلته من الأطيان ما يسد عين الشمس... لكنه لم يعرف طعم السعادة إلا في معية الله... لذا فقد زهد في الدنيا وأعطىٰ كل أملاكه للفقراء وتفرغ للعبادة وظل يرتحل بين البلاد... يبيت في العراء كما يبيت هو الآن... حتىٰ استقر في باب الحجازي... أخذ سعيد يتخيل تفاصيل الحكاية حتىٰ غفا وهو منكمش علىٰ نفسه كطفل صغير... يتردد في أذنه صوت الأطفال حين كانوا يتبعونه في الطرقات... يقذفونه أحيانًا بالحجارة مرددين "شيخ محضر يا شيخ محضر... واللي عليه عفريت يحضر

فجر اليوم التالي عاد إلىٰ السمعخانة قبل أن يخرج الفلاحون إلىٰ حقولهم ولم يبرحها... مرت أيامه ثقيلة... يقطعها مجيء كامل كل ليلة أو ليلتين بما يأكله... كان يقضي معظم وقته ساكنًا في زاوية السمعخانة يطالع تلك اللوحة القديمة... "النجاة في الصبر يتدبر ما سيفعله مع الإمام الذي زأرت مكبرات الجامع بعد صلاة العشاء تلك الليلة بصوته، يلقي فتوىٰ اللجنة الشرعية بحرق الباب وهدم المقام بالكامل عقب صلاة الجمعة بعد يومين... انهمرت الدموع ساخنة علىٰ وجنتي سعيد تبلل

احيه في صمت... لا يدري ما الذي يجب فعله... ما الذي جناه على
ربته وأين سيذهب الآن... عاد صوت الإمام يرتفع من جديد، يلقي درسًا
ى الدروس التي كتبها له بنفسه... بدت كلماته التي كتبها غريبة عليه،
حتى أنه شك أنها كلماته... لم يتحرك سعيد وظل شاردًا حتى صمت
الإمام، وبانتصاف الليل وخلو الطرقات من أصوات الأقدام قام سعيد
ينظف القاعة المهجورة... قام ينظفها لمرة أخيرة قبل أن يرحل عنها.

## (١٢)

تردد مصطفى في الذهاب إلى دار الإمام، لكن الشاب الذي بعث به الإمام لم يدع له مجالًا للرفض... عندما دلف مصطفى إلى الدار كان الرجل يجلس وسط خمسة من رجاله... يرتدي كاكولته المفضلة من الصوف الكشمير... تشع نظرة الاستعلاء من عينيه وتصرخ جلسته المطمئنة بالسيادة... عندها علم مصطفى أنها لن تكون جلسة ودية

أخوك فين

حملق مصطفى في عيني الإمام التي بدت له كعين بغل حبشي عقد العزم على رفسه

معرفش... مش كان اللي أنت باعته سألني وخلصنا

تنهد الإمام وقال

معلش... مصيرنا نجيبه... خلينا فيك دلوقتي... أفعالك مع ابن الساري مبقاش ينفع يتسكت عليها... سكتنا عليكم لما شربتم

حشيش مرة ورا التانية جايز ترتجعم... لكن انتم سايقين فيها... كمان الناس بصراحة مش عايزين في وسط البلد حد والعياذ بالله شيوعي

انت تعرف يعني إيه شيوعي أصلا

ابتسم الإمام في هدوء زاد من توتر مصطفى

أعرف ولا معرفش... مش ده المهم... المهم الناس اللي بيقولوا عليك، والعياذ بالله، شيوعي ملحد... بيقولوا كمان إنك أيام ما اتحبست في مصر كان علشان كده... وانت عارف إن حد الإلحاد الموت... شوف يا ابن الحلال... الناس هنا بتغير على دينها وأنا مضمنش حد يتعرضلك كده ولا كده... علشان كده أنا حمشّي معاك كام راجل كده يخدوا بالهم منك... بس المهم تطاوعهم ومتخرجش من داركم اليومين الجايين

ارتعشت شفتا مصطفى

انت عايز تحبسني في الدار

لم يجبه الإمام وظل ينظر إليه في تحدٍّ فيما ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة ساخرة، فتسارعت أنفاس مصطفى وشعر بلهيب ينبع من جسده يكاد يصهر كيانه

كل ده علشان تغصبنا على الجوازة... إيه السواد اللي جواك ده يا أخي... الدنيا لا تخلي الراكب راكب ولا الماشي ماشي... افتكر سيد خطاب ومتنساش إن الظلم ميعمرش

أشار الإمام للفواعلية الذين كادوا أن يفتكوا بمصطفى بالجلوس

- ظلم إيه لا سمح الله... بقى أقولك عايز أحميك تقولي ظلم...

وبعدين سيد خطاب ده واحد كان شاري الناس بفلوسه.
في لحمهم بالحرام... أما أنا فالناس بتحبني لإني عايز
يرضي الله وعايزلهم الحلال... زي ما أنا عايزك تبعد عن الحرام
وتسيبك من الحشيش... وعايز أستَّر أختك بالحلال بردو
كلام الناس وحش على الولايا... واختك لازم تتجوز.
متصورش الكلام البطال اللي بيوصلني عنها
قطع لسان اللي يقول على أختي كلمة بطالة

تلك الليلة لم يجلس مصطفى على المسطبة كما هي عادته بعد أن أجبره الفواعلية على البقاء في الدار... جلس وحيدًا في سطح داره تحالف المخاوف والغضب المكتوم في خنقه... هل سيؤذيه أهل القرية حقًّا إن أشاع الإمام كذبته... لا يدري... وتلك هي المصيبة، أنه لا يدري... وتلك الحيرة هي التي منعته من مقاومة حبسه في داره كالنعاج راح يطالع السماء الخالية من النجوم بينما يصله صوت رمضان الذي اتكأ على المسطبة المجاورة أمام داره في ثقة قلما تمتع بها وهو يقول أن من يريد الحفاظ على الباب هم زمرة الحشاشين، وأن هؤلاء القلة لن يعوقوا إقامة الشرع في باب الحجازي... مبشرًا الجميع بالخير الكثير الذي سيعم فور تخلصهم من رموز الشرك... ارتفع صوت أحد المارة بأنه سيذهب باكر إلى المركز لوضع حد "للمسخرة" التي استشرت في البلدة... عندها ضحك رمضان ساخرًا

وفر مشوارك... نقبك على شونة يا فالح... المركز في جيب مولانا
يا راجل... شوف إزاي... هو مولاك حط المركز في جيب اللباس
بعد ما سحبوه بيه من الدار

ضج الجالسون بالضحك فاختفت السخرية على الفور من وجه رمضان وقام ليتشاجر مع الرجل... استيقظت فاطنة زوجته على ضجيج

رتفع صوتها من داخل الدار بالسباب، فاكتفى بتوعد الرجل
، خفيض وعاد إلى داره.

.م الترقب والتوتر باب الحجازي النوم، الجميع ينتظر ما سيسفر الد.. حتى خرج المصلون لأداء صلاة الفجر يتحسسون طريقهم في الليلة حالكة الظلمة... في طريق العودة إلى الدور والاستعداد ليوم . أفاقت الجموع على صراخ أحدهم الذي أخذ يعول

بادي الوقعة السودة... يا نهار إسود..

،ان الرجل يرتعش وهو يشير نحو الباب... تعلقت الأبصار بموضع . الذي، برغم الظلمة الحالكة، بدا فارغًا... استيقظت القرية بأكملها على تلك الجلبة، البعض في غمرة الفزع اعتقد أن هناك من يريد سرقة ..، فأخذ معولًا أو فأسًا وانطلق نحو الباب... لم يتمكن أحد من صديق أن الباب قد اختفى... ارتفع عويل النسوة ليختلط مع صراخ الأطفال ليكون صوتًا واحدًا كئيبًا أخذ يرج القرية حتى ظهرت الشمس.

أصاب الجنون باب الحجازي... تجمعت القرية عن بكرة أبيها أمام الإمام تطالع مكان الباب الفارغ في ذهول تام... البعض ممن استعاد القدرة على النطق قال أن لصوص عزبة كامل هم من تمكنوا أخيرًا من اقتناص الباب... البعض اتهم الباشا بسرقته ودلل على ذلك برغبته في شرائه من قبل... فيما أكَّد آخرون أن تلك إحدى كرامات سيدي الحجازي الذي استعاد بابه حينما تخاذل الجميع عن حمايته... وتلك الأقاويل الأخيرة هي ما قضت مضجع الإمام وفواعليته... فبدلًا من الاستراحة من همه أصبح اختفاء الباب دافعًا على التحدي الذي أطل من عيون الناس في صلاة الجمعة... ظهر ذلك الأمل وتهامس الناس بقرب الخلاص من قبضة الإمام والفواعلية.

بعد صلاة الجمعة وفي الموعد المحدد تجمع الفواعلية عن بكرة

أبيهم عند المقام... يزيد من عددهم شباب ميت الشوكة... أحضر القاضي الشرعي تحسبًا لأي أعمال متهورة قد تصدر من الأهالي ... تنفيذ الفتوى... حضر الإمام والقاضي وجلسا على كرسيين خش... وضعا قبالة المقام... وارتقى كرسي آخر رجل طويل من الفواعلية بر... جلبابًا داكنًا، تلا الرجل ذو الوجه الجهم نَصَّ الفتوى الصادرة من الل... الشرعية وأتبعها بالأسانيد الشرعية... تصاعدت الاحتجاجات وتعا... الأصوات الغاضبة بين جموع الأهالي قبل أن ينتهي من تلاوة ما عنده

حتحرقوا إيه... مخلاص ربنا حمى حاجة أولياءه

ربنا ياخدكم قادر يا كريم

والله ما حتشوفوا خير يا ظلمة

اتجه بعض شباب قرية ميت الشوكة نحو الأهالي لإخراسهم وبدأ... التحرشات وشحن الجو بالتوتر حتى كادت الأعصاب تنصهر تحت وطأ... الغضب.

"وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا[1]"

هكذا قطع الصخب صوت القاضي الشرعي القصير الذي ارتقى كرسيه، وأكمل

الفتوى مدعمة بأسانيد من القرآن والسنة... وإحنا النهارده بنطبق شرع ربنا... ومحدش يقدر يقول كلمة بعد كلام المولى عز وجل... اتقو الله يا عباد الله

---

(1) ...رة الأحزاب - الآية ٣٦.

انطلقت حناجر الفواعلية بالتكبير والتهليل بعد قول القاضي... ..رعان ما تبعتها أصوات الفؤوس والمعاول التي أعملت في الضريح و..ط نظرات الأهالي التي فاضت بالحسرة والعجز... استمرت سواعد الهدم في العمل ساعات طويلة حتى اختفت معالم المقام وسوي بالأرض حلول المغرب، ثم ارتفعت النيران تأكل السمعخانة.

جلس الرجال حول المكان يبكون بلا تحكم، كأطفال فقدوا ..يلهم... ظلّت الأدخنة تتصاعد من السمعخانة طوال الليل... تنتشر في الدور، تتسلل من تحت الأبواب ومن النوافذ الخشبية المغلقة، تصل إلى من حاول التخفي من الواقع الجديد... كان مشهد القرية بلا باب أو مقام مُقبِضًا... حتى من لم يكن يشارك في جلسات السماع شعر بذات الضيق... جزء من تكوينهم مات تلك الليلة... كيف لما كبروا في كنفه أن يحترق هكذا أمام أعينهم وكيف تتصالح باب الحجازي مع ذاتها بلا باب!

صباح اليوم التالي، وقف الفواعلية بجوار الجامع يطالعون اللافتة الصدئة... حتى خرج الإمام من الصلاة ولحق بهم... راقب الأهالي الجدل الدائر بينهم... بعضهم يشير إلى شيء ما في اللوحة والبعض يدقق النظر... إلى أن انتهى الجدل إلى صمت تقطعه بعض الدعابات والضحك بينهم، ثم أخرجت الفرش وعلب الدهان وأعيد طلاء اللافتة التي باتت تحمل كلمتين كتبتا بخط يدوي وبلون أخضر زاه على نفس الخلفية الصدئة.. اقترب الأهالي بعد رحيل الفواعلية يتساءلون ما الذي تحمله تلك الحروف، إلى أن قرأ لهم صبي صغير الكلمتين الجدد، "كفر ترما

برغم الضيق والنفور، إلا أن الكثير آثر السلامة... كتم غضبه وعاش حياتين، إحداهما ظاهرة في الشوارع والغيطان والجامع حيث يظهر الفلاح الراضي القانع وأحيانًا المؤيد لما يحدث... أما في المساء، وعلى

مسطبة الأقرباء المؤتمنين، يصب جام غضبه على الإمام والهواء؛ يتحدث الجميع عن الموضوع الوحيد المتبقي لباب الحجاز بهويتهم... ليبقى لهم بعض الأمل... يتحدثون عن الباب

الناس ماشية تكلم نفسها... يكونش الباشا هو اللي سرقه

هكذا قال أحد الجالسين على المسطبة فسارع آخر بقوله

تعرفوا مين اللي أخد الباب

تحولت إليه الأنظار في ترقب وفضول

الوله سعيد الرفاعي

أطلت خيبة الأمل من الوجوه وقال أحدهم

سعيد تأتأة؟ سعيد الملبوس!! أنت شارب حاجة يا وله

ضحك الجمع فيما مضى الرجل يقول

انتم ناسيين إن سعيد الوحيد اللي وقف في وش الإمام. جدعان ده أكّله علقة موت قعّدته في داره أسبوع بيشخ في مكانه

تعالت ضحكات الجميع فأكمل الرجل في حماسة

بيقولوا إن سعيد شايل الباب في مكان ميعرفوش الجن الأزرق

انضم آخر للحديث في حماس

الواد كامل بيقول إنه كان قاعد في المقام قبل الباب ما يتاخد

بدأت صورة تتكون في خيال الجالسين... سعيد الأخرس يقوم بما عجز عنه الجميع... يحمل الباب متعدًا به في جنح الظلام، حاميًا عتبةَ الأولياء.

يا جدعان انتم بتقولوا إيه... يشيل الباب إزاي؟ ده عايز خمس رجالة على الأقل

ربنا موجود يا محمدي... وهو قادر يساعد اللي قلبه نضيف... والله احنا ما رجالة ولا نستاهل الشنبات اللي علي وشنا دي... والواد سعيد اللي مش عاجبكم ده برقبتنا كلنا

صمت الجميع... وصورة سعيد المؤيد بالكرامات تتغلغل في أذهانهم... انتشرت تلك الرواية همسًا بين المساطب والدور وفي مجالس النسوة... وسرعان ما أصبح سعيد الأخرس بطل شعبي يوازي الهلالي في صولاته وجولاته... أصبحت حكاية "العلقة" التي تجرعها الإمام على يديه هي التسلية المفضلة للنسوة والأطفال، الذين راحوا يتغنون بشجاعته ويهبونه صفات الرجل الخارق، وصار التنبؤ بما سيفعله سعيد بعد ذلك وما سيحل بالباب مصدر جدل بينهم... فقال البعض أن سعيد عاد بالباب إلى مكانه الأصلي... إلى الحجاز... بينما أكد آخرون أن سعيد ذهب بالباب إلى مكان بعيد حيث سيبني مقامًا جديدًا لسيدي الحجازي... بينما قيل أنه دفنه في أرض سيد خطاب حتى يتخلص من الإمام ومن ثم يعيده إلى مكانه الأول في أبهى حلله، نالت تلك الرواية استحسان الحاضرين، لما تحمله في طياتها من أمل في غد مختلف... برغم صعوبة تلك الحياة المزدوجة المليئة بالهمس والقلق... إلا أن رؤية أحد المجاهرين بالاعتراض يسقط تحت خيزرانات الفواعلية كان يدفع بداخل البعض سعادة حيوانية مشوبة بالخجل... سعادة النجاة من الخيزرانة... يتجذر بداخلهم يقين أن هؤلاء المجاهرين ماهم سوى مجموعة من الأغبياء لا يستطيعون انتظار الفرج.

## (١٣)

تسلل ذكر الحكاوي عن بطولة سعيد الرفاعي إلى زينب وأم سعيد، التي أحست لأول مرة أنها فخورة بكونها أمًّا لسعيد... لكن القلق اليومي لم يكن يدع مجالًا للفخر أو السعادة... فمع اقتراب نفاذ صبر الإمام وثبات زينب، لم يعد الفواعلية يكتفون بحبس مصطفى في الدار فتنوعت سبل المضايقة... تستيقظ الدار فجر كل يوم على طرقات الباب الهسترية التي أصبحت عادة، يزداد وقعها حدة حتى يكاد يقتلع الباب حين يأتي الفواعلية لإيقاظ مصطفى للصلاة... ينتظرونه في الخارج بوجوه جهمة إلى أن يخرج معهم إلى جامع الحجازي.

لم يبد مصطفى تذمرًا للاقتحام القسري لحياته الذي يزداد توغله حدة يومًا بعد يوم... يعلم أن ذلك ما يريدونه منه، أن يقاوم، فيناولهم المبرر للتصعيد... وهو يخشى التصعيد... يخشى أن تخور مقاومته... يخشى من الأفكار التي بدأت تعبث بخياله، وروائح القاهرة التي عادت

.. يخشى "عفريت مصر" الذي يوسوس له بالهروب من المستنقع
ر، وقع فيه.

انهمر المطر في طريقه إلى صلاة الجمعة ظهر ذلك اليوم فتمازجت
مياه المطر مع الوحل والبيوت والتبن العطن في مزيج لا تستساه أنف...
ا مصطفى نعليه أمام باب الجامع الذي تناثرت بجواره صرامى ونعال
الحصى... داخل الجامع، استقبلته ابتسامة الإمام الساخرة التي رفعت
ارات الغدر فسقط قلبه بين قدميه... راقب مصطفى الرجل يرتقي
يرتفع صوته يرج الأرض... في غضب هادر راح يقول أن
ء ص المسلمين قد انتُهك، وأن جزءًا جديدًا من أرضهم قد اغتُصب...
... ها تعلقت العيون بالإمام واحتبست الأنفاس حتى لم يعد يُسمع سوى
صوت المطر المنهمر في الخارج... استرسل الإمام في وصف ما حدث
خلال الأيام الماضية... كيف تسلل "الشيوعيون" الملاحدة متخفين في
اللباس الأفغاني وقاموا باحتلال الأبنية الحكومية في كابول ثم أعدموا
الرئيس الأفغاني المسلم بدم بارد.

أخذ يشرح بتفاصيل تقشعر لها الأبدان كيف دمر السوفيت
"الشيوعيون" دور المسلمين... اغتصبوا النساء وقتلوا الشيوخ
والأطفال... ثم راح يحذر من المد الشيوعي الذي يجب أن يُجتث من
مصر... تسارع نبض مصطفى عندما حذر الإمام من السقوط في حبائل
الشيوعين المصرين الذي لازال بعضهم يقبع في السجون، بينما خرج
البعض الآخر، حرًا طليقًا ينفث سمومه في عقول المسلمين الغافلين...
أحس مصطفى أن الرجل ينظر إليه مباشرة وهو يقول

بل إن بعض الشيوعين استطاع التغلغل في أحشاء الوطن حتى
وصلوا إلى الأرياف... إلى قريتكم الصغيرة... فالحذر الحذر
عباد الله من مثل هؤلاء الكفرة

تلوت أسماء مصطفى... بعض الفواعلية لم يصبر حتى يخرج م
الجامع ليقذفه بتلك النظرات النارية بينما الإمام يصيح بأن نصرة إخوانا
المستضعفين في أفغانستان تبدأ من هنا... من كفر ترما... بتطهير الدار
من الشيوعيين أو من ينتسبون إليهم.

ما تلى تلك الخطبة كان تصاعدًا محموم الوتيرة لم يتمكن مصطفى
من مواكبته... خلال أيام معدودة نجح الفواعلية في تشويه صورته
تمامًا... حاول توضيح موقفه... حاول تصحيح الصورة... حاول مجرد
الحديث مع من كانوا يرونه بالأمس القريب الأفندي المتعلم... لكنهم لم
يعودوا يرون فيه اليوم سوى الشيطان الواعظ الذي يحاول استمالتهم عن
طريق الحق والدين بمعسول الكلام... فيتعيذون بالله ويصمون آذانهم
وعقولهم على ما ألقى الفواعلية بها من قاذورات... تحولت الهمهمات
إلى سباب مغطى لدى مروره بالرجال في طريق عودته إلى داره من
العزبة بعد أن رفع الفواعلية عنه الحصار في داره ليكتوي بنار الأهالي
الغاضبة... وقع همس "الشيوعي" يخرق أذنه كلما مر بشارع... لم يعد
مرحبًا به في معظم المجالس بينما خشى الآخرون أن يتواجدوا معه في
مكان واحد... ملعونة تلك الرغبة في السيطرة، ذلك الكبر والعند الذي
تملك نفس الإمام فقرر الانتقام ممن يشاركه نفس الهواء الذي يستنشقه...
ملعونة تلك الكلمات التي حولته في نظر أهل القرية إلى عدو يتربص بهم
وجردته في أعينهم من إنسانيته ليتبقى التهديد الوهمي... ملعون هو ذلك
الخوف الحيواني الذي يحول البشر أعداء تداعبهم أحلام الخلاص من
أصدقاء الأمس ومن ثم نسيان أنهم وجدوا من الأساس.

تلك الليلة عاد أخواه الصغيران وقد بدت عليهما آثار العراك، قالوا
أن العيال أخذوا يعايرونهم بأنهم إخوان الشيوعي... لم تعد أعصابه
تحتمل المزيد من التوتر.. لم يعد يحتمل سماع صوت زينب، التي أصبح

اها أس المصائب... يكره سماع صوتها الذي يملأ الدنيا ضجيجًا حتى
هي تعنف إخوته بقولها أن مصطفى أفضل رجال القرية... يكاد يجن
ود الصياح بها لتصمت أو تموت... هرب من الدار إلى ملجئه الوحيد
عفي... آدم السناري الذي يتسلل معه إلى سطح دار عمه ليشرب
جوزه... الغريب أنه لم يذق طعم الحشيش إلا بعد أن اتهمه الإمام
شربه... حدثه آدم تلك الليلة عن السادات الذي يحاول صرف النظر عن
ضغط الداخلي بتوجيه انتباه الناس للاحتلال السوفيتي في أفغانستان

بقى عندنا لجان لمناصرة الشعب في أفغانستان... مفيش لجان مناصرة للشعب المصري الجعان... صحيح، تعرف إن الحشيش بقى قانوني في آمستردام... الواحد أول مرة يفكر في الهجرة بجد... الكرة الأرضية كلها حتعيش من بكره في آمستردام

لم يشارك مصطفى آدم الضحك

الواحد مبقاش ليه نفس للضحك يا آدم... كله نكد في نكد

البني آدمين كائنات اتخلقت علشان تنكد على بعض

هكذا قال آدم بعد أن استوى مزاجه وناول الجوزة لمصطفى وأكمل

يا ابني السعادة دي أكبر وهم... البني آدم صرصار بيدور على أي معنى لحياته اللي ملهاش أصلًا معنى... فاخترع وهم السعادة علشان يعرف يعيش... سراب الصراصير بتجري وراه... لو وصلت عند السراب واكتشفت إنه وهم حتفوق... لكن لو لسه شايفُه بعيد حيبقى في أمل تكمل وحتفضل تجري... الحرية الكاملة في التخلص من الأوهام... من الحبال الدايبة اللي بتعلق بها زي العيل ما بيتعلق في بز أمه... لما تعترف إن سيد خطاب والإمام والسادات وأي بني آدم بنعمله إله ونعبده عديم الجدوى

وملوش لازمة... لما تعرف إن اللي مالي الدنيا دوشة وكلام ..
وفلسفة حيموت صرصار عريان... وفي لحظة حيتحول ا..
الناس تقلبها يمين وشمال وترميها تحت التراب قبل ما
وتملى الدنيا تتانة... ساعتها بس تقدر تعيش حر

حرية إيه اللي بتتكلم عنها... أنا مبقاش يحركني غير الرعـ
والرعب هو اللي بيحرك الناس وهو اللي مخلي الكل ساكت .
اللي عايز يبيع أختي... وفي منهم بيقول تـتاهل أخت الشيوعي
وبكرة ولاد الوسخة يموتوني بإيدهم

سكت مصطفى بعد أن ضاعف الحشيش من كآبته

عندك حق... زمان العبد كان بيرضى بعبوديته علشان الخوف
ودلوقتي بيستعبدونا بالخوف... الخوف من الخروج ع..
النظام... الخوف من المجهول... وباعوا لنا أوهام السعاد..
اللي متحققش... نصحى يوم بعد يوم نجري في مملكتهم ورا
السراب... وتيجي للناس لوثة استهلاك محصلتش في تاريخ
البلد بعد ما قعدنا نغني ١٨ سنة للاشتراكية... تخيل... أغاني ..
مؤمن... وبعدها يقولك الاشتراكية وحشة... سيبك من القومية
والكلام القديم ده... انت في عصر الانفتاح... وتدخل مصر
ماركات عالمية للبس ومطاعم تقدم أكل غريب علينا واللي
ميكلش برجر يبقى إخص بلدي... الكل عايز ياكل برجر علشان
يبقى مبسوط... الأسعار ولعت والناس فقرها زاد فتعاستها زادت
وربطوا التعاسة بإنهم مش قادرين يشتروا البرجر... فاشتغلوا أكتر
ليل ونهار في حلال أو حرام ميفرقش... وضاع العيال بين أب
مش موجود وأم بتشتغل ليل نهار... المهم العيال ياكلوا البرجر
زي ولاد الجيران علشان يبقوا مبسوطين... أمال أنا سبت القاهرة

ليه... الناس بقت عاملة زي البهايم... مستني إيه من جيل حيطلع مثله الأعلى حسين فهمي بقميصه المفتوح وعربيته السبور وحلمه بعيش قصة خلي بالك من زوزو

، اول آدم الجوزة منه وسحب نفسًا عميقًا احتفظ به قليلًا في صدره ، ، أن يطلقه ويكمل

حتى الباشاوات عبيد... أي كلب منهم ميقدرش يستغنى عن الخدامين اللي بيغسلوله هدومه ويعملوله أكله ويزرعوله أرضه وينظموا حساباته وينامو مع مراته ويولدوها عيل مش ابنه ويحرسوا سرايته... وفي الآخر يتف عليهم فيعيطوا شوية وبعدين ينسوا مآسيهم... تخيل لو كل دول قرروا ميبقوش عبيد... الدنيا حيبقى شكلها إيه

عاد مصطفى تلك الليلة يتلمس طريقه إلى الدار... برغم تخبطه من ;, الحشيش إلا أنه لم يكن من العصي عليه حساب عواقب ما ينتظره... الإمام ينفث سمومه في مجتمع من العبيد اهترأ حتى أصبح جاهزًا ليأكل ،ضه البعض، الباشا كان على حق عندما تنبأ بذلك... كل ما هنالك ا،ه أصبح على رأس القائمة وقد التف القوم حوله بسكاكينهم وظهرت ا، ابهم... الأمر أصبح يتعلق بالحياة نفسها... كان عليه الحديث إلى ، ينب وإقناعها بأن ترحمه... وليتحمل هو العار والذنب الذي سيطارده ،مة حياته.

باتت زينب تلك الليلة تحت المربع الفارغ من سقيفة وسط الدار بعد ان أنهت شجارًا عنيفًا مع مصطفى... لا تصدق أنه يدفع بها لتقبل بتلك الريجة... راحت شتى أنواع الأفكار والمشاعر تعصف بها وهي تنظر إلى النجوم في سكون تام لا يقطعه سوى قطرات الماء التي تسح من الزير

لتسقط في إناء وضع تحته... تسترجع كلمات أخيها العنيفة. بالأنانية... لا أحد يفهمها... هي نفسها لا تستطيع شرح ما بها تستطيع تخيل نفسها بين أحضان رجل... هكذا كانت منذ أن شبت، يومها هذا... مجرد محاولة تخيل الزواج تصيبها بالاشمئزاز تتعذر بشتى أنواع الأعذار كلما تقدم لخطبتها شابٌ جديد... هيته أو حديثه ليغير شيئًا من ذلك النفور والعصبية التي تنتابها حتى الزواج أيًا كانت العواقب... لم يكن صراخ أمها أو دموعها المسن... تدفعها لتغير رأيها... واليوم العريس كهل يريد شراء جسدها... لذ تدرك أن اليوم ليس كالبارحة... حتى أمها لم تبد تلك الرفض ال لتلك الزيجة كما فعلت عندما جاءتها خالها بنفس العرض... هنالك دا التهديد لسلامة ابنها الأثير بما يثة الإمام من سموم في عقول أهل القريه ألجم خوفها على مصطفى لسانها وجعلها تكتفي بغمغمة بائسة... كما ا. الإمام يلمح إلى التعريض بشرفها إن لم تخنع لمشيئته... كم تكره ذا. الملعون... اندفعت الدموع من عينيها حارة كالحمم على وجنتيها في صمت... لم تدفعها الأقدار إلى حافة الهاوية... تتساءل متى توقفت عن كونها صبية وركبتها الهموم فأصابها الهرم مبكرًا... كيف اغتيلت بهجتها ولِمَ قُدِّر لها أن تكون أنثى في مجتمع لا يعترف باحتياجاتها. هل سيجعلها العند تضحي بأهلها جميعًا كما قال مصطفى.

حاولت نبش ذاكرتها عن لحظات السعادة في حياتها، وهي بعد طفلة قبل أن تحمل للدنيا خارج لهوها همًّا... كم تفتقد تلك اللحظات.. تتذكر تلك الفترة التي هاجمتها الكوابيس كل ليلة، كانت تستيقظ تصرخ بلا توقف إلى أن يأتي أبوها ويحتضنها، تبكي في صدر جلبابه، تستنشق عبق الرجولة الراسخة، مزيج من الدخان والعرق ورائحة عطر باهتة، حتى تنام من جديد، حينها فقط تتوقف الكوابيس، كم تفتقد الأمان الذي رحل

ا، ركنها الركين الذي ما كان ليضيعها في مثل هذه المواقف...
اا، ذن الركين رحل وتركها لتتخذ أصعب قرارات حياتها بنفسها...
•• في صحراء شاسعة بين قلاع الأنانية وواحة التضحية... تمنت أن
،،، ذابوسًا ينتهي بصريخها... لكنها لم تستيقظ!

' ،لدري لم تذكرت مقولة الشيخ عبد الكريم لها في المولد منذ سنوات

مفيش حاجة في الدنيا دي تخوفك

هكذا قال بصوتٍ عميق رائق، وأوصاها بالصبر... هل كان يعلم ما
صيبها... هل كان يوصيها باختيار بعينه... وما معنى الصبر... أهو
،ر والثبات على موقفها أم هو التضحية والصبر على البلاء... ظلت
، ذر نفسها أن "مفيش حاجة في الدنيا دي تخوفك"... إلا أن الكوابيس
اا ي لم تزرها منذ كانت طفلة عاودتها، كوابيس لمستقبل أسود انتزعت
ها القدرة على النوم حتى تورمت عينها وأصبحت، كما تقول أمها،
مصيبة لا تُطاق... تراودها خيالات أسواق النخاسة قديمًا التي كانت تعج
،أمثالها... تصطف الجواري عاريات يتفحص الشاري الأبضاع والأفواه
، المؤخرات للتأكد من خلوهن من الأمراض... يتفحصهن وهو يتخيل
أنه ليس مثلهم... يتخيل أنه من طبقة الأسياد التي لا تنطبق عليها قوانين
الجواري والسبايا... لم تعد تحتمل الشجار المتكرر مع مصطفى كلما
تحرش به الفواعلية والأهالي، أخذت تركن إلى تخيل الصبر بمعنى
التضحية، ترى نفسها سبية من سبايا العصور الغابرة... وقد حانت
لحظة رحيلها... كم تفتقد أباها... كم تفتقد سعيد... لكن لا فائدة من
الانتظار... وقوع البلاء أفضل من انتظاره.

ذات صباح، خرج البط والدجاج من دار علي الرفاعي يلتقط ما يرمى
له من فتات الخبز والحبوب، وخرج معه الخبر برحيل زينب إلى البندر

للزواج... هكذا في صمت قهرت أحلام الفتاة وكسرت إرادة أسرتها المشتتة... انتابت نساء باب الحجازي حسرة لا توصف... شيء ما خُطِف من القرية برحيل زينب.

تلك الليلة جاءت امرأة قصيرة ذات ثديين ضخمين يرتجان بمشيتها المحمومة إلى دار السناري بحثًا عن بعض النميمة وجلست تلتقط أنفاسها لتكمل الحكاية التي أصبحت على كل لسان

أي والنبي... كان عندها العادة وراحت... انتم ماشفتوش لونها كان مصفر إزاي يا نضري... خطفوها بالغصب

قابلها استنكار الجالسات فقالت

هم دول بيفرق معاهم... دول ولاد كلب... وبناع الظالم... بكرة تموت يا أبو جبه واعمل لك فوق قبرك قبَّة

أما في مجالس الرجال على القهوة التي جمعت المعلمين منهم، تسرب خبر أن العريس من أثرياء الخليج فعم الصمت بعده... وعندما عاد كل منهم إلى داره الفارغة، حينها قالت العيون ما عجزت عن قوله الألسنة... تكلم الجوع الأخرس... لم ينطق باستنكار ما حدث، بل حمل الغبن والحسد وأحيانًا الحقد على حظ زينب السعيد!

## (١٤)

مرت الأيام منذ رحيل زينب وبدا أن ما أصابها كان مجرد لسعة برد لم تنجح في الوصول إلى ضمير القرية الذي تلحف بجلود الأهالي السميكة... الكل منشغل في همه... حتى الفلاحين في عزبة الباشا، لم بعد وجود مصطفى في وسطهم يذكرهم بما حصل للتو لأخته، لازال بعضهم يتجنبه لكونه "شيوعي"... لكن الهم الشاغل في ذلك اليوم كان التأكد من الإشاعة التي أخذت في الانتشار منذ أيام في العزبة... تجمع عدد من الفلاحين بجوار ظل شجرة وراحوا يدفعون بأحدهم دفعًا حتى نغلب على اشمئزازه من مصطفى وقال في لهجة لم تخل من الامتعاض

عايزين نحط حد للقيل والقال... كتر الكلام وحش وانت لازم تروح تكلم الباشا وتعرف إيه أصل الموضوع ده

أومأ مصطفى بالإيجاب وهو ينظر الى السراي حيث بات الباشا ليلته... كان فؤاد خيري باشا قد استيقظ في السابعة من ذلك الصباح...

مد يده إلى المائدة الصغيرة المجاورة له ليلتقط العسل الممزوج برحيق ملكات النحل ثم قام بعدها ليتناول كوبًا كبيرًا من الشاي الثقيل، يتنقل خلال احتسائه بين عناوين الصحف التي تسترعي انتباهه... كانت تلك من الليالي القليلة التي بات فيها الباشا في العزبة، ولعلها الأخيرة، بعد انتهاء إلحاح نادية هانم على المجيء للقرية منذ اختفاء الباب وهدم المقام... زادت أخبار الصحف من تعكر مزاجه فخرج إلى شرفة غرفته المطلة على ما تبقى له من أطيان... لازال يتذكر عندما كان طفلًا يقف مع والده في الشرفة التي كانت تطل حينها على أطيان لا يرى لها آخر... كم يتمنى أن يخلص نفسه من سلاسل الذكريات والماضي الذي صار حبيسه.

عاد لتقليب الصحف أثناء تناوله فطورًا خفيفًا أُحضر له في الشرفة... كانت العناوين المحلية تركز على نتائج الاستفتاء على التعديلات الدستورية التي مررت بموافقة ٩٨.٦٪ من المصوتين... ندت عنه ابتسامة امتزجت فيها السخرية بالمرارة وقلب الصفحة إلى الأخبار العالمية التي لم تكن أقل جنونًا من الأخبار المحلية... صدام حسين يبدأ حربًا خارجية مع إيران وأخرى داخلية مع الأكراد والشيعة داخل العراق... وزير الدفاع الباكستاني، الذي عين نفسه رئيسًا وأعلن في أكتوبر الماضي نيته إقامة دولة إسلامية في باكستان بعد أن أعدم رئيس الوزراء الذي انقلب عليه، يعلن الحرب على الغرب والتقاليد الغربية كالانتخابات اللي لم ترد في الشريعة الإسلامية... في صفحة أخرى قرأ تحليلًا لتداعيات مقتل عشرين ألفًا من الأفغان في حيرات بقنابل طائرات السوفيت ردًا على إسماعيل خان الذي أعلن الجهاد على الشيوعية ومثّل بجثث مستشارين سوفيت وعائلاتهم بعد قتلهم قبل الاجتياح السوفيتي لأفغنستان... كم يكره هذا العام الذي لا يريد أن ينقضي دون أن يفسد العالم بأكمله.

كان الباشا يدرك أن هذه اللحظة ستمثل انحرافًا حادًا في مسار التاريخ... لعل العالم سيتذكرها باللحظة التي فُتح فيها صندوق باندورا لتخرج منه اللعنات على الجميع... سيجد كل المتعصبين والأصوليين جنتهم المفقودة أخيرًا في تلك الحروب... خاصة مع ظهور منظرين للجهاد من أمثال عبد الله عزام الذي أعلن وجوب الجهاد في أفغانستان... ليظهر الجهاد العالمي الممول من الخليج وينهمر المجاهدين من كل حدب وصوب على حدود أفغانستان للمشاركة في الجهاد المقدس وتبدأ الحرب بين الدول العظمى بالوكالة في ملاعب بعيدة عن بلادهم.

حاول من جديد أن يصرف عقله عن تلك الأخبار التي تعصف بكيانه فترك الصحف وقام ليعزف قطعة موسيقية لشوبرت على البيانو الإيطالي العتيق، الذي توارثته العائلة على مدى أجيال، حتى جاءه الخادم يخبره أن مصطفى ينتظره في غرفة التدخين فأخبره أن يأتي به إلى غرفة الموسيقى.

عندما دخل مصطفى ظل صامتًا كي لا يقطع تلك الموسيقى التي حملته نغماتها فوق عالم القرية البائس إلى عالم الأوبرا الجميل... ذكرته الموسيقى أن هناك شيئًا جميلًا في هذه الدنيا يستحق أن تعيش من اجله... حملته النغمات وطافت به في جنبات السماء الصافية بعيدًا عن القبح والبؤس إلى أن انتهى الباشا من المقطوعة وجلس بجواره

انت شاركت في الاستفتاء

هكذا قال الباشا فور جلوسه فأجاب مصطفى بالنفي

كل المشايخ بيهللوا للسادات علشان دخل المادة التانية على الدستور وحط الشريعة مصدر من مصادر التشريع... ومحدش اتكلم عن المادة ٧٧ اللي ممكن تخليه رئيس مدى الحياة... نظرية السم في العسل... عايز تمرر حاجة لزقها في الدين

تنهد الباشا قبل أن يقول

انتم معشتوش لما كان في دستور بجد بيتحط للبلد دي" ثم راح يقص، كما هي عادته، عن مصر التي لم يرها مصطفى... في عشرينيات وثلاثينيات هذا العصر حين كانت مصر منارة للثقافة في الوطن العربي... كُتب دستور ١٩٢٣ وشارك المصريون لأول مرة منذ عهد الفراعنة في حكم أنفسهم، ورغم العقبات وبعض الردة التي شهدتها الساحة السياسية... إلا أن حركة التنوير كانت تكتسب زخمًا وتنمو يومًا بعد يوم... فترى أسماء أدباء وشعراء تلمع، وصحفًا ومجلات تحمل مختلف الآراء من مختلف المشارب، وفتحت السينمات وأنشئت استوديوهات التصوير وتوسعت جامعة القاهرة... وشهد المصريون نقلة حضارية فاضت من مصر لتنير العالم العربي القح... ختم الباشا كلامه بقوله أنه للحظة لم يجد علينا القدر بمثل تلك الأيام وبمثل ذلك الدستور... حتى أن مصر ظلت بلا دستور دائم منذ انقلاب يوليو حتى تولى السادات، وهاهو السادات يستخرج تلك الحيلة القديمة المستهلكة من جعبته بالاستعانة باليمين الديني لتشويه الدستور الجديد.

الحاكم عندنا لازم يتمسح في الدين، من أول الفرعون الإله، لحد نابليون اللي عمل مسلم لما نزل أبو قير، والملك فاروق اللي حاول يثبت أنه من الأشراف، والسادات اللي مسمي نفسه الرئيس المؤمن... ياراجل ده حتى الناس سمت هتلر الحاج محمد هتلر علشان تحبه

ثم ضحك وقال بنبرة ساخرة

بمناسبة الرئيس المؤمن... انتم معندكوش تليفزيونات هنا... لكن

آخر تقليعات الرئيس المؤمن أنه قرر إذاعة الأذان في التلفيزيون، تخيل نفسك قاعد بتفرج على فيلم لميرفت أمين بالبكيني يقطعه أذان... الناس تكبر وبعدين ترجع تتفرج على البيكيني... عارف انت البيكيني يا مصطفى

ابتسم مصطفى وأومأ فتنهد الباشا وقال

في ناس أصحاب رؤية عندهم حلم... الحلم ده أكبر منهم وجايز أكبر من اللي حواليهم... لكنهم بيسعوا لتحقيقه بإيمان زي إيمان الدين، والكل بيتلف حولين رؤيتهم دي... للأسف من زمان محدش حكم مصر كان عنده حلم لمصر أكبر من شخصه، ومن بعد عبدالناصر مبقاش في حلم أصلًا... السادات بيتعامل على أن مصر يوم ما ترقى تبقي جارية عند أمريكا... وكده البلد عمرها ماهتتحسن

شرد الباشا وصمت لبرهة فتنحنح مصطفى قبل أن يقول ما جاء من أجله

بعد إذنك يا باشا... في إشاعة وكلام كتير في العزبة... وأنا كنت جاي علشان أتأكد من حضرتك... الناس بتقول إنك ناوي تبيع العزبة يا باشا

العزبة اتباعت فعلًا... إحنا بنخلص في الأوراق والتسجيل في الشهر العقاري

نفر فاه مصطفى للحظة قبل أن يعاود السيطرة على انفعاله

ليه كده يا باشا

- نقعد نعمل إيه في وسط القرف ده

ماهي مصر كلها كده يا باشا... وانت مكنتش بتيجي العزبة ا
وأنا مستعد...

قاطعه الباشا

احنا حنسيب مصر خالص يا مصطفى... حنروح أمريكا قرايبنا لحد ما نشوف حنستقر فين... مينفعش نعيش في بلد بتهدم البهجة والجمال... ومينفعش نعيش حياتنا زيع القطيع ناس غ... بيفكرولنا ويقرروا نعيش حياتنا إزاي

عندما نظر مصطفى إلى عين الباشا التي شردت من جديد، أحس ا... يشاهد مجد سبعة أجيال كاملة ملكت العزبة ينهار أمام عينيه... قبل أن يغادر مصطفى السراي أهداه الباشا "واكمان" به شريط سُجل عليه بعض حفلات الأوبرا ثم ودعه للمرة الأخيرة بدموع حاول أن لا تفيض من عينيه.

لم ينم مصطفى تلك الليلة... التراب يملأ سريره القذر والحشرات والبراغيث تعيث فسادًا في جلبابه الممزق... تأتيه أصوات كلبة كامل الذي صار يسرح في الطرقات على غير هدى منذ هدم المقام واختفاء الباب حيث كان يبيت... ويبدو أن كلبته قررت الليلة ألا تكف عن النباح فقام ونهره ليرحل بعيدًا عن الدار ثم عاد إلى فراشه... لكنه كلما حاول أن يغمض عينيه تهاجمه أحلام غريبة... يرى نفسه يركض حتى تكاد تنقطع أنفاسه تحت سماء ليس بها شمس تطارده أنياب على هيئة البشر وتحاول أن تفترسه بمساعدة مخلوقات شيطانية قررت أن تتغذى على ما يتبقى من جثته... طاردته تلك الوحوش حتى قام لصلاة الفجر.. وبعد أن عاد من الصلاة وتأكد من انصراف القواعلية إلى دورهم خرج ينظر حوله في حذر... سار على هدى صوت نباح كلبة كامل حتى وجده

..ا القرفصاء بجوار إحدى المـــاطب فجلـس إلى جواره وأعطاه
ں كسـر الخبز

انت تعرف فين سـعيد يا كامـل؟

أخذ كامـل كسـرات الخبز وظل ينظر إلى كلبـه في صـمت

عايزك تبلغه إني لازم أقابله ضـروري

## (١٥)

لم يصدق الإمام أذنيه في البدايه، أو لعله لم يستوعب، عندما جاء رجل في دكانه بذلك العرض المبطن

البنت على وش جواز وعايزين نسترها يا مولانا

هكذا قال الرجل الذي تحاشى النظر في عين الإمام

جلس الإمام يطالع الرجل دون إجابة... لم يكن ينتظر ثورة عارمة على "زيجة" زينب لكنه توقع الحنق أو حتى القليل منه... صرف الإمام الرجل بعبارات مطاطة تعده بالسعي لتزويج ابنته... ثم تكرر العرض المبطن، وازدادت وتيرة الآباء منكسي الرؤوس الذين يشتكون ضيق الحال والأفواه الجائعة التي لا تجد ما يغنيها بعد كل صلاة في جامع الحجازي، ثم ينتهي النقاش بالعبارة الثابتة "والبت عايزة تتجوز يا مولانا"... المشكلة التي لا يدري بها من يطالبه بذلك أنه لم يكن يملك سوقًا لعرض ما يسقط تحت قدميه من أبضاع.

زايدت الطلبات وأصبح البعض يتهمه بالتراخي حتى طلب رقم الهاتف الوحيد الذي يحفظه لكن أحدًا لم يجبه فعاود الاتصال بعد العصر ..لك فعل بعد المغرب بلا جدوى... كاد يفقد الأمل... إلى أن تلقى ..ابة أخيرًا صباح اليوم التالي فبادر محدثه فور رفع السماعة

أنا كنت خايف تكون سافرت

جاءه صوت فتحي المرهق

أسافر إزاي واسيب الشيخ في شهر العسل يا مولانا... الطلبات مبتخلصش

يا رب يكون مبسوط

ضحك فتحي فاغتاظ الإمام وندم على ذلك السؤال الغريب

مبسوط يا مولانا... إدعيله ربنا يبسطه كمان وكمان

تنحنح الإمام قبل أن يقول

ربنا يسعده... الناس هنا مش مصدقين الأملة اللي البت زينب فيها

جف حلقه لدى ذكر اسمها فتنحنح ثم اصطنع ضحكة عالية

ده حتى كذا واحد جه كلمني أشوفله عريس متريش زي الشيخ أبو خالد

تمنى الإمام أن يلتقط فتحي طرف الخيط ولا يضطره إلى التصريح اكثر من ذلك... ولم يخذله فتحي الذي سارع بالقول

العرسان موجودين يا مولانا... بس المهم العرايس يكونوا نقاوة

- كل فولة لها كيال

ضحك فتحي من جديد فاحمر وجه الإمام

عداك العيب يا مولانا... سنهم أد إيه

راح الإمام يعدد البنات، يحاول جاهدًا وصفهن بما قد يحلّي البضاعة في عين الزبون

كل ما كانوا أصغر كل ما كان أحسن يا مولانا... وطبعًا كلهم لاز يكونوا بنات

أصغر من كده! دول يبقوا عيال

ضغط فتحي حروف كلماته وهو يقول

أيوه أصغر من كده... بيتستنوا يا مولانا وكله بيعدي... مهر الصغيرة أكتر من مهر الكبيرة

كان ذلك كفيلًا بإقناعه... وعندما رحلت الفتاة الثانية من باب الحجازي بعد تلك المكالمة بأسبوعين، لم يعد الإمام قادرًا على مواكبة طلبات الزواج من الأهالي وأصبحت أسعار "المهر" معروفة لدى الجميع، تتناقل على المساطب ويفاصله فيها الأباء.

في إحدى الليالي كان الإمام خارجًا من الجامع عندما اتهمه أحد الفلاحين بمحاباة الآخرين وعدم الالتفات إلى ابنته

نصيبها حيجيلها في وقته

هكذا قال الإمام في صرامة فالتقط الرجل نعله الذي أوشك على التحلل

إمتى يا مولانا... الوضع ما يتحملش تأخير... العيال مبيطلبوش طلبات... ومهر البت يا دوبك يسد حاجتهم كام شهر

صرفه الفواعلية كي لا يؤذي الإمام بإلحاحه فنهاهم الإمام وقال المرجل المرتبك

ربنا لما يخلق الفم يدبر له رزقه... حاضر... أنت عارف إني متأخرش عليك

ولم يخلف الإمام وعده... لم يمر أسبوع حتى حضر فتحي، الذي صار وجهًا مألوفًا في باب الحجازي، ومعه عريس لبنت الرجل ذات الأحد عشر ربيعًا... أصبحت مهمة الفواعلية في تأمين دخول فتحي إلى القرية تزداد صعوبة بمرور الوقت... فمع معرفة الأهالي بهويته، أصبحوا يتدافعون ويلتفون حوله كلما ظهر... وكلما ازداد العرض من أبضاع الفتيات، كلما انخفض المهر!

تعايش الأهالي مع ذلك الواقع الجديد واختلقوا له المبررات... يرددونها فيما بينهم حتى أصبحت كالحكم المتوارثة... يشجعون بعضهم البعض على اختلاق المزيد من الأعذار لبيع لحم بناتهم كي يميتوا ضمائرهم إن تمكنوا من ذلك... لكن في صمت الليل، حين يغرق الرجال والنساء في الظلمة... تطالعهم حينها الوضاعة التي حاولوا التهرب منها... حينها لا ينفع التهرب من ذكر الواقع... لا يجدي التبرير الدنيء الذي يحاولون تخدير ضمائرهم به طوال النهار... ذلك الظلام الملعون يقتل المبررات... يقهر الفقر والجوع الذي أخفى الحقائق ليعود الضمير المكبوت ويتنفس.

## (١٦)

أنا مش حقدر أقعد في البلد أكتر من كده يا سعيد

لم يستوعب سعيد تلك العبارة في البداية... ظل يحملق في وجه أخيه الذي انعكست عليه آشعة الشمس من مياه الري فصنعت فسيفساء من النور والظل

يعني...

يعني أنا حياتي بقت على كف عفريت... الناس مش طايقاني... الفواعلية عايزين يخلصوا مني بأي شكل... وصاحبك مش راضي يخف لسانه عني

استقرت كلمه "صاحبك" في كبد سعيد لكنه لم يتأوه

وأمك واخوووو... ااااتك

معرفش... أنت موجود

أشار سعيد للغيطان حوله في ذهول وهو يطرد بيديه نحل البرسيم ، بابير البلح

مممووو... موجود فين

معرفش يا سعيد... كل بني آدم معلق من عرقوبه... والزعرة بينش عنها المولى... وأنا معدليش أكل عيش في البلد بعد بيع العزبة... جايز ربنا يرزق في مصر

جاهد سعيد ليقول لأخيه أن ابن يومين لا يعيش ثلاثة وأن "رب هنا رب هناك"... لكن مصطفى لم يجبه وبدا من عينيه أنه قد عقد العزم ولا جدوى من الحديث معه... فحاول سعيد أن يثنيه عن الرحيل بتذكيره أنه لم يجن من القاهرة سوى الحبس... عندها انفجر فيه مصطفى، قال أنه كباقي الحمقى من أهل البلدة لم ير من العالم سوى قريته ولم يخرج أحد من أسوارها... لا يعرفون شيئًا عن حياة أهل الحضر... يهيء لهم أن مجتمعهم هو أفضل ما يكون وما سواه هو الإثم المبين.

وانا دلوقتي الإثم المبين بالنسبة لهم... حس بيا يا أخي

حاول سعيد إقناعه بأن الناس ستفيق كما فاقت من قبل وأن الباب سيعود وتعود معه جلسات السماع التي يحبها... حينها أربكته جلجلة ضحكة مصطفى الصاخبة... بها ما بها من مرارة وسخرية

الباب دة أكبر كدبة في حياتنا

ثم قص عليه ما أخبره به فؤاد خيري باشا عن تاريخ الباب وحقيقة "مولانا" الحجازي... اتسعت عينا سعيد من هول ما يقوله أخوه وقبض على الصندوق المخملي في يده كأنما يحتمي به مما يسمع... تسارعت الأفكار وتشنج لسانه... حاول أن يقول شيئًا ما لكن الحروف اختنقت في حلقه.

سار مصطفى بعد أن ترك سعيد، مدفوعًا بالخوف البدائي بداخله، تدفعه غريزة البقاء في الطرقات الخالية من البشر... يحاول دفع أصوات إخوته الصغار بعيدًا عنه... يدفع صورة أمه التي شحب وجهها وهي تقترب منه، تكتم لوعتها، عانقته وترددت على باب الدار في أخذ عناق آخر قبل الفراق... لكنها ابتسمت ابتسامة مهزومة وأشارت له بالوداع حاولت الابتسام من جديد لكن شفتاها التي أخذت في الارتعاش وهي تجاهد دموعها وأدت تلك الابتسامة قبل أن تولد... أكمل طريقه دون أن يلتفت خلفه... قاوم رغبته في إلقاء نظرة أخيرة على من قرر تركهم لمصيرهم ومضى في طريقه متعمدًا عدم رؤية آدم كي لا يحاول إثناءه عن الهروب... لم يعد يستطع أن يتعايش مع عالم باب الحجازي الضيق الذي يكاد يطبق على صدره.

جلس في آخر قطار يخرج من المركز إلى القاهرة فيما يلي النافذة، يقبض على حقيبته الصغيرة فيما تناثر الرجال والنساء حوله في العربة بمرور الوقت كاد القطار يختنق براكبيه كلما زار محطة جديدة في طريقه إلى العاصمة... يأتي الكمسري عقبها ليلكز الراكبين كالقدر باحثًا عن التذاكر... أخذ مصطفى يفكر في حاله الذي قد يتحسن في القاهرة ربما يقدر حينها أن ينتشل أهله من تلك القرية الخبيثة... يراوده ذلك الشعور المألوف بأنه يجتث جذوره، يصبح وحيدًا من جديد... فأخرج "الواكمان" الذي أهداه له الباشا وأخذ يستمع إلى كونسرتو الأوبرا. دقائق وحلق بعيدًا عن عالم القرية والقطار إلى عالم الفساتين والسهرة. كان عليه البحث عن ذلك النقاء والصفاء الذي يرتقي به بعيدًا عن دونية التي تلازمه... شيطان البؤس لا يجرؤ على الاقتراب ممن حلق بين تلك الألحان الملائكية... توحد مع انغام التشيلو فلم يعد يرتدي ذلك الجلباب القذر... بل أصبح يتألق في بذلته البهية وسط حفل من بشر تزينوا في أبهى

ـالمهم ليحتفوا سويًّا بذلك الجانب الراقي بداخلهم، ليسموا بأرواحهم في تلك اللحظات التي تصرخ بها السُبرانو بكل ما يجيش بهم من مشاعر د سيل الدموع كالأنهار بلا تحكم ممن مس ذلك الصوت الملائكي وترًا بداخلهم.

تداخل هدير القطار مع الموسيقى في مزيج غريب... متوجهًا به تحت سماء اختفت نجومها إلى حياة جديدة محملة بالاحتمالات، مدفوعًا بحب الحياة ورهبة الموت... ترك القرية بمن فيها وراءه وملأ صدره بالهواء البارد الذي يدخل من النوافذ التي لا تغلق... هو كالجميع يتجنب كل ما يهدد حياته أو يذكره بالموت... نتخلص من الجثث سريعًا... نهاب المقابر... ونعترف بالشباب ونتناسى المصير المحتوم... فلم يجلد نفسه... حاول تجاهل أناشيد الربابة وجلسات السماع التي تداخلت مع موسيقى الأوبرا في مخيلته فلم يستطع وأخذ يبكي في هدوء لم يوقظ المسافرين حوله.

في تلك اللحظة كان سعيد يقبع في ظلمة الغيطان... افترش التراب واتكأ على الصندوق المخملي... لم يكن بجديد على مصطفى أن يدير له ظهره ويهرب... لازال يتذكر عندما هاجمه الربو في طفولته وتحالف مع جسده الهزيل في إبقائه حبيس الدار بينما مصطفى يلهو مع الأطفال بالخارج... وكما في حياة الكبار، التي هي امتداد مبهرج للطفولة، فللأطفال ترتيب طبقي... يبدأ بقمة الهرم حيث قادة "الشلل" من الأطفال كمصطفى، الذين يحركون باقي الطبقات التي تليهم، يتصارع الأطفال لنيل رضا القادة لتعلو طبقتهم تلقائيًا... وهكذا الطبقات دواليك حتى تصل إلى قاع السلم حيث يقبع هو... سعيد تأتأة... سعيد الأخرس... له طبقته الخاصة التي يبتعد عنها الأطفال كالجذام... حتى مجرد رؤية أحد الأطفال يتحدث مع سعيد تأتأة كفيل لجعله مادة للسخرية بين أقرانه...

هكذا كانت طفولته... إلا أن أباه، وبعد شجار عنيف مع أمه، كره أن ..
ابنه البكر منزويًا قعيد الفراش... تصور أنه لن يكبر ليصبح رجلًا إن ..
منعزلًا... فدفعه للاختلاط دفعًا... خرج يومها مع أخيه الأصغر مصطح..
ليلهو في الغيطان وليته ما فعل.

تأخر الصبية تلك الليلة في اللعب حول الحوض الجنوبي للقر..
الواقع بجوار المقابر، حتى اختفت الشمس وساد الظلام... هرع الص..
في طريق العودة إلى القرية مرورًا بالترعة الضيقة يتبعهم سعيد الذ..
حاول عبثًا الانضمام إليهم في اللعب... سبقوه ولم يلتفتوا إليه كأ..
ليس معهم... ما أقسى أن تكون مختلفًا في مجتمع يقوم على التناس..
وينفي المختلفين... إلا أن هناك هاجسًا آخر دفع ذلك الشعور بالغر..
ولو مؤقتًا... الخوف من الظلام... سعى خلفهم بكل ما أوتي من قو..
وهم يتلاكمون ويتصايحون فيما بينهم... إلا أن الربو العنيد جعله يتخلف
عنهم ولم يساعده الظلام في رؤية ذلك الحجر الذي سد طريقه فهوى
برأسه في الترعة الموحلة... لا يمكن وصف الرعب الذي شل حركته
وتفكيره وهو يسقط في جنح الظلام... حاول الصراخ، لكن سرعان ما
ابتلعه الماء والوحل وكتم صرخته... بعد عودة الصبية بدونه، خرجت
القرية بالكلوبات للبحث عنه، أو بالأحرى للبحث عن جثته بعدما قال
أحد الأطفال أنه رآه يسقط في الترعة... مما دفع الجميع للاعتقاد أنه
غرق... سمع سعيد صوت الرجال يصيحون داعين جثته للظهور لدفنها

يا طالب الدفنة حود

بُهت الأهالي عندما وجدوه واقفًا في الظلام وقد تحول إلى كتلة سوداء
من أثر الوحل... خلصوه من سجنه الطيني ليصبح سعيد صامتًا كالقبر
تناثر الكلام أنه مُسَّ وأن جنية الترعة جذبته واصطحبته إلى الغور العميق

. . ما ضاعف من نفور الصبية منه... وبالرغم من قدم تلك القصة إلا أنها لا
, ال تتردد في المجالس ومازالت الكوابيس تنغص منام سعيد حتى اليوم
...بيها... لكن الجزء المرعب من الكوابيس ليس سقوطه في الوحل في
ظلمة الليل، بل هو ما بعد العثور عليه، التهامز والتلامز ولسانه المعقوف
الذي لا يدفع عنه سهام السخرية السامة... ما لم يقله سعيد حينها أن
مصطفى هو الآخر رآه يسقط... التقت عيناهما بينما هو يحاول تخليص
نفسه من الوحل... لكنه أدار ظهره ومضى... لم ينظر خلفه... تمامًا كما
فعل الآن... لم ينطق بذلك بعدما عاد لداره عندما احتمى مصطفى بصدر
أمه بينما أبوه يعنفه لأنه لم يحافظ على أخيه الأكبر... لم ينطق وتمنى
حينها أن يصبه الخرس فيتخلص من القدرة على الكلام للأبد.

## (١٧)

عادت زينب فور انتهاء "شهر العسل" بعد أيام من رحيل مصطفى على نفس قطار الدرجة الثالثة المهترئ الذي حمله بعيدًا عن باب الحجازي... لم يعد المنزل الذي تربت به يحمل ذكرياتها الجميلة... بل أصبح كحصيرة أشواك تذكرها بالغدر الذي وقع عليها... لم تعد ترفع عينيها في عين أخوتها أو أمها... هنالك فقط حديث الصمت الذي يصرخ بالخذلان... راحت خلال أيامها الأولى في الدار تراقب الجنون الذي استولى على البلدة... لم تجب عندما جاءت فتيات على وشك الرحيل مع كهول جدد في "شهر العسل"، ليسألنها عن تجربة الزواج من شيوخ الخليج... ظلت تتطلع إليهن في صمت شاحب، كوردة تلاشى شذاها ولم يكد يفوح... لم تعد ترى شيئًا ذا قيمة يحدث في هذه القرية الخربة يستحق حديثها... ولم تكن الفتيات في حاجة إلى حديث زينب، وجهها المهزوم وصحتها الذابلة وجسدها الهزيل كان يروي مآسي لن تحملها

الكلمات... كن ينظرن إليها ثم يمضين، تقطر أرجلهن ببقايا الحزن الذي غرقت فيه زينب.

لم تقاوم أيٌّ من الفتيات مصيرها المحتوم، تسري عنهن الأمهات المكلومة بالحديث عن القاهرة، التي كانت كصندوق الدنيا في نظرهن... حيث ما لا عين رأت ولا خطر على قلب قروي... يسرين عن فلذات أكبادهن بالحديث عن الحياة المبهرة التي سيتمتعن بها ويكتمن في قلوبهن خوفهن من الوحوش التي ستلتقم أجساد البنات دون أن يند عنهن لوعة شكوى.

أصبحت دار علي الرفاعي ملجأ للأمهات الثكالى... يأتين إلى أم سعيد يحدثنها عن همومهن... عن بناتهم وحكاياتهن عن الأفعال الشاذة التي مُورست في أجسادهن الضئيلة، يحكين بطيب خاطر لا يدرين أنهن يصبن الحمم على جرح لم ولن يلتئم... ترفض أم سعيد أن تتخيل مثل تلك الأفعال وقد مورست مع ابنتها الوحيدة التي أصبحت صامتة كالقبر منذ عودتها... لم تتكلم عما حدث معها في ذلك الشهر المشؤوم.

حاولت أم سعيد جرها إلى الحديث لكنها لم تستجب، فحدثتها عن حكاوي النسوة عن بناتهن علها تنطق، تنفي أو تؤكد... لكنها ظلت شاردة بلا انفعال... لا تتكلم... احتدت أم سعيد عليها فنظرت إليها زينب بذات النظرة الخاوية وأجابتها بالصمت مما زاد من حدتها... تتعمد أمها أن تستدرجها إلى الشجار... تسعى جاهدة لجعلها تصرخ في وجهها... تريدها أن تقول تلك الكلمة المعلقة في الهواء... لم ختلتموني... لم تهتم لحمي... لكنها بقيت صامتة شاردة... فانتحبت الأم في صمت العدم.

- كلميني يا بتي... ريحيني وريحي نفسك

لكن زينب ظلت على صمتها لا تتكلم... كأنما أصابها ذات الداء الذي منع توأمها سعيد عن الكلام... توأمها الذي كان الوقت قاسيًا عليه بدوره في منفاه في وسط الزراعة حيث يتخفى، الساعات القاسية تمر ببطء، رغم أن الخطر يكمن في النهار حيث يتنقل من مكان لآخر لتفادي الفلاحين. يسمع في كل خطوة أقدام الفواعلية القادمة من أجله... كل خرفشة في الزراعة كانت تحمل بين طياتها الخطر... يسيطر عليه الإحساس بأنه على وشك القبض عليه فيتمنى أن يعثر عليه ليتخلص من ذلك الإحساس بأنه طريدة... إلا أن الليل هو الأقسى... حيث يجلس وحيدًا مع ذكرياته مثقلًا بالذنب... يسترجع ما جناه على أخته وبلدته... كل ما أراده هو أن يحررهم من لعنة تجارة اللحم، فإذا به يوقعهم في تجارة لحم جديدة أرذل من الأولى... كل ما اختلف أن ابن الحلال تحول لبنت الحلال. حتى أصبح يشعر أنه حبة رمل قررت التحرر في صحراء العبودية.

عندما يتيه عقله في داره يرى أمه لازالت غاضبة عليه، يسمعها تقول أنه أس المصائب، بصداقته للإمام الذي باع أخته، يسمع نحيب زينب يقتله في اليوم والليلة مرات ومرات... كان عليه أن يرى أخته، لكنه لن يستطيع مواجهتها دون أن ينتقم لها ممن باع عرضها... لم يبق معه سوى ذلك الصندوق المخملي الذي يحوي الخرقة الصوفية التي أصبحت كل متاعه في الدنيا... ترى لم وصلت إليه؟ ولم هو بالتحديد؟

في هدوء الليل راحت بذرة فكرة تداعبه... ثم راحت البذرة تكبر فأطبق على الصندوق المخملي في راحته وأطلق العنان لخياله.. كلام... كلام... وكلمات... لعنته وموهبته... موطن ضعفه ومنبع قوته في آن معًا... حُرِم القدرة على النطق بها لكنه أودع موهبة نظمها لتتلقاها القلوب والعقول... كلمات بذرها في عقول الناس فهيأتهم لما يريد حصاده منهم... كلمات غيرت شكل قرية وكلمات شكلت مصير

أمم... وكلمات هي التي ستنقذ باب الحجازي من المصير الأسود الذي ينتظرها... لكن كيف لكلماته أن تصل إلى قرية من الأميين... كان عليه أن يخاطب ما تبقى لهم من ضمير... تمامًا كما فعل من قبل... لكن من أين له بذلك بدون لسان الإمام الفصيح ليساعده.

أتاه كامل ببعض كسر الخبز قبيل الفجر... راح يقلد الإمام وهو يتعامل مع الآباء ويسترق النظرات إلى البنات في فجره المعهود... فابتسم سعيد في مرارة ثم تحولت الابتسامة المريرة إلى ضحك صاخب شاركه فيه كامل... تساءل كيف يضحك في مثل تلك الظروف، لكنه أقنع نفسه أنه إن لم يضحك فسوف يموت كمدًا... كما أن المبالغة في المصائب إلى الحد الأقصى تنقلب إلى سخافة لا يقبلها العقل، ومن ثم إلى كوميديا سوداء... مرت ليلتان حتى أتاه كامل بما طلبه من الأوراق والأقلام وقال له أنه سرقها من دكان الإمام شخصيًّا فضحك سعيد وشكر كامل الذي سارع بالعودة إلى البلدة.

انتظر سعيد ليال عدة، شرع خلالها في ملء الورقات... إلى أن خسف القمر في إحدى الليال فخرج من بين الغيطان متخفيًا، وإن كان في غنى من التخفي، فلم يكن أحد ليميزه بعد أن تآكلت عظامه وانحسرت عيناه في محجريهما وخسر نصف وزنه... سار سعيد في خفة بين الطرقات الدافئة، يكاد يسمع بقايا أصداء لهو الأطفال حول "القمر المخنوق" وثرثرة النسوة وضحكاتهن المستهترة التي تجاهلت ما حدث ويحدث كأن لم يكن... طاف سعيد في القرية كالمجنون حتى اقترب من الدور ففاحت رائحتها من الأسطح والأبواب المفتوحة... روائح الدفء الذي كاد ينساه... لكنه لم يعد يشم سوى رائحة الخلاص من القهر والتحكم في حياة البشر... بحلول الهزيع الأخير من الليل كان قد أنهى ما أراده... مر على اللوحة الصدئة التي صارت تحمل اسمًا جديدًا لبلدته ووضع

عليها آخر ورقاته قبل أن يمضي فيبتلعه الظلام.

مع انتصاف ظهيرة اليوم التالي، كانت زينب تنقل اللبن الرائب إلى الكانون ليغلي عندما دُفع باب الدار بقوة ودخلت فاطنة تتوسط وجهها الذي يشبه وجه الحصان ابتسامة خبيثة... تحمل في يدها ورقة طوت بعناية ناولتها لزينب.

طالعت زينب الورقة طويلًا إلى أن قطعت فاطنة الصمت

طبعًا انتي عارفة مين اللي كتب الكلام ده

انت بتعرفي تقري يا فاطنة

تخضل وجه فاطنة بحمرة الخجل وقالت

هو اللي مكتوب محتاج علام يا بت... دي البلد اللي متعرفش الألف من كوز الدرة كلها بتتكلم عنه

نظرت زينب إلى الورقة في يديها... إلى الرموز الغريبة التي كانت في صدر الباب... كانت دومًا تسمع أن البعض يرى تلك الرموز حروفًا لا يجيدون قراءتها... لكن الجميع كان موقنًا أنه لابد لوجودها من معنى... بعضهم كان يشعر أن تلك الرموز تحمل خلاصة معاني الحياة والوجود ذاته... وهاهي الآن تحمل في طياتها الخلاص من همومها وبؤس القرية بأكملها... دققت في الحروف التي نقلت بدقة إلى صدر الورقة وزحفت ظلال ابتسامة شاحبة على شفتيها... من غيره... توأمها الذي لم يلتفت له أحد من قبل، ويعلق الجميع عليه اليوم نجاة القرية من مصيرها المظلم.

افترشت فاطنة الأرض ثم أخذت تحكي لها عن وجه الإمام عندما رأى تلك الورقة وقد غطت على لوحته الصدئة... قالت لها أن زوجها المعتوه رمضان والإمام وفواعليه قد جن جنونهم وساروا في الدروب

...معون الأوراق من الدور ومن حامليها، حتى تحولت النسخ القليلة ا امية إلى كنز ثمين يخفيه البعض في شقوق الجدران... كما أعلنت اللجنة الشرعية حرمة الاحتفاظ بتلك الرموز الشركية.

قلبي بيقولي إن الباب حيرجع قبل المولد يا بت

اللي راح في البلد دي ميرجعش

هكذا قالت زينب فلم تعرها فاطنة اهتماما وراحت تلقي بالنذر تلو الآخر عما ستفعله عند رجوع الباب، وكيف ستسمم بدن زوجها حينها السخرية حتى يفقد القدرة على النوم... لم تكن فاطنة الوحيدة التي أملت بترقب وحساب الأيام المتبقية للمولد، بل أصبح الجميع يترقب ذلك الموعد... وكلما مرت الأيام ازداد الترقب واشتعلت النفوس بالأمل مما يحترق الفواعلية بجحيم الغضب.

على القهوة، جلس رجل أسمر نحيل في جلباب بلدي مهترئ فُتح حتى صدره، يداعب التراب بقدميه الحافيتين... احتسى الشاي وسأل رجلًا بجواره ذا شارب دقيق

تفتكر لما الباب يرجع... يرجع معاه الدراويش والشيخ عبد الكريم

سحب الرجل ذو الشارب نفسًا عميقًا من الجوزة

أكيد... بس لما يغور الهم اللي كابس على نفسنا هو فواعليته

صمت الرجل قليلًا ثم استطرد

وبعدين أنا ميهمنيش الدروايش يرجعوا ولا ميرجعوش... المهم حال البلد يرجع زي الأول... لازم لما الباب يرجع ونخلص من

الفواعلية نرجع سيد خطاب... آه أمال... هو اللي كان معنى البلد ع العجين متلخبطوش... والبيوت كانت مفتوحة والزرايب عمرانة... مش زي الفقر اللي حل علينا مع اللي ميتسموش

يعني كان سيد خطاب عدل أوي ياخي

إحنا بلد ميمشيش معاها إلا العوج... واللي تعرفه أحسن من اللي متعرفوش... أدينا معجبناش اللي عاجنيه وخابزينه واتبطرنا عليه... شوف ربنا بلانا بإيه... كان مالنا... كنا كويسين وأحسن من غيرنا... قالك بيع لحم وبيع فجل... يكونش كان بيضرب حد على إيديه... آدينا بنترحم على أيامه... وبدل ما نبيع لحمنا بقينا بنبيع لحم ولايانا... والله اللي يقول كلمة بطالة في حق سيد خطاب يستاهل الضرب بالنار... هو في سواد زي اللي إحنا فيه ده

وده يرجع إزاي

سحب الرجل نفسًا آخر من الجوزة فكركعت المياه الملوثة قبل أن ينفث دخانه وهو يقول

ربك يدبرها... المهم الباب يرجع الأول

مهو حيرجع من هنا وحيحرقوه من هنا

انت بتكلم إزاي... خلاص العبيط في البلد دي فتح... عليا النعمة اللي يقربله أكله بسناني... والله ما يبقى فيكي راجل من ضهر راجل يا بلد لو الباب رجع وفرطنا فيه تاني... بس هو يرجع

إن شاء الله يرجع

هكذا قال الرجل وعاد يداعب التراب بقدميه

انت عندك ورقة من بتوع سعيد الرفاعي

عايز أشوفها

نبقى نروح له سوا

ظلت ورقات سعيد تتنقل في الخفاء بين أيدي أهل القرية... البعض يتبرك بوجودها في داره... البعض يحتفظ بها لتذكره بأيام ولت وولى معها كل ما عرفوه عن دنياهم ويحشر في حلوقهم واقع جديد... البعض يرى في تلك الرموز القليلة التي لا يفقهونها آفاق أرحب مما يقع تحت العين... ليتحول الباب إلى رمز... رمز يقف في طريق الإمام للسيطرة الكاملة.

صباح اليوم التالي استيقظت أم سعيد بعد الفجر كعادتها، لكنها وجدت البهائم بلا برسيم في الزريبة... جالت بنظرها في الدار فلم تقع عينها على زينب... دخلت حجرتها فوجدتها خالية... توجست أم سعيد وتسرب قلق غريزي إلى قلبها فسارعت إلى الدولاب العتيق الذي يحمل ملابس زينب القليلة لتجدها كما هي... لم تهرب البنت، فأين ذهبت... ارتقت درجات السلم الطيني بقدر ما تسمح به صحتها، تنادي على زينب بلا مجيب... كان السطح خاليًا بدوره.

عندما هبطت إلى الدار من جديد كان الأولاد قد أفاقوا من نومهم فأعدت الطبلية وعقلها يكاد يحترق بالسؤال عن مكان زينب... حتى قال أصغرهم وفمه ممتلئ بالخبز والجبن القريش الذي وضعته للتو

مش حتصحي زينب يامه

انقبض قلبها على الفور وهي تقول

هي فين يا وله؟

جوه نايمة مطرح سعيد

هرولت أم سعيد إلى الغرفة ودفعت الباب فوجدت زينب ممدة على الفراش حيث كان ينام سعيد تحتضن ورقة صغيرة... انقبض قلبها عندما رأت توأم البطن الواحدة يحن إلى شقيقه... يشتاق إلى ريحه... يستأنس في مكانه... لعل سعيد هو الفرد الوحيد الذي وقف في وجه الإمام من أجلها وهاهو يدفع الثمن بتشرده وحيدًا لا يدري عنه أحد شيئًا... اقتربت أم سعيد من زينب وهزتها في رفق

إصحي يا ضناي... الفطار جاهز

لم تستيقظ زينب فعاودت أم سعيد النداء الذي بدأ يتحول إلى هز هستيري مع بقائها ساكنة... تتضح في عقلها المصيبة لكنها ترفض تصديقها... لا يمكن أن تكون هذه نهاية زينب ونهاية صبرها... رجت صرختها أرجاء باب الحجازي بالكامل بعد أن تحققت أسوأ كوابيسها وخرج الموت من الدار يخفق بجناحية الأسودين بعد أن اقتنص روحًا جديدة... روحًا لم تحنو عليها الحياة.

خيم صمت خسيس على باب الحجازي أثناء عزاء زينب... صمت محمل بالهوان والهموم أثقل ظهور الرجال وكسر قلوب النسوة الثكلى المنتشرات في دار علي الرفاعي التي خلت من الرجال... لم يتحدث أي من أهل القرية بعد العزاء، الذي أخذه خالها خليل، عن أي شيء يخص زينب... توقفت الألسنة عن ذكرها تمامًا... كأنما اتفق البشر على محاولة نسيانها... يحاولون العودة إلى حياتهم الطبيعية سريعًا بمحو آثار موتها من ذاكرتهم.

# الفصل الثالث

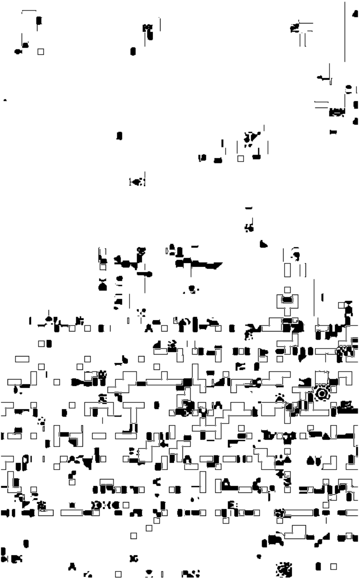

## (١)

مع انحسار النور وبسط رداء الليل، انتشر خبر وصول جمال ابن سيد خطاب في البلدة... يحمله الأطفال الراكضون حول سيارته الفارهة التي توغل في أحشاء القرية... تتبعها سيارة آخرئ كئيبة متهالكة، التف حولها الأطفال يحاولون استراق نظرة لما يعلمون أنه راقد بداخلها بالقفز حولها بلا جدوى... ما أن توقفت السيارتان أمام مندرة سيد خطاب حتى نهر الرجال الأطفال الذين ابتعدوا في تذمر واضح.

استقبلت باب الحجازي جمال خطاب بمغالاة في الحفاوة... لعل البعض يحاول التكفير عن الطريقة التي أُخرِج بها مع أبيه منذ ما يقرب من عام... نظر جمال إلى دار أبيه المتفحمة بعين ملأتها الحسرة في طريقه إلى المندرة حيث كان رجال أبيه قد اصطفوا في انتظاره... أضيف إليهم وجوه لم ينس أنها حملت ابتسامة شامتة حينما حُمل أبوه على نقالة مطرودًا من باب الحجازي... ارتفع نحيب البعض بينما غلف الآخرين

بله المفاجأة... كان كل شيء أعد ولم يكن جمال بحاجه لمراجعة الإجراءا.

برغم أنه لم يبد أي تقدير لتلك العبارات المكررة المحفوظة، إلا أن ذلك لم يحل دون انهمارها على أذنيه كلما مر به أحد

الله يرحمه... والله عرفنا مقامه بعد ما سابنا

البركة فيك يا حاج جمال

أنا مزعلتش على أبويا زي ما زعلت عليه

البقاء لله... ولا دايم غير وجهه

مرت الوجوه عليه كظلال لا تميز... عانقته الأذرع واعتصرت الأيادي كفه الغليظ في محاولة لإبداء التعاطف والمؤازرة.

عايزين نجهز التربة

هكذا قطع جمال استرسالات الرجال في التعازي والمواساة، فمال عليه الأستاذ عبد الحميد علام وقال

كله جاهز يا جمال بيه... بس الناس عايزة تعزيك

أنا جاي علشان هو وصيته يدفن في بلده... لولا كده مكنتش عتبتها تاني

كان وجهه جامدًا حتى بدا أنه الوحيد القادر على تمالك أعصابه بين الجموع التي أحاطت به في انكسار

العزاء من الليلة ولتلت أيام... ابعت حد يعلنه في الجامع

هكذا قال جمال خطاب فقفز رجل سمين يتدلى كرشه جليًا من ثنيات الجلباب وابتسم ابتسامة لزجة تعلن تطوعه للمهمة.

عندما دخل الرجل إلى الجامع كان الإمام جالسًا في حلقة من مريديه فعرج على أحد الشباب وأسر له بكلمات قليلة في أذنه، لم يجبه الشاب وتوجه رأسًا إلى الإمام الذي هز رأسه بالنفي في صمت ولم ينظر إلى الرجل.

روح قول للي بعتك مكرفون الجامع عطلان

هكذا قال الشاب ثم عاد ليستمع لحديث الإمام عن البحَّار... لم يكن الإمام في حالة تسمح له بمشاحنات جانبية... فقد اقتطع البحَّار يومين كاملين من دور القرية في السقيا حتى ضج الفلاحون وكان عليه فعل شيء ما لتأديب البحَّار... كانت كلمات الإمام قاسية... مليئة بالغضب الذي راح يتسلل إلى صدور الشباب المستمعين في إصغاء.

صباح اليوم التالي، كان البحَّار في طريق خروجه من ميت الشوكة على حمارته المنهكة تحت ثقل حملها... ارتقت الحمارة تبة ترابية فتشبث بالشوال بكلتا يديه كي لا يسقط فلم ينتبه لذلك الشاب الذي أقبل عليه حتى بادره بقوله

انت مش ناوي تجيبها لبر

نظر البحَّار لمصدر الصوت فطالعه وجه هضيم ملتحٍ لشاب نحيل الجسد، يرتدي جلبابًا قصيرًا

انت مين يا جدع انت

أشار الشاب إلى الحمارة المحملة

الأرض في كفر ترما حتموت من العطش والزرعة دبلت... انت مبتخفش من ربنا... كل ده علشان كام إردب درة... بتاكل حرام يا ابن الزانية

تلفت البحَّار حوله في ذعر، كأنما يبحث عمن يستغيث به

كفر ترما... إيه كفر ترما ده... انت الظاهر عليك مجنون...

اختنقت الكلمات في حلقه عندما لمح يد الشاب تنزلق إلى صديريته وتخرج سريعًا، يلمع في قبضته نصل سكين

انت حتعمل...

لم يمهله الشاب وانقض بسكينه على الشوال الذي تمزق بصرير مزعج وسقط ما به من ذره فمالت الحمارة لتأكل... سقط البحَّار من على ظهرها ثم أخذ يزحف على بطنه يتملكه الرعب... قفز على قدميه محاولًا الفرار مخلفًا وراءه الحمارة والذرة لكن قبضة الشاب أمسكت بطرف ثوبه وانهال عليه صفعًا

لو متعدلتش يا ابن المرَة تاني مرة السكينة دي حتكون في بطنك... فاهم

والله مالي ذنب... ... سيبني... أنا عبد المأمور

أخذ البحَّار يعول ويبكي تحت صفعات الشاب التي لم تتوقف حتى ظهر بعض الفلاحين من ميت الشوكة الذين خلصوه من بين يدي الشاب وحالوا بينهما... عندما تأكد البحَّار من استحالة وصول الشاب إليه واطمأن لوجود الجمع صاح من خلف الرجال الفاصلين بينهما

والله لاحبسك يا ابن المرة

ثم راح يشرح للرجال كيف تهجم عليه الشاب من ظهره ثم هدده بسكينه... أشار إلى الذرة التي مازالت الحمارة تأكل منها، وقال أن شوال الذرة حال دون استقرار السكين في بطنه.

لم تمض سوى ساعات حتى اقتحمت سيارة الشرطة باب الحجازي

وهبط منها عساكر اقتادوا الشاب ذا الوجه الهضيم إلى داخل السيارة... يصفعونه ويسبونه كلما حاول المقاومة... اصطف الرجال والنساء يشاهدون ذلك المنظر الفريد في تشفٍّ مفضوح... كان الفواعلية يتصرفون في البلد كأنهم محصنون بعلاقة الإمام مع المأمور من أي تبعات لأفعالهم ورؤية أحدهم يهان بتلك الطريقة كانت بمثابة متعة آثمة للمتفرجين... قبل أن ترحل به سيارة الشرطة حاول الإمام الذي وصل في وفد من الفواعلية إقناع الضابط بتركه، مؤكدًا للضابط أنه سيحضر الشاب بنفسه إلى المركز ويتفاهم مع المأمور.

احنا عندنا أوامر ناخده... عايز تكلم المأمور تروحله المركز

هكذا أنهى الضابط الجدل وانطلق بالسيارة... حاول الإمام إخفاء توتره وتجاهل نظرات الناس التي تسلطت عليه ثم سارع بالذهاب إلى المركز مدفوعًا بثورة شباب الفواعلية الذين أهانهم القبض على رفيقهم بذلك الشكل

قطع الإمام ووفد الفواعلية المصاحب له الطريق إلى المركز في أقل من ساعة، لكنه قضى ضعف تلك المدة في انتظار المأمور حتى أذن له بالدخول إلى مكتبه... كان المأمور يعبث في بعض الأوراق التي تناثرت على مكتبه الذي تصدرت صورة السادات الجدار خلفه... جلس الإمام بأدب وانتظر المأمور حتى رفع إليه ناظريه

يا باشا لازم نخرج الواد المحبوس ده... ملوش ذنب

التقط المأمور كوب الشاي الساخن ورشف منه رشفة على مهل قبل أن يقول بهدوء مستفز

انت حتعرفني شغلي

ـ العفو يا باشا... أنا بس بتكلم من عشمي

تفحصته عينا المأمور الحجريتين

أخبار البلد إيه يا مولانا

بدت الدهشة على وجه الإمام من السؤال المباغت

كويسة، الدنيا هادية... هو بس البحّار الملعون ده...

قاطعه المأمور

مش عيب يا مولانا ترفض إعلان وفاة في الجامع... هي دي الأصول برضو؟

تشابك حاجبا الإمام وتوترت عضلات وجهه

حضرتك عرفت إزاي

انا شغلتي أني أعرف... زي ما عرفت مثلًا موضوع المولد... سمعت إن الناس ستنين الباب يرجع تاني

احتقن وجه الإمام حتى كاد أن ينبثق الدم من وجنتيه

باب! باب إيه يا باشا... دي تخاريف

ابتسم المأمور ساخرًا وارتشف رشفة أخرى من كوب الشاي، حاول الإمام السيطرة على أعصابه التي عبثت بها مقابلة المأمور الغريبة

الأخبار اللي بتوصلني إن أهل البلد بيقولوا إن الباب راجع في المولد... يا أخي غريبة دي... ناس مستنية مولد من غير مقام... هو فاضل على المولد أد إيه

لو كان الإمام يدري من ذلك اللعين الذي أطلق تلك الإشاعة التي تحولت مع الوقت إلى حقيقة لنهش لحمه بأسنانه... الجميع على السواء

أصبحوا في انتظار المولد... في انتظار عودة الباب الملعون.

يا باشا كلام فا...

أنا بسألك فاضل على المولد أد إيه؟

٤ شهور

ابتسم المأمور وقال

هانت

التقط المأمور بعض الورقات من أمامه ودفن عينيه فيها

بالنسبة للواد إللي عند حضرتك!

مفيش في إيدي حاجة يا مولانا... ده متقدم فيه بلاغ بالتعدي والبحَّار معاه شهود إن الواد كان عايز يموته ولازم ناخد معاه الإجراءات اللازمة

يا باشا انت الخير والبركة... وكلمتك مسموعة عند البحَّار وهو ميقدرش يأخرلك طلب... الصلح خير

ألقى المأمور الورق ونظر إلى الإمام برهة قبل أن يقول

البلد فيها قانون يا مولانا... أنا مقدرش أمشي الأمور على مزاجي

يا باشا العفو... إحنا خدامينك... وانت عارف إني متأخرتش عليك في أي طلب طلبته مني... مهما كلفني وجع دماغ

ابتلع الإمام ريقه بصعوبة عندما تعكر وجه المأمور وهو يقول بكلمات ضغطت حروفها

- اللي قصدك عليه ده طالعلك مصلحة منه... ولولا القرشين اللي

بيطلعوا منه كان زمان الغجر دول كلوك بسنانهم... انت المفروض تشكرني إني مقبضتش عليك بتهمة الإتجار في البشر وتزويج القصر... ومتنساش إن عليك قضية، وإنك هربان من السجن وأنا سايبك بمزاجي

تناول المأمور قبعته من على المكتب وأخفى بها صلعته قبل أن يقوم

عندي مأمورية لازم أطلعلها

والواد يا باشا... البلد تاكل وشي لو رجعت من غيره... الشباب بيغلوا وانا مش حعرف أسيطر عليهم لو الواد مطلعش

انت إيديك بقت مرخية على الناس... يكلوا وشك ولا يكلوا قفاك ده شيء ميخصنيش... وعلى فكرة... الواد اللي أنت مكلف خاطرك علشانه بيقول في المحضر إنك حرضته على البحّار بنفسك

امتقع وجه الإمام

محصلش يا باشا...

تابع الإمام المأمور الذي لم يمهله ليكمل كلامه وهو يرحل... شيء ما تغير... شيء لا ينبئ بالخير... المأمور كلب غدّار لن يتورع عن افتراسه إن كان له مصلحة في ذلك... يدرك الإمام ذلك جيدًا... لكن ما مصلحته في معاداته فجأة... هل يستغل اللغط المستشري في البلد... لم يكن الإمام مستعدًا للمواجهة وكيانه بعد غض لم تمتد جذوره في الأرض، يستطيع المأمور سحقه بقدمه إن أراد... معركته الآن خاسرة وتلك الهدنة الغريبة بينه وبين المأمور باتت على وشك النفاذ... معركته يجب أن تكون مع سعيد الرفاعي الذي أوجد كل ذلك اللغط... كان عليه أن يجده ويوئد الفتنة بأي ثمن... عليه أن يقتل الخطر الذي يهدده ويثبت

للمأمور والجميع أنه رجل لا ينبغي العبث معه.

سار الإمام شاردًا في طريق عودته، بين أربعة من الفواعلية أصبحوا لا يغادرونه منذ اعتدئ عليه سعيد الرفاعي... لم يتبه الإمام لسؤال أحدهم عن زميله المحتجز، كان منشغلًا في تجرؤ المأمور عليه... لم يكن يرئ نفسه قوادًا كما يلمح المأمور... هو رجل فهم الدنيا جيدًا وزهد في المثاليات الفارغة... الرجال تشتهي النساء وتجنح للتغيير... وإلا فلم أحل الله التعدد... كل ما فعله أنه أتاح ذلك لشريحة من الرجال ووفر مصدر دخل للقرية... وباستثناء زينب، فهو لم يجبر أيًا من بنات القرية علئ الزواج... انغمس في أفكاره حتئ كاد يسقط عجوزًا تحمل سبت من الخبز الساخن فوق رأسها عند مدخل القرية.

ما أن استقر في مجلسه بالدكان حتئ جاءه الخبر بأن الجمعية التعاونية أخرت نصيب الفلاحين من الأسمدة بدورها... وأن الفلاحين قد ضجوا من قلة الماء وتعنت الجمعية التعاونية مما تسبب في نشوب شجار عنيف بين الفلاحين والموظفين حتئ اضطر الفواعلية للتدخل لفض الاشتباك فأخذ الفلاحون يسبونهم بدورهم، وينعتونهم بأنهم السبب في الفقر المخيم علئ القرية.

طلع اللباس الشرعي اللي جالنا من أهل الخير في مصر ووزعه علئ الدور

هكذا قال الإمام، وقد أثقل كاهليه وطأة الحمل

بس يا مولانا النسوان بيخيطوه ويلبسوه للعيال... محدش منهم يلبسه

صرخ فيه الإمام

بقولك وزعه... لما أقول حاجة تتنفذ من غير رغي

هرع الشاب وأخرج كراتين الزي الشرعي الذي كان يوزع في الجامعات والقرئ من رجال الأعمال الكبار... بينما اقترب منه أحد أعوانه بحذر

لازم تشوف صرفة مع البحَّار يا مولانا... الناس خلاص مش قادرة تستحمل... وإحنا عارفين أن رجالة سيد خطاب الملاعين ليهم يد في تأخير السماد وهم اللي بيحرضوا البحَّار على قطع المية... وفي حاجة كمان

تحرج الرجل قبل أن يقول

الكلام زاد إن سعيد الرفاعي حيرجع الباب تاني من ساعة ما سيد خطاب اتدفن وابنه رجع

حقًّا لا تأتي المصائب فرادئ... هكذا راح يتردد في عقل الإمام... لكنه كان يعلم ما يجب فعله.

## (٢)

نبه الإمام على أتباعه بعدم حضور عزاء سيد خطاب... كان يريد للعزاء أن يبدو خاويًا، أن تلفظ القرية سيد خطاب في مماته كما لفظته حيًّا... لكن باقي القرية تراصوا في الصوان، بعضهم من رجال سيد خطاب الذين انهار حالهم برحيله وضاعت مكانتهم، والبعض ممن يترحم على أيامه بحلوها ومرها بعدما ذاق الأمر بلا حلاوة تشفع له.

أما الإمام نفسه فكان جالسًا في تلك الأثناء على أريكة في شرفة دار الشيخ محمود قطب المتواضعة يلتقط أنفاسه بعد أن انتهى من سرد ما لديه للشيخ... وضع كوب الشاي على منضدة عتيقة علم أن أحد أقارب الشيخ بالمنصورة أهداه إياها عندما ابتاع فرشًا جديدًا... وهي أقيم قطعة أثاث يقتنيها الشيخ، فداره لا تحتوي سوى على الأساسيات التي لا يمكن العيش بدونها

- إحنا بنتهي يا سيدنا الشيخ... سعيد الله يلعنه بيكره الخلق فينا

بأفعاله وابن سيد خطاب راجع يطل براسه على البلد من تاني

هكذا قال الإمام وهو يتظر رد الشيخ الذي بدا جامدًا مما دفع بتوتر كبير إلى شرايينه

نحن لا نتهي... نحن والباطل كالمد والجذر نروح ليأتي أهله ويروحوا فنأتيهم... ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (1)

صمت الشيخ فشعر الإمام أن نظرته تنفذ إلى روحه

لكن متناش إن سعيد كان بمثابة ولدي ويعلم الله ما في قلبي له من معزة... لكن ما وقع عليه جعله يفقد صوابه ويحيد عن طريق الحق... سعيد حكى لي عما كان بينكما... كشف لي ما كان يكتبه لك من خطب وقص لي عن مقاومتك للحق خوفًا من بطش سيد خطاب..

تنحنح الإمام وحاول استخراج بعض الكلمات ليحسن موقفه

لا تقاطعني...

هكذا زجره الشيخ محمود قبل أن يستعيد رباطة جاشه

لكن تشاء إرادة المولى لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى أن تتصدر أنت المشهد برغم أنك لم تكن في الصفوف الأولى... وتلك طبيعة الأحوال... نادرًا ما يتولى أصحاب التضحيات صدارة المشهد... ينالها من بقى حيًا في الصفوف المتأخرة من الجبناء والمترددين

ابتلع الإمام الإهانة وقال

---

(1) سورة آل عمران ـ الآية .

قول فيا اللي انت عايزه يا مولانا وأنا راضي... أنا مش مهم، وإن كان ربنا العالم الواحد بيندم أد إيه على التردد في البداية... وبحاول أكفر عنه بإني متأخرش دلوقتي... أنا كل اللي خايف عليه هو مشروع الدعوة اللي حيتهي برجوع ابن سيد خطاب... يا مولانا الناس بقت بتكلم عن رجوع الباب والمقام وكل الرموز الشركية اللي قضينا عليها... لازم نشوف صرفة وأنا واقع في عرضك

نظر إليه الشيخ نظرة تقطر احتقارًا

شوف يا ابني... الإجماع عند أهل العلم هو إنه يجب قتال كل من خرج عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة أو أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة... وإن تكلم بالشهادتين... يقول الله تعالي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(1)... هؤلاء هم الباغون... اعتدوا علينا بإهمال شرع الله... ثم اعتدوا علينا بحبس أولادنا... يقول رسول الله: بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ، حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريك له، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ... والحديث يعني أنه من لم يستجب بالحجة يستجب بالسيف.

جاهد الإمام ليخفي سعادته بالوصول لمراده... وحاول تنميق كلماته التي أعدها مسبقًا

---

(1) سورة البقرة - الآية ٢٧٨ - ٢٧٩.

الله يفتح عليك يا مولانا... بس حضرتك عارف إن الدا
مش حتشوفها بالطريقة دي لو انا اللي وقفت لجمال خطا
ورجالته... حيقولوا يا مولانا إني بحارب أهلي... والرسول ع
أفضل الصلاة والسلام صبر على رأس النفاق، عبد الله ابن سلو
ولما أراد الصحابة قتله قال لهم "لا يتحدث الناس أن محمدًا
أصحابه"... مش كده يا مولانا... أنا لو حاربتهم علنًا حبقى
عنيهم عدو... وده ضد صالح الدعوة

تفكر الشيخ محمود

إن عاجلًا أو آجلًا لابد من إعلانك حربًا صريحة على كل من
الله ورسوله... لكن لا ضرر من المساعدة من عندنا في الو
الحالي

خرج الإمام من ميت الشوكة إلى دار الحاج محمد الستاري، ال
عاد من العزاء ليجده في انتظاره... تغاضى الإمام عن ترحيب الر
الفاتر وانطلق في حماسة يلقي ما أعده

انت شايف اللي بيجري في البلد يابا الحاج وده أكيد ميرضكش
ريحة سيد خطاب النجسة بدأت تظهر تاني... ورجالته بقى لـ
حس بعد ماكانوا بيقولوا يا حيطة داريني... وانت مترضاش
اللي بنيناه يتهد مرة واحدة

استغفر الله العظيم... الراجل مات ومتجوزش عليه غير الرحمة
وبعدين دلوقتي بتقول بنيناه!

آه طبعًا بنيناه... إحنا كنا في ضهر بعض يوم ما مشّينا سيد خطا
ولازم نفضل في ضهر بعض النهارده... مين ينسى إنك أول وا

وقف في وش سيد خطاب... ولا نسيت إنه قتل من عيلتكم واحد بعمايله السودا

لا طبعًا منسيتش... بس منسيتش كمان إن في واحدة اتقتلت من كام شهر... انت اللي نسيت يا مولانا... وبعدين إحنا مشينا سيد خطاب علشان ظلمه، علشان كان كابس على البلد وأهلها، لكن انت مشيت سيد خطاب علشان تاخد مكانه

قال الكلمة الأخيرة باستهزاء واضح

بنت علي الرفاعي ماتت موتة ربنا... محدش قتلها... جايز ربنا بيعاقب الدار دي على آثام رجّالتها... وعلى كل حال لو حصل غلط نصلحه بإدينا... بس منرجعش اللي كان ذللنا وكاسر عنينا... ده ممكن يقتلنا كلنا... ده راجع ياخد تاره

ابني فوق... سيد خطاب مات واندفن

ابنه لسه عايش يابا الحاج... وابنه ألعن منه... اتعلم من غلطات أبوه لكن منسيش اللي عملناه معاه... يابا الحاج ده راجع معاه قوة أبوه ورجالته والمركز والفلوس التي تشتري ذمم الناس... وانت عارف الفقر يخلي كل حاجة تهون علشان لقمه العيش... انت مسمعتش إن في من رجالته عايزين ينوله مقام... مقام لسيد خطاب يابا الحاج... لو موقفناش مع بعض النهارده قبل بكره يبقى قول علينا كلنا يا رحمن يا رحيم... حيتسلى علينا واحد ورا التاني... يابا الحاج انت لو زعلان مني أنا مستعد احب على راسك... إحنا أهل مع بعض... ومصارين البطن بتتعارك... ولازم السنارية يقفوا معايا

- انت فاكر إن لينا كلمة على الناس بعد ما صغرتنا عندهم... قوم

لِمّ رجالتك اللي طايحين فينا... الحق نفسك وصالح أهلك قبل فوات الأوان

ده آخر كلام عندك يا حاج محمد

صمت الحاج محمد برهة قبل أن يقول

يا ابني احنا بلد ظالمة... بس ربنا مش بيعاقبنا بالطوفان والزلازل... ربنا بينتقم منا بزرع الخوف في نفوسنا فتتفرج على شوية مننا بيكلوا في التانيين واحنا واقفين ساكتين لحد ما نخلص على بعض.

خرج الإمام إلى الجامع مع فواعليته يتوعد الحاج محمد... أشار على الجميع بالتجمع عقب صلاة العشاء... كان صوت المقرئ لايزال يصله من سرادق العزاء المقام في مندرة سيد خطاب... حيث كان جمال خطاب بين المعزين الذي راح عدد منهم يستجدونه

إحنا ما صدقنا إنك رجعت... ورحمة أبوك متسيبنا... إحنا حالنا مر والناس كلها مش طايقة هباب الطين اللي خلى عشيتنا خرئ

يا جماعة أنا مقدرش أعملكم حاجة... أنا حسافر أشوف مصالحي بعد العزا وانتم شوفوا صالحكم واعملوه بنفسكم

عندها أمسك الأستاذ عبد الحميد علام بساعده وانتحى به جانبًا عند مدخل المندرة

الناس عايزاك... مش عايز ترجع تاخد مكان أبوك ليه

انت نسيت اللي عملوه فيه... دول هم اللي موتوه بحسرته

نظر إليه الأستاذ عبد الحميد بتفهم

سيك من كل ده... يا جمال بيه البلد دي فيها أحسن ناس تعرف تملكهم... عملين زي البهائم اللي في الزرايب... بيرضوا بقليلهم ويحبوا يسمعوا الكلام... اللي حصل دي فورة واتعلموا الأدب خلاص... يا ابني أبوك الله يرحمه كان عارف طبعهم كويس وعارف يتعامل معاهم إزاي... الناس هنا طيبة مؤمنين بربنا وبالقضاء والقدر... لو خلعتلهم عين وفهمتهم إن ده ابتلاء من عند ربنا حيصبروا ويشكروا كمان... ناس راضية بقليلهم وأكبر طموحاتهم الستر... يا ابني اللي حصل مع أبوك كانت نزغة شيطان وراحت لحالها

الناس مبقوش بالطيبة اللي انت بتقول عليها

انت لفيت وشوفت ناس أشكال وألوان... أهل البندر ميعجبهومش العجب... شافوا الحلو والوحش وبيميزوا بينهم... أما احنا هنا اتعلمنا نقول من صغرنا البطران عيشته قطران... والواحد منا بيرضى بالقطران لحسن يزول من خلقته... وفي البندر انت زيك زي غيرك لكن هنا انت كبير البلد... يا ابني المصالح عطلانة واحنا عايزينك ترجع

برغم ظروف وفاة والده، إلا أن وجهه حمل ابتسامة غريبة وهو يستمع إلى صديق أبيه... ابتسامة بها قدر كبير من التشفي، لكنها لا تخلو من الخبث... إلا أن الابتسامة لم تلبث أن اختفت مع صوت الإمام الذي ارتفع من مكبرات الجامع

إنهم يعلونتها حربًا صريحة على الإسلام... يريدون أن يقضوا على الصحوة الإسلامية في مهدها... يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ

الْكَٰفِرُونَ[1]... يا شباب الصحوة... نعتوكم بالفواعلية، بأذناب الإمام... بكل الأوصاف المذمومة لكنكم ثابتون على الحق، صامدون في وجه الكفر والفسوق... اعلموا أحباب الله أنه لابد للأمة من ميلاد ولابد للميلاد من مخاض ولابد للمخاض من آلام... يقول حبيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم: بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء... أنتم اليوم الغرباء. وحيدون بين هجمات الكلاب الضارية، تتخطفكم الأيادي وتزج بكم خلف السجون وتلوككم الألسنة لا لشيء سوى أنكم تقولون ربنا الله... فهل أنتم مستعدون للتضحية من أجل دينكم

تناهى إلى سمع الأستاذ عبد الحميد وجمال صوت الفواعلية الذي ارتفع بالتأييد المحموم يرج أركان الجامع... عندها دبت الرجفة في القلوب

سامع نعيق الغراب اللي طالع من الجامع

هكذا قال جمال قبل أن يعود أدراجه إلى المندرة... نظر الأستاذ عبد الحميد إلى الغيطان التي ابتلعها الظلام وراح يفكر في الشخص الوحيد القادر على قلب الموازين... عاد صوت المكبرات يرتفع من جديد... كان الإمام يتوسط المحراب وقد لف شالًا أخضر على طاقيته ووقف يتطلع إلى رأس ماله... مؤيديه الذين التهبت حناجرهم بالتكبير والتهليل... لكن ذهنه كما الأستاذ عبد الحميد كان معلقًا بالغيطان. حيث سعيد الرفاعي.

---

[1] سورة التوبة - الآية ٣٢.

## (٣)

نادرًا ما تهطل الأمطار صيفًا في المحروسة، إلا أن ذلك اليوم كان استثناءً... فتحت السماء، التي تحولت إلى لون رمادي قابض، أبوابها لتنهمر المياه على باب الحجازي... كأنما تتعمد تحدي الفلاحين لتثبت سيطرتها على حياتهم ببضع قطرات من المياه... آوى الرجال على غير عادتهم إلى البيوت وأصبحت الطرقات خالية، لا يقطع صمتها سوى صوت المطر الذي كوّن بركًا موحلة كبيرة.

بعيدًا عن الدور المغلقة أخذ الزرع في الغيطان في الاهتزاز مع الرياح في تناغم... كأنما يرقص على إيقاعه الخاص... دفع المطر جمعًا من الأطفال لفض نزاعهم على توزيع الفاكهة المسروقة وسارعوا بالعودة إلى الدور... على بعد أمتار قليلة من موقعهم كان سعيد الرفاعي مستلقيًا في وسط الزرع... بلا سقف يقيه المطر ولا دار يسرع إليها ليحتمي في كنف أهله... تكور حول الصندوق المخملي يحميه من ماء المطر... تمنى أن

تغسله تلك القطرات الطاهرة، حديثة العهد بالسماء، من آثامه... أن تغا،
يديه التي جنت على القرية وعلى زينب... ظل المطر يهطل حتى غر،
الشمس... وظل هو بلا حراك تحته.

علق وجه زينب بذهنه... لم يكن يحاول صرفه رأفة بنفسه... يتملا،
بكل تفاصيله، يحفرها في ثنايا ذاكرته كي لا يفقدها... ذلك الوجه
الملائكي الجميل الذي جلب له تلك النهاية التعيسة... في بعض الليالي
يسمع صراخها يأتيه من جهة المقابر فينكمش على نفسه ويبكي... حينها
يجد نفسه يبحث عمن يلقي عليه الذنب... الأهالي الذين لم يقفوا في
وجه الإمام... أخوه الذي غض البصر عما يحدث لأخته كي ينقذ نفسه.
لكنه كان يعود إلى نفسه في النهاية... هو من قتل زينب قبل أن ترحل
عن حياتها البائسة... فيكي بحرقة أكبر... يتساءل لماذا لم يبت بسبطًا
كمن حوله بلا أحلام كبرى تدفعه للبحث عن المجهول الذي لم يجلب
له ولأهله سوى المتاعب... وهل لهذه الرحلة من نهاية وهل لذلك البحر
من قرار أم قُدِّر له الغرق في أفكاره.

بحلول الظلام حاول سعيد التشبث باليقظة هربًا من الأهوال التي يراها
في منامه... وذلك الحلم الذي أصبح لا يفارقه، يرى نفسه محمولاً على
الأعناق، يسرع به من يحملونه وقد وُضِعَ في ذلك الصندوق الأخضر
البغيض فلا يستطيع الحراك... الناس في صمتٍ مطبق كأنما لا يجدون ما
يقال في موته، لا أحد يبكيه أو يترحم عليه، يحاول أن يصرخ فيأبى صوته
أن يخرج... إلى أن ألقَوه في المقبرة وأهالوا عليه التراب في عجلة من
يريد أن يتخلص من مهمة ثقيلة... ورحلوا... اكتشف أنه دفن إلى جوار
زينب... حيًا... يراها إلى جانبه مغمضة العينين ووجهها مستريح بينما
يتملكه هو الرعب... العتمة حالكة إلا من ضوء ضعيف ينبعث من دود
القبر الذي أخذ يقترب منه في ثبات... يحاول الهرب بكل قوته... لكن

الكفن اللعين يقيده ويبقيه في مكانه بينما الدود يقترب في بطء... يصدر فحيحًا كالحيات... يتوعده بأن ينهش لحمه ويأتي على عظامه... يحاول أن يستغيث بزينب فلا يتحرك لسانه اللعين.

أسند رأسه إلى الصندوق المخملي الذي أصبح بلون التراب... لم يعد هناك ثوابت في عالمه، يحيا من أجل شيء واحد فقط... القضاء على الإمام... لم يعد هناك ما يحركه أو يدفعه للبقاء حيًا سوى رؤية وجهه وقد فارقته الحياة... بداخله هموم لا تنكسر ولا يشفيها سوى الخلاص... فقد كل شيء طعمه وسيطرت عليه أفكار سوداء تدور جميعًا حول الموت بعد أن أدرك أنه يعيش مأساة بلا أي معنى... لم يعد قادرًا على المزيد من الكذب على نفسه ليكسب مأساته معانٍ عميقة تساعده على تبرير حدوثها فيتعايش معها... لا حكمة كبرى ولا مخططًا عظيمًا ولا درس مستفاد منها سوى الطمع الذي يحكم حياة البشر.

مع انتصاف الليل تسلل سعيد الرفاعي إلى طرقات باب الحجازي الفارغة، قاصدًا دار الإمام... قبع أمامها يراقب الضوء الخافت المتسلل من الداخل... ظل جامدًا في مكانه إلى أن أُطفِئ النور فنهض واقترب من الدار في خفة... كان أحد الفواعلية قد غط في سبات عميق أمام باب الدار المنخفض... اقترب أكثر حتى التصق بالنافذة... هُيِّء له أنه يسمع أنفاس الإمام الراقد خلفها... لمس أحد القضبان الحديدية المحيطة بالنافذة وحاول انتزاعه دون إحداث جلبة، لكن القضيب العنيد بقي راسخًا في موضعه... عندها سمع سعيد صوتًا من الداخل... صوت أقدام تبتعد في هدوء حذر قبل أن يصدر باب ما صريرًا مزعجًا... لابد أنه أيقظ الإمام... أدار ظهره وأخذ يبتعد في هدوء... فجأة خرج ثلاث من الفواعلية من داخل الدار يحملون بأيديهم مصابيح الكيروسين.

أخذ سعيد يقطع الطرقات... يركض حتى كادت أنفاسه تنقطع يلهث بينما الصراخ يتكاثر ويقترب منه... حتى أصبح خارج القرية من الغيطان تطارده الكلوبات وأصوات الرجال... ركض بمحاذاة الترعه بكل ما أوتي من قوة... برغم الظلام الدامس إلا أنه يحفظ الطريق عن ظهر قلب... الأنوار تقترب منه في عناد قاهر... لم يتنبه لذلك الحجر الذي اصطدمت به قدمه فإذا به يسقط في الترعة... حاول التشبث بأي شيء وهو يهوي بلا جدوى حتى صكه الماء البارد وعزله عن الأصوات التي كانت تسبه... كتم سعيد أنفاسه وشاهد الأضواء تعبر من فوقه بعد أن أحاطه الماء العكر وفصله عن العالم كرحلة في رحم أمه من جديد.. يحميه الغرباء ومن يريدون به شرًا... خرج أخيرًا يلهث تتمزق رئتاه بحثًا عن الهواء بعد أن ابتعد الفواعلية... برغم الظلام وبرغم الموقف الغريب وقف سعيد يبكي في مياه الترعة الملوثة... لا يدري لم يبكي... بداخل نفسه شحنة رهيبة كادت أن تقضي عليه وكان لا بد لها من مخرج... حمته الترعة التي حمَّلها كل معاني الموت والشر والقهر ممن يريد أن يقتنص روحه... لا يدري كم لبث يبكي تختلط دموعه بمياه الترعة... لكنه عندما فرغ أحس براحة عجيبة ورغبة ملحة في النوم... عندما استلقى تلك الليلة في الزرع بعد أن تأكد من عودة الفواعلية كانت ابتسامة عذبة تعانق شفتيه.

أيقظته اليوم التالي شمس الظهيرة... لابد أنه لم ينم بمثل ذلك العمق منذ سنوات... ما أن أفاق حتى تسللت إلى أنفه رائحة محببة فاستند إلى ذراعه وحمى عينيه بكفه من الشمس... بجواره كان يوجد صحن ثريد لازال يتصاعد منه البخار فقفز كالملسوع من مكانه وتلفت حوله فلم يجد أحدًا... لابد أنه غط في النوم ولم يشعر بمن وضع ذلك الثريد بجواره... لم يدر بما يجب أن يشعر... أعليه أن يهرب أم أن وجود الطعام كان دليلًا

ان عدم الحاجة إلى ذلك... لكن ما لم يكن يستطع تجاهل الشعور به في تلك اللحظة هو الجوع فجلس وأخذ ينهل من الصحن في نهم...
ما فرغ من الصحن وذهب عنه جوعه راح يفكر في حصاد الزرع الذي صار على الأبوا حينها ستصبح الغيطان مساحة واسعة مكشوفة لا صلح ليتخفى بها... كان عليه إعادة المحاولة للخلاص من الإمام في أقرب فرصة مهما كلفه الأمر.

## (٤)

لم يستغرب جمال خطاب جموع السائلين الذين ملأوا المندرة في آخر أيام العزاء... فكما يقال، الفقر قرين الكفر... لم تكن باب الحجازي أفضل حالًا من باقي أقطار المحروسة... تعيش القرية على ذكرى أمجاد غابرة حين كان المقام قبلة لأغنياء المجتمع... وكلما ازدادت حدة المحنة والظروف التي يمر بها أهل باب الحجازي تزداد الأجساد نحولة والقلوب قسوة في بلد بدا أنها في مهمة مقدسة للقضاء على أهلها... عم الفقر وتراكمت الديون على الجميع مما اضطر الكثير من الشباب إلى السفر إلى العراق والأردن للعمل... والبعض الآخر وفر له الإمام عقود عمل في دول الخليج وصار يعود على أهلهم بعض الدخل الجيد... يعيشون على أمل سداد ديونهم والإبقاء على قرشين لشراء قطعة أرض صغيرة أو استثمار عوائد الغربة في محراث زراعي يؤجر للفلاحين... لكن السواد الأعظم من أبناء القرية كان يرزح تحت أعباء الفقر.

شُغِلَ جمال خطاب ذلك الصباح بمتابعة تفاصيل ما قصه عليه الأستاذ عبد الحميد علام بخصوص واقعة الأمس

زي ما بقولك كده... صاحبك قاعد في داره مرعوب... والفواعلية ركباهم الشياطين من ساعتها... دايرين في الغيطان يدوروا على سعيد

اقترب حنه في تلك اللحظة رجل هرم، عيثت بوجهه الأسمر شبكة من التجاعيد حتى أخفت معالمه، لم ينتظر جمال سماع الرجل ودس في يده نصف جنيه... لم يصدق العجوز عينيه وأخذ يتمتم له بالدعاء

طيب احنا عايزين نساعده... مينفعش نسيبه في الطل كده... لو معرفوش يمسكوه النهارده حيمسكوه بكرة

انتبه الأستاذ عبد الحميد واعتدل في مجلسه

نعمل إيه طيب

ممكن نوفرله مكان يداري فيه... بس المهم منبقاش في الصورة... في الدرى كده... لازم يفضل ينغص على البهيم التاني لحد ما يهل المولد والباب يرجع

صرف الأستاذ عبد الحميد كلامه بحركة من يده وعاد للاسترخاء

يرجع إيه بس... انت بتصدق الكلام اللي الناس بتصبر بيه نفسها على البلاوي اللي عيشينها... الباب راح وراحت أيامه ويا عالم يكون فين... ده إذا مكنش اتباع لخواجات من بلاد بره وزمانهم عارضينه في متحف من متاحفهم

ابتسم جمال خطاب قبل أن تقترب امرأة منه فالتفت إليها وأعطاها ما فيه النصيب

ربنا يفتحها في وشـك يا أمير يا ابن الأُمرا

عند انتهاء تلك الدعوة وقف جمال خطاب وقد اتسعت ابتسامه للترحاب بالمأمور.

البقاء لله يا جمال بيه... ربنا يجعلها آخر الأحزان

جلس المأمور وبعض الضباط المرافقين بجوار جمال... عندما انتهى الشيخ من ترتيل القرآن مال المأمور على أذنه وهمس

ربيت لك صاحبك... كان طالع من المركز قفاه يقمر عيش... كله ماشي زي ما انت عايز يا جمال بيه... الوالد الله يرحمه كانت أفضاله مغرقاني وما ينسى الفضل إلا قليل الأصل... بس الوالد كان صبره طويل... أنا كان رأيي من زمان نوديه ورا الشمس ونخلص

ربت جمال على كتف المأمور

مكنش ينفع وقتها يا سعادة المأمور... الناس كان لازم تدوق سمه علشان يكفروا بيه... النهارده الناس هم اللي عايزين يخلصوا منه مش احنا بس

تلك الليلة بعد انصراف المأمور مع باقي المعزين أضاءت ليل الحجازي النيران التي راحت تلتهم الدور المتلاصقة الواحدة تلو الأخرى... يساهم الحطب والتبن الذي يغطي الأسقف في انتشارها... استمات الرجال في إخراج الأهالي والعجائز من الدور قبل أن يأكلهم اللهب... تصاعد الهرج والمرج واستبد التوتر بالنفوس مع استفحال النار... رائحة تزكم الأنوف تنبعث من كل الثنايا... أطفال يتحلقون حول مكان الحريق في ذهول... فيما ارتفع بكاء وعويل النساء المتناثرات بين

الأمتعة هنا وهناك... أنفاس لاهثة ونظرات زائغة مصوبة نحو أعمدة الدخان التي انطلقت نحو السماء فحجبت نور القمر... أخذت صفائح الماء تتنقل بين الأيادي المرتبكة في الأزقة الضيقة... تعارك ألسنة اللهب التي تأبى الاستسلام.

انتشر الخبر بسرعة في كافة أنحاء القرية وتناثرت الحاجيات التي يتم إنقاذها من الدور في الطرقات مع المحاولات المستميتة لمنع انتشار النار... تضاربت الشهادات التي أشار معظمها إلى أن النار بدأت من مندرة سيد خطاب... فيما راح بعضهم ينوح بأن ذلك عقاب تركهم النار تأكل مقام سيدي الحجازي... كان الإمام في الجامع وسط أتباعه عندما جاءه ذلك الشاب ومال عليه وأسر له بشيء ما.

جمع كل الرجالة والشباب هنا

هكذا قال الإمام بتوتر واضح فانطلق الشاب يجمع الفواعلية... دقائق وفاض جامع الحجازي بالرجال حتى ملأ الشارع أمامه... فأخذهم الإمام جمعًا واختار أطول الطرق إلى موطن النار، يقطع أطول مسافة ممكنة من الشوارع يستعرض عزوته... خلع الإمام جلبابه وأخذ يسعى في نقل الماء من الطرمبات المجاورة تارة ويساعد في إطفاء النيران مع الرجال تارة ويهدئ من روع الأطفال تارة أخرى.

بعد قتال مرير دام الليل بطوله تمكن أبناء القرية من إخماد النيران التي أتت على كل ما لامسته ألسنتها... لتبقى النار ملتهبة في الصدور... أتت النار على مندرة سيد خطاب وسبعة عشر دارًا مجاورة لها، بقى أهلها مشردين في الشوارع ينظرون إلى الدور المتفحمة في ذهول... عاد الإمام مع رجاله الذين رابط بعضهم حول الدار فيما اختلى هو ببعض الشباب

في صحن الدار الذي أُضيء بمصابيح الكيروسين

لا ينبغي أن نعطي الدنية في دينا... لازم الكل يعرف إن أي حاجة من ريحة سيد خطاب ملهاش مكان في البلد... ودي رسالة لازم توصل الكل... في ناس ميفهومش غير لغة القوة... في نفس الوقت لازم نقبض على سعيد الأخرس... نخليه عبرة... نضرب المربوط فيخاف السايب

هكذا قال الإمام فأمَّن الشباب على قوله في حماس وتعددت الوعود بقرب سقوطه... ما لم يكن يدركه الإمام في تلك اللحظة هو أن سعيد شخصيًا كان يستمع إلى حديثهم في لا مبالاة تامة... كان جامدًا كالحجر تحت السرير في غرفة الإمام... لا يند عنه صوت أو حركة كي لا يتبه إليه من يتأمرون عليه بحوش نفس الدار... لم يعد يفصله عن رقبة الإمام سوى بضع خطوات... يبذل مجهودًا مضاعفًا لمقاومة تلك الرغبة الملحة في القيام والفتك به في التو واللحظة.

لم يكن من طبع سعيد الرفاعي التسرع، هو ككل الفلاحين فضيلته الصبر... إلا أن الهرج والمرج الذي استشرى الليلة في القرية كان فرصة لن تتكرر للتسلل إلى دار الإمام بينما الجميع مشغولون في إطفاء النيران... لم يكن يملك رفاهية التأجيل... قريبًا لن يصبح له ملجأ في غيطان القرية... كما أنه تعلم من فشله الأول بعدم جدوى محاولة اقتحام دار الإمام وهو بداخلها، الفواعلية يحيطونها جيدًا ولا مجال للمناورة... لذا ما أن أضاءت سماء القرية بالنيران حتى أخرج الخرقة التي أصبحت لا تغادره ودسها في جلبابه بعد أن دفن الصندوق في الأرض، ثم تحرك في حذر... خرج من مخبئه في الغيطان وسار بحذى الترعة التي أصبحت صديقته الوحيدة، إلى أن وصل إلى مشارف القرية... تجنب الطرقات

الواسعة حتى ارتقى جدار دار ملاصقة لدار الإمام وأصبح فوق السطح... قفز منه إلى دار الإمام وظل ساكنًا حتى اطمأن أن الدار خالية تمامًا فهبط السلم الطيني إلى الحوش ومنه إلى غرفته وظل قابعًا تحت سرير الإمام، يقتله انتظار عودته.

ظل الإمام في مناقشات طويلة مع من تبقى من فواعليته... مع من كان يعدهم سعيد أخوته بالأمس القريب... بُهت سعيد عندما أخبر الإمام من معه بكل فخر أن الشيخ محمود قطب يقرأهم جميعًا السلام ويخبرهم أن حريق دوار سيد خطاب ما هو إلا مجرد بداية، فارتفعت بعض الأصوات بالتكبير... بينما راح الإمام يؤكد أنه لن يدع جمال خطاب وأذناب أبيه يهنأوا وأنه سيجعل القرية مقبرتهم... لن يتركهم يعودوا لاستغلال فقر الأهالي لزرع مكان لهم في نفس الأرض التي اقتلعتهم من قريب... وراح يؤكد أن سيد خطاب قبل موته، وجمال من بعده، كانوا على اتصال مع المأمور للتآمر معه بافتعال المشاكل لتضيق حياة أهل القرية حتى اختنق البشر... قال أنهم السبب في قطع السماد، وفحش البحَّار... وختم بقوله

ابن الهرمة له في كل خرابة عفريت

ظل سعيد يسترجع كلمات الإمام في ظلمة الغرفة لا يكاد يصدق أذنيه... الشيخ محمود هو من أحرق القرية... أكان سيقبل تبرير شيخه بأن أخوته الأطفال وأمه سيبعثون على نياتهم إن أحرقتهم ناره وهم نيام... هل كان سيقنع حينها بوصفهم ضحايا لحربٍ مقدسة من أجل إعلاء راية الإسلام... آه، كم كان ساذجًا عندما اقتاده ذلك الشيخ الملعون كالبهيمة في حربه المقدسة على كل من يخالفه الرأي والرؤيا... قطع تسلسل أفكاره صوت صرير باب الغرفة المزعج عندما فتحه الإمام الذي أقل بعد انصراف الفواعلية لحماية الدار... تصلب سعيد في مكانه وتابع خطوات

الرجل وهي تقترب منه حتى استقر فوق السرير... دقائق مرت كالدهر حتى انتظمت أنفاس الإمام وأصبحت أكثر عمقًا... الرجل راقد فوقه لا يفصله عن رقبته سوى القيام من مخبئه، لن يسعفه هذه المرة الفواعلية.. سيكون أجهز عليه قبل أن ينطق.

في عتمة الغرفة، وقف سعيد إلى جوار قاتل توأمه، يسترجع ذلك اليوم الذي أتى به إلى دار أبيه ليخطب أخته، آه كم كان أعمى القلب والبصيرة... اختلطت في أذنه نبضات قلبه المتسارعة بأنفاس الإمام الخبيثة... حاول أن يهدئ من روعه قليلًا، العرق يغرق وجهه وينساب على جلبابه أنهارًا، أخرج الخرقة من ثنايا جلبابه واعتصرها إلى جوار قلبه... التردد يكاد يصيبه بالشلل، شعر بشيء ينغزه في قلبه. هل سيصبح قاتلًا؟ هل انتهى به الأمر إلى ذلك. هل سيذهب عنه شعوره بالذنب حينها وهل سترضى عنه زينب إن فعل؟ وما الذي سيحل على القرية برحيل الإمام، هل سيسلمها من جديد إلى ابن سيد خطاب! كان يعلم أنه على وشك أن يحول الإمام إلى شهيد في أعين الفواعلية... لعن معضلته التي وقع فيها بين رحى الإمام وسندان ابن سيد خطاب، هذا يريد القضاء عليه وذاك يريد استغلاله.

سالت الدموع الحارة على وجنتيه في صمت حتى بللت فراش الإمام... يا الله، ما هذا العذاب. لا يدري ما الذي دفعه إلى اتخاذ ذلك القرار، أهي حرمة الدم، أهو عجزه عن إزهاق روح... أم هو الخوف الغريزي من القتل، لا يدري، لكنه وجد نفسه يسير بهدوء نحو الباب للخروج مخلفًا وراءه الرجل حيًّا يرزق... كان في حاجة إلى إعادة حساباته، إلى مزيد من الوقت... سقط قلبه بين قدميه عندما أطلق الباب ذلك الصرير الملعون وهو يفتحه... ما حدث بعد ذلك كان مزيجًا من أصوات متسارعة متراكبة لم يدركها سعيد في حينها... اخترق طبلة أذنه

هدير عظيم أدرك وهو يرتقي السلم الطيني أنه كان صريخ الإمام الذي استيقظ على صوت صرير الباب... عندما قطع ربع المسافة التي تفصله عن السطح أدرك أن جزءًا من الهدير كان صوت باب الدار الذي اقتحمه الفواعلية... بينما الفحيح الذي تبعه كان مزيجًا من حفيف أقدام الفواعلية التي تتبعه على السلم وسبابهم اللاهث.

عندما خرج الإمام من غرفته، كان شبح سعيد الذي يعدو نحو السطح جليًّا للعيان تحت ضوء القمر فصرخ في اثنين من الفواعلية بكل ما يعتمل في نفسه من توتر

امسكوه... ابن القحبة كان داخل يخلص عليا

## (٥)

أفاقت القرية من غفوتها في تلك الليلة التي تأبى أن تنتهي على ضجة المطاردة التي تتصاعد فوق أسطح الدور... ارتفع لهاث سعيد وهو يقفز بين الأسطح يتبعه الفواعلية يصرخون فيه ليتوقف... كان سعيد بين أيديهم... بعضهم يركض خلفه على الأسطح، بينما آخرون يتابعونه في الشارع في انتظار اللحظة التي يقرر فيها النزول... هبط سعيد جدار إحدى الدور وأخذ يركض حتى اضطره أحد الفواعلية الذي قطع عليه الطريق إلى اتخاذ زقاق ضيق... عندما دخل سعيد ذلك الزقاق، ابتسم الفواعلية، وهدؤوا من ركضهم وتجمعوا قبل الهجوم على الزقاق المسدود.

برغم ضياء القمر الذي أنار الزقاق إلا أنهم لم يبصروا سعيد... بحثت الأعين في الأماكن القليلة التي تصلح للاختباء وقلبت الأيادي أكوام الأغراض التي تركت في الزقاق، حتى أنهم عبثوا بالأحجار... لكن بلا أثر لسعيد... كأنما شُقت الأرض وابتعلته... بدأ التوتر يغزوا أنامل

الفواعلية وخفقت قلوبهم في غضب... اقتحموا الدور الخمسة التي تكون الزقاق المسدود فارتفع عويل النساء اللاتي استيقظن على طرق الأبواب المحموم ثم اقتحامها... تشاجر الرجال معهم لكن ذلك لم يحل في النهاية من تفتيش الدور... بلا جدوى!

بينما الفواعلية يفتشون ويتشاجرون مع الرجال، كان سعيد يركض مع آدم السناري على سطح دار عمه، بعد أن التقطه الأخير سريعًا من الزقاق حينما بدت النهاية محتومة... ترن في أذنه كلمات امرأة عم آدم التي قالت بعصبية أنها ستؤخر الفواعلية ريثما يتقل سعيد من سطح الدار إلى أحدى دور السناري المتلاصقة.

عندما هبط الشبحان إلى الدار التالية، كان أهلها قد استيقظوا بالفعل، وعندما تبينوا سعيد بصحبة آدم لم يكن هناك داع للشرح... ارتدى رب الدار جلبابه في عجل وأشار إلى الباب

لازم نبعده عن هنا بسرعة، شوية والفواعلية حيفتشوا كل الدور اللي جنب دار عمك يا آدم... تعالى معايا

تسللت ثلاث ظلال في تلك الليلة القمراء، تخترق الطرقات الضيقة، في محاولة للابتعاد عن الضوضاء قدر المستطاع، حتى خفتت الأصوات في الأزقة الملتوية إلا من صوت أرجلهم... أشار آدم إلى دار متهالكة، وطرق بابها في هدوء حتى فتح الباب رجل أربعيني في ملابسه الداخلية، لم يطل الحديث كثيرًا حتى استوعب الرجل المطلوب منه.

عندما اختلى سعيد بأهل الدار، كان لا يدري بما يشعر، بفرحة النجاة أم بالخوف من الآتي، عليه وعلى مضيفيه... قدمت له المرأة جلبابًا نظيفًا وأعدت له وجبة ساخنة، ثم اصطحبت من استيقظ من العيال إلى الغرفة المجاورة، تتوعدهم إن هم أخبروا أي شخص بما رأوا، بينما ظل

الرجل يتابع سعيد الذي أخذ يأكل في صمت، قبل أن يقوم إلى إحدى الغرف... عندما عاد الرجل كان يحمل ورقة مطوية وضعها أمام سعيد وابتسم... عندما رفع سعيد عينيه من الصحن رأى نقوش الباب التي نقلها من الذاكرة تطالعه من الورقة التي أصبحت مهترأة... تلك الكلمات الغريبة التي أصبحت تعني له كل شيء... التقط الورقة وطالعها ثم ابتسم للرجل... حينها فقط تغلب عليه الشعور بالفرحة.

عاد الفواعلية لتفتيش الدور مع شروق الشمس التي حجبت آشعتها سحابة كثيفة من بقايا دخان الأمس غطت باب الحجازي... فقد الفواعلية صوابهم، ضيق اثنان منهم على أم سعيد... أصبحوا لا يبرحون الدار، يتابعون كل حركاتها ويبعدون الزوار عنها، كما أصبح العبث بالدور عشوائيًا، وبناءً على وشايات لا أساس لها سوى أحقاد الجيرة... يقتحمون الدور، يتوعدون الرجال وينهرون النساء إن أبدين تذمرًا... إلى أن تكاثر الأهالي على ثلاثة منهم وأشبعوهم ضربًا وأخرجوا ما بنفوسهم من غل... منذ ذلك الحين لم يعد الفواعلية يتحركون إلا في جماعات، مع عصبة من شباب ميت الشوكة، كما أصبح ضرب من يشك في تورطه في إخفاء سعيد اعتياديًا، حتى أنهم اقتادوا واحدًا من الأهالي، عثر في داره على تلك الورقة التي أصبحت كبيرة من الكبائر، اقتادوه إلى الساحة وتم ضربة أمام أعين الجميع، لكن ذلك لم يفض إلى أي نتيجة، لم يفت في عضد الأهالي الذين ازداد إصرارهم على حماية سعيد الذي أصبح يمثل كل آمالهم في الخلاص.

لم يتعرض سعيد لخيانة واحدة برغم تنقلاته العديدة بين الدور... كان الاحتفاء القَلِق هو السمة المشتركة في جميع الوجوه التي أضاءت لوقوع شرف الاختيار عليها للإبقاء على أمل البلدة حيًّا... البعض حاول التعرف منه عن خططه للخلاص من الإمام، حاولوا استنطاقه عما سيفعله معه،

والسؤال الأهم هو عن الباب، أين أخفاه وكيف سيعيده إلى مكانه، وهل هو على اتصال بالشيخ عبد الكريم... لأول مرة يشعر سعيد بالرضا عن نقل لسانه الذي كان ينقذه عادة من سيل الأسئلة المنهمر.

كانت عادة سعيد ألا يبيت في دار واحدة أكثر من ليلة، يختارها له آدم... صباح ذلك اليوم، حل سعيد على دار المحمدي... وهو من الفلاحين الذين فقدوا عملهم في أرض سيد خطاب، رجل طويل جرم، ذو شارب كث. يكره الإمام كالموت... جلس يدخن سجائره الرديئة التي يشتريها بالأجل ولا يسدد ثمنها، يخبر سعيد كم يتمنى أن يساعده في الخلاص من الإمام، ذلك الشيطان الملتحف بعباءة الدين كما وصفه المحمدي... أخذ نفسًا من سيجارته وزفره قبل أن يقول

أنا من القليلين في البلد الخربانة دي اللي مخلش عليهم كلامه... الناس قعدوا يقولولك ده بتاع ربنا، وجه يخلصنا من الحرام اللي سيد خطاب غرق البلد فيه... بص حوليك دلوقتي، تبيع لحمك ولا تبيع عرضك، والله انت راجل يا سعيد واحنا مكناش عارفين مقامك... ومسيرك تخلصنا منه وتاخد بتار أختك، واحنا في ضهرك

استرسل المحمدي في وصف كم يتمنى أن يخلص عليه بيديه العاريتين... قص على سعيد المآسي التي شهدتها أسرته منذ أن فقد عمله في أرض سيد خطاب، يلعن الإمام في نهاية كل جملة. وهو لا يدري أن الفضل الأكبر في رحيل سيد خطاب يرجع إلى ضيفه.

على الأقل كان في أصول أيام سيد خطاب... مكنش في حد بيضّرب في الشارع ولا كان في فواعلية طايحين في الخلق

لم يجادله سعيد، لم يشأ أن يحول الساعات القليلة التي سيقضيها بداره

إلى ذلك الجدل العقيم بتذكرته بظلم سيد خطاب وبطش رجاله بالناس بلا رادع... المحمدي كغيره من أبناء القرية قنعوا بالقليل حتى نسوا أن هنالك ما هو أكبر من الفتات الذي كان يلقيه لهم سيد خطاب والإمام من بعده كي يحلموا به.

أنهى المحمدي سيجارته ونهض ليتركه وحيدًا، خلال ذلك اليوم انتابت سعيد مشاعر متراكبه... عايش ضيق الحال الذي جره رحيل سيد خطاب على البلده، ممثلًا في البؤس المقيم بالدار، سوء التغذية البادي على الأطفال العراة وغرفة الخزين الخالية، والطبلية التي لا تكتسي سوى بأرغفة قليلة من خبز الذرة، حتى الحبال التي تتدلى من الجدار أصبحت خالية من البصل والثوم... لكن كان على الجميع تحمل المشقة كي يصلوا إلى ماهو أفضل من الواقع البائس. لم صبرت باب الحجازي على الظلم وضيق الحال من قبل، حينما لم يكن له معنى وبلا غاية ترتجى، ولا يطيقون الصبر الآن مع وجود أمل في غدٍ أفضل.

في المساء أحس سعيد بالقلق، كان راقدًا على فرشته عندما أدرك أن المحمدي يتشاجر مع امرأته. اضطرب سعيد، لم يكن يريد إثارة قلاقل بسبب وجوده... لم يتبين شيئًا من صوت المحمدي المنخفض، بينما يصله أطراف من حديث امرأته الغاضب

يا لهوي... الناس حتاكل وشنا... إلا... يخرب بيتهم

همس المحمدي من جديد بشيء ما لا يميز فعاد صوت امرأته يرتفع

مش دول اللي خربوا... تحط إيديك... خطاب...

توترت عضلات سعيد وانتصب من على فرشته... اقترب أكثر من الباب حتى تبين صوت المحمدي يهمس

القرشين دول يسدوا جوع العيال يا ولية يا خرفانة

اعقل يا راجل وخرج الطمع من قلبك ينحل القيد من رجلك...
الحرام ميدمش

قفز سعيد عائدًا إلى فرشته، استخرج الخرقة الصوفية من تحتها وهرع إلى باب الدار، لم يكن بحاجة إلى سماع المزيد ليعرف أن المحمدي قد باعه... ما أن فتح الباب حتى وجد العشرات من الفواعلية في انتظاره، تعلو وجوههم ابتسامة حملت شماتة الانتصار.

## (٦)

صباح اليوم التالي، عندما انتشر خبر وقوع سعيد في براثن الإمام وفواعليه، كتمت القرية أنفاسها، أو لعلها فقدت القدرة على التنفس مع تبخر الأمل في العودة إلى حياتها الطبيعية. ذلك الأمل الذي ولد باهتزاز أركان عرش الإمام بعد ظهور سعيد الذي نزع عنه هالة القدسية التي حاول إضفاؤها على ذاته... ثم راح الأمل يتعاظم بتدخل المأمور والقبض على الفواعلية... ليوأد على حين غرة بسقوط سعيد.

هرول الأستاذ عبد الحميد علام إلى دار جمال خطاب التي انتقل إليها بعد احتراق مندرة أبيه، كان الخبر قد وصل إليه بالفعل فجلس الرجل يلتقط أنفاسه المتسارعة من التوتر

بيقولوا أنه ناوي يخلص على سعيد... لازم نتصرف يا جمال بيه...

كان هدوء جمال شديدًا، يكاد يصل إلى البرود وهو يجيبه

ليه

ارتفع حاجبا الأستاذ عبد الحميد

ليه إيه! الناس روحها حتطلع... كون سعيد وقع ده ده بيقضي على كل حاجة إحنا عايزنها... بعد ما كانوا صدقوا أن البلوة ده حينزاح وأن الباب حيرجع... كل ده حيروح... انت لو اتدخلت دلوقتي حتبقى في عين الناس أبو زيد الهلالي

ابتسم جمال وقال

أنا لو اتدخلت دلوقتي حبقى في وش الغبي ده... أما لو سبته يعمل اللي في دماغه مع سعيد حيبقى هو في وش الناس كلها... كل واحد له شيطان، وشيطان الحيوان ده نفسه... كل اللي علينا إننا نسيبله الحبل على الغارب وهو حيشنق نفسه بيه... زي ما عمل معاه أبويا الله يرحمه... أنا حسيبه يقتل نفسه بغبائه... ولما الناس تاكله بسنانها آجي انا وألم الغجر بتوعه من غير ما حد يزعل عليهم وساعتها أبقى أبو زيد الهلالي بجد

انعقد حاجبا الأستاذ عبد الحميد في تفكير عميق بينما بعث جمال في طلب الشاي... راح يقنع الأستاذ عبد الحميد بهدوء أنه عندما تسود الفوضى يأكل الناس في لحوم بعضهم البعض حتى يضج المجتمع المهترئ ويبحث عن أي نظام يوفر له مطالبه الأساسية أيًا كان الثمن... حينها سيطالبه الناس بل ويترجونه للظهور على الساحة... وذلك هو ما سعى إليه ووفره له الإمام بغبائه.

بحلول الظهيرة، وتحت وطأة القيظ الضاغط على القرية المنهكة اقْتِيد سعيد وقد رُبط ساعداه أمامه... لم تكن القرية، باستثناء تلك الدور التي استضافته الأيام الفائتة، قد رأته منذ أن طردته أمه من الدار، تغير سعيد

أيما تغير، صار هزيلًا، ضعيفًا، مشعث الشعر زائغ النظرات وقد نمت لحيته بلا تهذيب... سار بدفع أحد الفواعلية الذين أحاطوا به من جميع الجهات ليحولوا دون وصول أي من الأهالي إليه... شعر سعيد أن الشارع المنحدر يساهم بدوره ليلقي به إلى قدره... لكن حلقة الفواعلية التي تحيط به لم تمنع فلاحًا هزيلًا من القفز بين الصفوف حتى وصل إلى سعيد وانحنى على قدميه ليعطيه نعله عندما أبصره حافيًا... قبض أحد الفواعلية على طرف جلباب الفلاح وجذبه فتمزق، قبل أن يدفعه بعيدًا عن الطريق وهو يسبه بينما دفع آخر سعيد من جديد بقسوة كأنما يعاقبه على تعاطف الرجل معه فسقط على وجهه... سارعت إحدى الفتيات إليه ومسحت عن وجهه التراب وابتسمت في وجهه فبادلها سعيد ابتسامة واهنة قبل أن يسقط عليها الفواعلية بالعصي... ارتفعت احتجاجات الجمع، وجاء صوت من الخلف يقول في انكسار

أبدان مسلطة على أبدان

وصل الجمع، الذي يزداد مع كل خطوة حتى بدا أن القرية قد تجمعت عن بكرة أبيها، إلى ساحة الباب التي غطتها سحابة من الغبار بفعل الأقدام... أحاط الفواعلية بسعيد وحالوا دون اقتراب أحد منه، يحذرون الجميع ويتوعدونهم إن هم تجرأوا على المساعدة أو حتى مجرد الاعتراض... وقف القاضي الشرعي الذي تتوسط علامة صلاة عملاقة جبهته بين ذلك الجمع المهيب يحمل ورقة صفراء أخذت ترتعش في يديه... أخذ نفسًا قبل أن يقرأ منها بصوتٍ عال

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لحدٌ يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحًا... أو كما قال رسول الله... كما رُوي في الأثر عن سلفنا الصالح أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

ضرب شاهد الزور أربعين سوطًا وسخم وجهه وطاف به المدينة

أخذ الهرج والمرج يزيد بين الحضور ذوي العيون المذعورة فأعمل الفواعلية المتوترون العصي في أجساد بعض الحضور، بينما مال أحدهم على أذن القاضي الشرعي يستحثه على الاختصار، فأكمل الرجل في عجالة

وعليه فقد قضت المحكمة الشرعية بكفر ترما بجلد المجرم سعيد الرفاعي ٣٠٠ جلدة تعزيرًا على ثلاثة أيام... وذلك لاستحلال ما حرم الله تعالى، فقد قام المجرم بنقب الدار وانتهك حرمتها وعقد النية على القتل... وذلك فيه إضرار بالمصلحة الشخصية والمصلحة العامة... وصلِّ اللهم على نبينا محمد وآله وصحبه اجمعين

اتسعت عينا سعيد من الدهشة والذعر، قبل أن تنهمر دموعه... كان سعيد مذهولًا بينما أخوانه، الذين تخيل يومًا أنه يرى معهم الإسلام يشرق على باب الحجازي... أخوانه الذين ابتلت لحاهم سويًا من أثر البكاء من خشية الله، يقبضون عليه ويقيدونه بتلك القسوة... ظل مذهولًا بينما يتلى عليه قرار اللجنة الشرعية التي ساعد في بنائها لتحكم على الفاسقين، أعداء الإسلام، فإذا بها تحكم عليه اليوم ـ بالآيات والأحاديث الصحيحة ـ أنه مجرم.

أخذ سعيد يصرخ عندما انهالت الجلدات على جسده المنهك، بينما أحد الفواعلية عريض القفا مشغول بعد الجلدات... ناحت كل خلية في جسده ألمًا... كأنما ينبع الألم من داخله، أخرج الفواعلية غلهم وخوفهم من الغد في جسده الضعيف من أثر سوء التغذية والنوم بالعراء لشهور... حاول أن يبقى على ركبتيه رافعًا رأسه لكن هجوم السوط، المستورد

خصيصًا من ميت الشوكة، والألم جعله يحاول الابتعاد غريزيًا فسقط على وجهه... لم يتوقف الشاب الممسك بالسوط رأفة به... لم يخفف من حدة الضربات... لم يباعد بينها كي يلتقط أنفاسه... بل تابع الجلد كأنما سقوط سعيد كان إعلانًا بكفاءته كجلاد، بينما أخذ آخر يصيح فيما يشبه النشوة "تسعة"

دفع المحمدي الجموع حتى وصل إلى منتصف الدائرة وانحنى بجوار سعيد الذي كان يجاهد ليتلقط أنفاسه وخلع جلبابه الرخيص وطاقيته

يا اخونا ده مش حيستحمل... ده جلد على عضم... حرام عليكم... أنا حكمل بداله

دفعه أحد الفواعلية بقلمه فسقط أرضًا بينما جره آخرون خارج الدائرة

ربي عيالك أحسن يا محمدي

تشنج المحمدي وانهمرت الدموع من عينيه

اللي بيحصل ده ميرضيش ربنا

قال الشاب بعصبية

تعرف ايه عن ربنا انت يا حشاش... أنا خرجتك من جوه بالعافية، لو كانوا اتلموا عليك كانوا قتلوك... متقولش كلام يقصف عمرك... أنا بقول كده لصالحك وانت حر... متفتكرش علشان سلمته ده حيحميك من الضرب

في داخل الدائرة أكمل الجلاد مهمته وارتفع صوت الشاب المنتشي من جديد

عشرة... حداشر... اتناشر

يقطع ذلك التعداد التصاعدي صوت السوط وهو يشق الهواء يتلوه صوت ارتطامه ببقايا لحم سعيد وعظامه أينما اتفق.

تمرغ سعيد على بطنه من الألم وأخذ يشهق والدموع تسيل بحورًا من عينيه... بجانب الألم الذي لا يوصف قبض الحزن على قلبه حتى اعتصره فرفع وجهه إلى السماء... إلى الله... يلهث بالدعاء بلا ترتيب وبلا توقف... يشكو له مصابه وضعفه... ها هو في أقرب موضع حين اقترب من خالقه... حين أيقين متأخرًا أن المولى يهب كل من عباده طريقة للتقرب إليه... لعن ذلك الهوس الذي أصابه بتطبيق طريقة حياة واحدة على الجميع وها هو يتجرع جزاءه بالسوط الذي جلبه إلى بلدته... كان آخر رقم سمعه سعيد في تعداد الجلدات هو ثلاثون... بعده لم يعد يشعر بالألم... وفي تلك اللحظة، وبرغم السائل اللزج الذي أغرق ظهره، والذي تخور قواه كلما انسحب المزيد منه من جسده، أحس أن دونيته تنتفي عنه... شعر أنه يحلق في الملكوت... يا الله كم كان يفتقد ذلك الصفاء الروحي... لم يعد يستطيع السيطرة على هياج مشاعره فراح يشهق بقوة أكبر، يكاد يغرق في دموعه.

تبخر عنه الخوف والشعور بالخطر... شعر به ينسحب من جسده... وتركه مع تداخل الرؤى بالذكريات. رأى وجه أبيه وأخته زينب... شعر أنه على بعد خطوات منهم فاشتاق أن يقطعها سريعًا... تخلل إليه صوت السوط يزعق على ظهره، يصرخ بموته... صوت الرجل المنشغل بالعد أصبح بعيدًا... رأى وجه أمه وأخواته الصغار، لم يكن متأكدًا إن كان وهمًا أم أنه يراهم فعلًا، لكنها كانت وجوهًا مطمئنة، بعثت في نفسه مزيدًا من الراحة... عندما صدمته صرخة السوط التالية كان يرى المروج الخضراء الفسيحة التي سمع عنها في حكايات أبيه قبل أن تنتشر الدور وتقضي عليها، رأى جلسات المصاطب وغمرت أنفه رائحة الخبز الطازج

الخارج من الفرن... بدت له حياته البائسة ذكرىٰ بعيدة كبعد الرحمة عن قلب جلاده... رأىٰ آشعة الشمس الصفراء تستقبلها تربة سوداء يعزقها خاله في أرض سيد خطاب... سيد خطاب العائد في جلباب ا! ثم تذكر الإمام... والباب... وجلسات السماع التي طالما هاجمها... إلا أن ألحانها راحت ترن في أذنيه كصوت بعيد خافت، صوت محبب سمعه في المرات القليلة التي اصطحبه فيها أبوه إلىٰ السمعخانة... قبض علىٰ الخرقة التي مازالت في يده، الخرقة التي لوثتها الدماء والأتربة.

نظر سعيد إلىٰ مكان الباب الفارغ... الرؤيا ضبابية إلا أنه يرىٰ الإطار المحترق بوضوح... لكنه لم يجد الباب فزاد بكاؤه... كطفل فقد أمه في الزحام بلا أمل في عودته إلىٰ دفء كنفها... تتصارع بداخله الروايتان... الرواية التي تربىٰ عليها حيث الحجازي هو ذلك العبد الصالح ذو الكرامات... والباب هو تلك الصلة بين العبد وربه... نقاء وصفاء... ورواية الباشا لأخيه، حيث الحجازي لص والباب مسروق بلا أدنىٰ معنىٰ... لا يدري لم تصارعت تلك الروايات في عقله الذي اجتاحته غمامة بيضاء غلفت كل ما يفكر به أو يراه... لعله صار يبحث عن معانٍ لحياته التي توشك علىٰ الانتهاء، لعلها سكرات الموت تعبث بعقله وتشوش حواسه... هل هي حياة بلا معنىٰ أكسبها القوم فلسفة فارغة بحكاويهم وأساطيرهم أم أنها حياة لغاية لها دلائل لا يغفل عنها سوىٰ أعمىٰ... حاول أن يصرف نظره عن الدم الذي أخذ يزحف علىٰ نسيج جلبابه الأبيض حتىٰ وصل إلىٰ كمه... بدا الصوت بعيدًا... صوت من بئر سحيق... لكنه ميز اسمه... سعيد!

رفع عينه فوجد زينب تجثو علىٰ ركبتيها وتبكي... لم يسمع بكاءها... الصوت بدا بعيدًا إلا أن دموعها كانت تجري بلا توقف، تشير إلىٰ الباب الذي عاد إلىٰ مكانه الأول، في صدره تلك الكلمات التي لا يقدر علىٰ فك

طلاسيمها... تلك الكلمات التي بها ملاذه لكنه لا يستطيع أن يدركه... حاول أن ينطق... أن يخبرها كم يفتقدها... أن يرجوها كي تسامحه، إلا أن لسانه كان ثقيلًا فاكتفى بابتسامة واهنة وضغط يدها ضغطة سرعان ما تراخت وأغمض عينيه.

## (٧)

كانت الأجواء لا تزال ملتهبة عندما عاد الإمام بعد صلاة الظهر من اليوم التالي إلى داره... الأمتعة لا تزال متناثرة في الطرقات والأزقة... النفوس لا زالت تستعر بلهيب الغضب الذي يتأجج في الصدور... ودماء سعيد الرفاعي لا تزال رطبة في الأرض... استعد الرجل للقيلولة بعدما تناول الغداء مع رجاله المرابطين حول الدار... تسارعت دقات قلبه واستبد به التوتر عندما تصاعد الهرج والمرج خارج الدار فسارع بطلب تفقد الأمر من أحد الفواعلية... كان وجه الشاب لدى عودته مهرولاً يقبض على طرف جلبابه كمن يحمل أنباء وقوع الواقعة... الأهالي يلتقطون الرجال كالجرذان من جحورهم والزحف في طريقه إلى الدار... هكذا أخبره الشاب ما بين أنفاسه اللاهثة ونظراته الزائغة.

امتثل الفواعلية الفؤوس والعصي واستعدوا للدفاع عن الدار حتى آخر نفس... ما الذي أجج ذلك الغضب على حين غرة وكيف لم يره

يأتي من قبل... أهو ما أصاب سعيد الملعون... هكذا راح يتساءل الإمام... لكن الوقت لم يكن يتسع للتساؤلات فأرسل شابًا إلى ميت الشوكة لطلب المدد من الشيخ محمود قطب ثم جلس بين أتباعه... يكاد يلمس اضطراب القلوب... أخذ يذكرهم بالثبات... يبث في أنفسهم قوله تعالى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1]... راح يذكرهم بالمؤامرة التي تنصب للإسلام باجتثاث جذور الصحوة من القرية التي تلوثت فطرة أهلها حتى ركنوا إلى عودة الماضي النجس ورفضوا مستقبلهم مع شرع الله.

ارتفع صوت أحدهم يقول

والعمل يا مولانا

آه لو يدري إجابة لذلك السؤال... لكن شابًا نحيلًا ضامر الوجه ذا شارب أصفر يدعى عطية أسعفه بقيامه يخطب في الشباب... يدعوهم للذود عن الإمام بأنفسهم بكلماته الحماسية وحركة جسده العصبية ويديه التي لا تهدأ... وسرعان ما قادهم خارج الدار حيث تمترسوا في الطريق ليكونوا صفًا في مواجهة الأهالي.

على بعد بضعة طرقات منهم، هرول كامل إلى جوار كلبته ليتقدم الجمع المتوجه إلى دار الإمام... يكفكف دموعه التي لم تجف منذ الأمس... سار الجمع الضخم مخلفًا وراءه غبارًا كثيفًا في الطرقات

---

(1) سورة البقرة - الآية ٢٤٩.

التي يقطعها صوب دار الإمام عاقدًا العزم على اجتثاث جذوره من بلاد الأحياء... علا هياج النساء على أطراف الجمع، يتنفسن أخيرًا بالآهات التي ظلت حبيسة الصدور على فتياتهن المغتصبات من الكهول... يتبعهن شيوخ البلدة الذين لم يتقبلوا التغير الذي أقحم عليهم، توحدهم جميعًا رهبة الغد المجهول الآتي في عباءة الإمام.

تسلح بعض رجال سيد خطاب بالحجارة والعصي والقضبان الحديدية وانضموا إلى الجمع مع الرجال الذين خرج بعضهم في سراويله البيضاء القصيرة على عجل... ينمو العدد كلما مر بدار تلو الأخرى... ينمو بانضمام هؤلاء الذين لم يتحركوا عندما شاهدوا الظلم بأعينهم خوفًا من الفواعلية، لكن الجموع الغاضبة أذهبت عنهم الرهبة وشجعتهم على الانضمام، يراودهم الأمل في الخلاص الذي كاد يتبخر مع سقوط سعيد... بدا أن البلدة بأكملها تزحف على دار الإمام... ترتج الأرض تحت أقدامهم في زحفهم الحثيث.

ارتجفت قلوب الفواعلية الذين قطعوا الطريق عندما أبصروا العدد المهول الهاجم على صفوفهم الضئيلة ذات الوجوه السمراء المتوترة... سارع كبار البلد باختراق الصفوف عندما أبصروا أولادهم وأقاربهم في مواجهتهم

ارجع ياد منك له... حتقف في وش أبوك وعمامك

بدا التردد على بعض الوجوه اليانعة... إلا أن عطية راح يصرخ فيهم، تهتز قامته على إيقاع كلماته ويسيل العرق على وجهه

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

هكذا راح يصيح بالصفوف المتأرجحة حتى فوجئ الجميع بسيل من الدماء ينهمر من رأسه بغزارة بعد أن شجه حجر سقط عليه من جهة

الأهالي الذين بدا أن صبرهم لن يدوم طويلًا... بدأ صف الفواعلية المتوتر في الترنح والتقهقر للخلف مع تقدم الأهالي بينما حُمل عطية إلى الدار حيث يقبع الإمام.

عندما جاءه ذلك الطرق المدوي من الباب، وعد الإمام نفسه بالحفاظ على رباطة جأشه وهدوئه، خاصة أمام رجاله الذين ينظرون له بمثابة القدوة والمثل الأعلى... وبرغم محاولته المستميتة للتظاهر بالشجاعة فقد أخذ جسده يرتعش بالكامل عندما تبين بصعوبة عطية الغارق في دمائه... رفع إصبعه إلى السماء في حركة لا شعورية وراح يردد بصوت جهوري " وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ [1]"

عندما أُلقي عطية على الحصيرة وهرع من يحملوه إلى ثنايا الدار بحثًا عما يوقفون به النزيف سقط بجواره الإمام يتخيل نفسه وقد وقع فريسة سهلة بلا مخالب في أيدي الأهالي... كادت الوساوس أن تفتك به فقام يسعى في حوش الدار يمنة ويسرة كحبيس ينتظر تنفيذ حكم الإعدام ثم هرع إلى غرفته واستل فأس أبيه الذي لم يستعمله يومًا في حياته... وعد نفسه أنه لن يسقط حيًا بين أيدي الملاعين ناكري الجميل... هبط قلبه بين قدميه من جديد عندما تصاعد طرق الباب مرة أخرى... لكنه فتح عندما أتاه صوت الشاب الذي بعث به إلى ميت الشوكة

فين الرجالة يا بني آدم؟

هكذا قال الإمام في لهفة لم يعد من المجدي أن يتستر عليها

الشيخ محمود قطب الحكومة قبضت عليه ولموا الأخوة في ميت

---

رة يس ـ الآية 9.

الشوكة... البلد مقلوبة ويبقولوا المركز في طريقه لينا... اللي متمسكش هرب... المصيبة إن الناس ولاد القحبة بدل ما يقفوا في ضهرنا شمتانين فينا

أصبح وجه الإمام باهتًا كوجوه الموتى وظهر تعب السهر والإعياء عليه فجأة... أخذ الشاب يعدد له الأسماء التي لم يقبض عليها والتي كانت تعد على أصابع اليد الواحدة ثم قال بصوت مرتعش

لازم تمشي يا مولانا من هنا بدل ما يخطفونا زي الفراخ المزنوقة في ركن واحد

عندما ارتقى الإمام سطح داره راح يتطلع إلى السماء الزرقاء... إلى طائرين متجاورين حلقا مبتعدين عن سماء القرية التي لازالت تحمل بعض آثار دخان حريق القرية... راح يتابع رحلتهما في اللحاق بالشمس الهاربة إلى ما وراء الأفق... حوله تتناثر الظلال مع زحف الظلام بينما يصله عويل سيارات الشرطة تزعق بنهايته... كم يكره تلك الكائنات المحبة للظلام... كالظلال يزحفون في جنح الظلام يقتنصون البشر من دفء البيوت إلى برد الزنازين... لعن المأمور في خاطره وترك بصره يتيه في زرقة السماء... أدرك متأخرًا كيف تم التلاعب به... كيف انسحب الجميع تاركين له الساحة فارغة كي يغتر بقوته... كم كان مغفلًا عندما ارتكب نفس الأخطاء وغض النظر عن سخط الناس المتنامي... عندما اختفى الطائران كان أحد أتباعه قد لحق به إلى السطح، يحمل بعض المؤن والملابس في صرة صغيرة، فيما تناهى إلى سمعه صوت الأهالي الغاضب ينبئ باقتراب الخطر.

دقائق قليلة حتى انتشر الجنود كالجراد من خمس سيارات للأمن المركزي وسط تهليل الأهالي الذين حاصروا دار الإمام حيث تحصن الفواعلية... بضع طلقات في الهواء من طبنجة المأمور كانت كفيلة بإقناع

الفواعلية بالاستسلام، عبث بعدها الجنود بالدار بحثًا عن الإمام بعد أن اقْتِيد جميع رجاله داخل سيارات الترحيلات التي كانت بانتظارهم... بدأ البحث المحموم عن الإمام في الدور والغيطان بلا طائل... وبرغم نجاحه في الهرب إلا أن الفرحة كادت تصرع الأهالي... بعضهم حمل المأمور فوق الأكتاف... بينما راح رجال سيد خطاب يهللون لجمال الذي ظهر بعد أن انتهت المواجهة تعلو وجهه ابتسامة ساحرٍ منتشٍ أنهى لتوه حيله الكبرى.

لم ير الإمام الاحتفالات برحيله، لكنه كان يتخيلها في طريقه إلى المجهول في سيارة الأجرة المتهالكة التي أقلته بعيدًا عن باب الحجازي... انتزعه من بقايا الأفكار المهلهلة صوت السادات الذي ارتفع من مذياع السيارة كالأسد الجريح... يبرر الاعتقالات التي طالت حلفاء الأمس خلال الأيام الماضية من الإسلاميين والمعارضين حتى ناءت بحملهم السجون... مهاجمًا تدخل الدعاة في شئون السياسة حتى طالت انتخابات اتحاد الطلبة ومجلس الشعب والقضاء والحزب الوطني واتهام الحكومة والسادات شخصيًّا بالإسراف... صائحًا بأن ذلك مجرد تخريف بذيء يقال للتغرير بالأولاد الغلابة الذين لازال لا يريد أن يتعرض لهم... أخذت العروق تنبض غضبًا في رقبة الإمام عندما راح السادات يؤكد بين موجات التصفيق التي تقطع خطابه الطويل أمام مجلس الشعب أنه أخطأ عندما منح الجماعات الإسلامية الحرية وأخرجهم من المعتقلات التي ملأها عبد الناصر ليقع الشباب في حبائل من تجردوا من كل القيم والأخلاق... يتهمون الدولة بعدم الوفاء بوعود تطبيق الشريعة ويتهمونها بمحاربة الإسلام والتضييق على الدعاة لتأليب الرأي العام بينما يتغنون بالمثال الإيراني الفاشل وأوجبوا الجهاد ضد الدولة الكافرة والمجتمع الكافر بعدما حرموا التعامل مع القضاء والتعليم

والإعلام والالتحاق بالجيش... أخذ يتوعد هؤلاء السفلة بعدم الرحمة وتطهير المنابر من البذاءات التي تقال عليها... ا خطاب السادات، الذي يتحدث كأب يعطي الإنذار الأخير، للإمام مستفزًا ومتعاليًا لأبعد الحدود... حاول الرجل جاهدًا تجاهل الجدل الذي أخذ يحتدم بين الركاب حوله بعدما قرأ السادات قراراته بحظر استخدام الدين أو دور العبادة للأغراض السياسية، ضاغطًا على حروف كلماته وهو يقول "لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة"، بالإضافة إلى إلغاء تراخيص صحف وحل جمعيات... بعض الراكبين جادل بقوله أن الجماعات الإسلامية مجموعة من الجاحدين انقلبوا على اليد التي أكرمتهم فتحالفوا على السادات مع المعارضة التي تهجم عليه وعلى عائلته، بينما آخرون يرون أن السادات يخرس كل الأصوات التي تعارضه بعد أن انقلب السحر على الساحر، ليصبح فرعون مصر الأوحد، يدير دولة كعزبة خاصة يمنح ويمنع بلا سيادة للقانون... دفن الإمام وجهه بين كفيه وعاد إلى أفكاره التي سيطر عليها اليأس بعد أن سقط كل ما بناه بلا مقدمات.

# الخاتمة

## (١)

كان الشتاء يلفظ أنفاسه الباردة الأخيرة ليولد الربيع وتقوم الأرض من غفوتها الطويلة... تدخل أشعة الشمس الصفراء الدور كالعسل يصب في قدوره وتتصاعد الرطوبة التي عششت في الجدران... امتلأت الدروب بالصبية الذين أجلستهم لسعة البرد طوال الشتاء في الدور بجوار الأفران الدافئة... حتى حركة البهائم صارت أنشط وكفت الحمير عن بلادتها، تغريهم الخضرة اليانعة التي كست باب الحجازي إلى الحركة.

لكن الحركة الأهم في باب الحجازي لم تكن حركة الأطفال أو البهائم، بل أعمال ترميم المقام التي سارت على قدم وساق، حبست باب الحجازي أنفاسها حين انتشر الخبر بأن جمال خطّاب سيعيد الباب... أعيد بناء الضريح، وأعيد ترميم إطار الباب، كما أعيد طلاء اللوحة الصدئة على مدخل القرية أخيرًا لتقرأ "باب الحجازي"، وشعرت القرية أنها وضعت أيام الإمام وفواعليته وراء ظهرها.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي دخلت فيه سيارة جمال خطاب الفارهة إلى ساحة الباب، يتبعها سيارة نقل يركض خلفها بعض الفلاحون العاملون في عزبته... توقفت السيارتان أمام بقايا المقام المحترق وبقى جمال في السيارة برهة، تجمع خلالها الخلق حول السيارة يحاولون استراق النظر لحمولتها. لم يمض الكثير من الوقت حتى حضر المأمور مع سيارتين من الشرطة في صحبة سيارة أخرى فارهة. هبط منها محمد عفيفي، عضو مجلس الشعب عن الدائرة التي تقع في نطاقها باب الحجازي. عندها هبط جمال من سيارته، ليكتمل بهبوطه الثلاثي الذي وقف يتابع الرجال وهم ينزلون شيئًا عملاقًا مغطى جيدًا من العربة النقل... لم يكن الناس بحاجة إلى الكثير من الخيال لمعرفة ما يختفي تحت الغطاء... دمعت العيون، وتعالت الشهقات، بينما أخذ الأطفال يتراقصون حول الباب الذي لم ينزع عنه الغطاء بعد.

حرص جمال أن يكون الاحتفال بالمولد مبهرًا ذلك العام... لم يكتف بجلب توفيق العروسي، الذي كان بمثابة الأيقونة التقليدية للموالد، بل أحضر جميع المنشدين من الموالد الكبرى، من مولد السيدة نفيسة، والسيدة زينب، والسيد البدوي تأكيدًا على بدء حقبة جديدة لباب الحجازي... ملأت السرادقات الشوارع، وبالغ الناس في الاحتفال... قابل ذلك نقمة بعض من تبقى طليقًا من الفواعلية على الاحتفال والمحتفلين بينما أشقاؤهم يقبعون في الحبس.

ازدانت السراي، بعد أن انتقل إليها جمال خطاب فور إنهاء أوراق شراء العزبة من الباشا، واكتست بأبهى حللها... يزحف الخلق منها كأسراب النمل محملين بما لذ وطاب من الطعام إلى الباب الذي عاد للتلألؤ بالكلوبات، يحيطه الضاربون بالدفوف في جلاليبهم البيضاء الفضفاضة من جميع النواحي... وبرغم ضيق الحال حملت النسوة ما

تيسر من زاد فوق رؤسهن إلى المولد، طلبًا للبركة، يتلمسن طريقهن بين باعة البخور والحلوى الذين عادوا بكثافة بعد طول هجرة... كما عادت الألعاب إلى التناثر في محيط المولد... يتسابق الأطفال للوصول إلى المراجيح، بعضهم أسعده الحظ بالحصول على قطع من الكراملة فحملها ككنز ثمين ليحتفظ بها لأطول فترة ممكنة... كان المولد كما تتذكره باب الحجازي، لا يكدره سوى غياب الشيخ عبد الكريم.

بعد أن انتهى جمال من تحية المنشدين عند الباب، عاد إلى ذلك الموقع المميز الذي كان يحتفظ به أبوه لصفوة الضيوف، حيث جلس إلى جوار المأمور والأستاذ عبد الحميد يتابع الأهالي

شايف الناس فرحانين برجوعك إزاي

هكذا قال المأمور فنظر جمال في رضا ولم يعلق، فأضاف الأستاذ عبد الحميد

والله ما ناقصك غير عضوية المجلس

أنا لو اتعلمت حاجة من اللي حصل فهي إن الأحسن متبقاش في وش الناس... أنا كدة ملك، خلي اللي في وشهم يتكوي بنارهم... أنا أعمل اللي عايزه وهو يتجلد بلستهم

مين ده اللي يقدر يقربلك بعد ما رجعت الباب وخلصت البلد من الفواعلية... بس إحكيلي رجعت الباب إزاي

تبادل كل من جمال والمأمور نظرة حملت الكثير من المعاني

أبويا الله يرحمه كان متابع أخبار البلد من جناب المأمور... وكانوا دايمًا بيتشاوروا يتصرفوا إزاي مع الإمام... أبويا هو اللي كان رأيه يسيبه يكبر زي البلونة لحد ما يكبس على نفس الناس وهم اللي

يفرقعوه... في الأول أنا كنت شايف إن مفيش فايدة وإننا نسى البلد، لكن أبويا الله يرحمه كان دايمًا له رأي تاني... ولما دري إن هباب الطين ناوي يحرق الباب عرف إن نهايته قربت... ومكنش ينفع يسيبه يتحرق، فوصى جناب المأمور يشيله من البلد في الوقت المناسب... هو مكنش في نيته غير إنه يحافظ عليه... وفي الأواخر، الله يرحمه، تعب ومبقاش قادر يتابع... لكن لما جناب المأمور قالي إن الناس مستنيين الباب يرجع وإن سعيد ناوي يخلص على الإمام عرفت إن ربنا بيهيألي الفرصة علشان أرجع... وإنه ألهم أبويا، الله يرحمه، إنه يحافظ على الباب علشان يجبر بخاطره ويرجعلنا حقنا من اللي ظلمنا

اتسعت عينا الأستاذ عبد الحميد فاتسعت معها ابتسامة جمال خطاب

مش بقولك أبوك ده ولي مكشوف عنه الحجاب

## (٢)

ارتفعت الضوضاء المختلطة ببعض الزغاريد وانتشرت الفوضى في مختلف جوانب مستشفى المركز واكتظت الممرات بفائض الأعداد الغفيرة التي ملأت المستشفى عن آخرها... لم تعد الممرضات يعترضن واكتفين بتبادل النظرات المستنكرة في صمت مع دخول وفد جديد من الفلاحين إلى المستشفى الذي تحول إلى سويقة... داخل احد العنابر وضع الشيخ عبد الكريم عباءته المطوية على فخذه وافترش حصيرة الصلاة بجوار سرير سعيد الرفاعي الذي اتصل بوريده أنبوب يصب به المحلول المغذي... لا يعلم الأطباء سبب غيبوبته، رجح البعض سوء التغذية مع الربو الذي تمكن منه بالنوم في العراء... لكن الشيخ عبد الكريم أخذ يبشر الجميع أن سعيد في رحلة خاصة إلى عالم آخر غير عالمنا وأنه سيفيق فور استكماله لتلك الرحلة... لا يعلم أحد أين كان ولا كيف عاد الشيخ عبد الكريم... كل ما يعلمونه أنه لم يبرح كنف سعيد الرفاعي الغائب عن الوعي بعد أن عاود الظهور منذ أيام.

جلس الرجل محدثًا المريدين الذين تحلقوا حوله في حالة من الوله... تلتمع العيون بالشوق بينما انفرجت الشفاه عن ابتسامات رائقة تحمل الحنين إلى الماضي الجميل... كأنما طمأنت عودة الشيخ القلوب وألقمتها الأمل في العودة إلى الحياة الطبيعية... تحدث الشيخ عبد الكريم عن فضائل الصبر على البلاء... تقطعه الزغاريد التي تجلجل من حلوق الصبايا الملتحفات بالشيلان الخضراء والحمراء... يأتين للمستشفى للتأكد من خبر عودته... بعضهن يبقين بين المستمعين المأخوذين بحديثه الجذاب، يملأن أعينهن من هيئته التي مازالت تحمل إجهاد السفر.

بعد أن انتهى الشيخ من حديث قصير، أصرت الفتيات على معرفة أين اختفى منذ رحيله

في بلاد الله الواسعة

هكذا قال الشيخ عبد الكريم باقتضاب فطالبه الحاضرون بالحديث عن كرامات مولانا الحجازي... لم يعترض الشيخ عبد الكريم على غير عادته كأنما كان ينتظر السؤال، قال بصوته العميق الرائق أنه حين ترتفع روح أولياء الله، لا تسقط ورقتهم من شجرة الخلائق، لتبقي الشجرة دائمة الخضرة... يحلق الولي في عالم البرزخ بين السموات العلا... حيث الزمن اللامتناهي والفضاء اللامحدود... حيث أرواح الأنبياء والملائكة... حيث منبع المعجزات الإلهية... تسبح روحه بحمد الله وتقديسه... وبقربه من المولى عز وجل يفتح الله على روحه ببعض الكرامات... أكد الشيخ أن اليوم ليس موضع الحديث عن كرامات مضت، لم يروها ولن يعود قصها عليهم بفائدة، بل عن كرامات تحدث وستحدث تحت أعينهم.

تعالى هتاف الناس بالمدد والتكبير، بينما صمت الشيخ عبد الكريم، كأنما يستمع إلى صوت ما لا يصل غيره بينما ينظر إلى جسد سعيد

الساكن... عندما شرع في الحديث من جديد قال أن الله شديد الحب لعباده، ولذا عندما قدر المولى لهم الأرزاق، وكتب عليهم مستقبلهم، أعطاهم ما يساندهم في اختبار الدار الدنيا، ومن ذلك الماضي وأخباره، ومن لم يتعلم من الماضي كتب عليه تكرار أخطاءه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... حدثهم الشيخ عبد الكريم أن أولى الكرامات التي وقعت تحت أبصارهم جميعًا، هي حفظ الباب بعد أن تخاذل الجميع عن حمايته... حين اختبأ الخلق في الجحور خوفًا من بطش باطش، كان المولى يدبر الأسباب للحفاظ على الباب... والكرامة الأخرى هي عودة الباب من جديد إلى مكانه الأول، بعد أن فُقد الأمل في عودته... أشار الشيخ أن العظة وراء الكرامة أهم من الكرامة ذاتها، وإن لم ينتبه الخلق للحكمة من ورائها فقد خسروا خسرانًا مبينًا.

عندما صمت تساءل الجمع عن الكرامات الأخرى التي أخبرهم بأن الله سيجريها على روح مولانا الحجازي، قال الشيخ عبد الكريم بعد أن عدَّل من وضع نظارته السميكة فوق أرنبة أنفه أن مصير القرية هو مصير أهلها... ومصير أهلها هو مصير الباب... قال أن المولى سبحانه وتعالى سيفتح على قلوب أهل القرية، بنور من لدنه... يجريه على يد عبد ضعيف من عباده... ينير لهم أبصارهم وبصيرتهم، لينجو الباب ممن يترصد له بالخراب، ممن عمى عينيه الطمع والحقد... وممن يريد استغلاله... ممن يتمسح به وبحمايته بينما قلبه بعيد عنه... وتنجو معه القرية... أخبرهم أن ذلك النور سيسقي القلوب والأرواح من رحيق العزة... ولن يدع فيها موضعًا للمذلة والخضوع... أفاقت تلك الكلمات البسيطة الأمل في النفوس وأنعشته... جعلت القلوب تنز بالإيمان برحمة الله وبالأمل في غدٍ أفضل... فاضت عيون البعض ومسحت الدموع في أكمام وذيول الجلاليب النظيفة بينما طفق البعض يردد

- مدد يا سيدي يا حجازي مدد... الله على كرمك يا رب

## (٣)

مرت الأيام وانتهت الاحتفالات برجوع الباب... وسرعان ما ذهبت سكرة الفرحة مع تبخر الأمل في معجزة تُحَسِّن الأحوال كتلك التي عادت بالباب... اكتشف الناس أن دورهم لا تزال فارغة وهمومهم اليومية لم تنته... والأسوأ كان عودة استغلال رجال سيد خطاب القدامى لتلك الأحوال في التنكيل بمن ساهم في سقوطهم، أو حتى شمت فيهم يومًا... عادوا للتحكم في أرزاق العباد حتى عاد الأنين القديم إلى باب الحجازي يزحف تحت التراب... ذلك الأنين المألوف الذي طالما تعايشت معه البلدة ولايزال يطاردها كاللعنة، وماتت بعودته الأحلام بتحسن الأحوال بعودة جمال خطاب.

بينما كان رجال أبيه مشغولين في استعادة تركتهم القديمة وتعزيز أركان مكانتهم الجديدة، كان جمال مشغولًا في بناء ما يشبه المقام لوالده... في البداية كان المشروع لتزيين واجهة تربة أبيه، بعض الطلاء

تلاه بعض الزخارف الإسلامية والآيات القرآنية... ثم أزال المقابر المجاورة، متجاهلًا استياء العائلات التي اضطرت لنقل رفاة ذويها منذ جدود الجدود، وأقام حول تربة أبيه سورًا أبيض، زرع المسافة بينه وبين المقبرة بورود جلبها خصيصًا من القاهرة، وعين خفيرًا خاصًّا للعناية بها.

مع مرور الوقت صار اهتمام جمال بضريح أبيه يناهز اهتمامه بضريح الحجازي... وعندما حلت ذكرى وفاة أبيه الأولى أحضر مشاهير المقرئين إلى باب الحجازي... تلك الأسماء التي طالما سمع عنها الأهالي في الراديو والإذاعة من أهل البركة والصوت الملائكي... أقيم العزاء في الضريح نفسه الذي اتسع ليستوعب الزوار الذين سقوا الزرع وبالغوا في إظهار الحزن لفراق العبد الصالح سيد خطاب، كما وصفه الأستاذ عبد الحميد علام.

بعد انتهاء سنوية سيد خطاب بأيام، وفي سراي جمال خطاب... وقف المحمدي بعيدًا عن السجاد الباهظ كي لا يلوثه بنعله القذر، بينما جلس جمال يتناول غداءه مع المأمور... كان المحمدي كسائر المتسولين بارع في التقاط ما يعينه على قضاء حوائجه، لذا فقد بدأ حديثه بإخبار جمال أنه أتى للتو من مقبرة أبيه بعد أن قرأ له الفاتحة وترحم عليه.

والله سيدنا الحاج سيد ده كله بركة، كل ما أروح أزور قبره ويكون لي حاجة ربنا يقضيها لي على طول... ده ولي من أولياء الله الصالحين

ابتسم جمال في رضا وأشار له بالاقترا ، بينما لم تنتقل ابتسامة جمال إلى المأمور، الذي ظل وجهه حجريًّا وترك الأكل كأنما توعكت معدته لرؤية وجه المحمدي وسماع تزلفه المفضوح

- والله يا جمال باشا أنا مكسوف منك... بس..

قاطعه المأمور بصوته الأجش

أنت مش أخدت اللي اتفقنا عليه وأكتر كمان... عايز إيه تاني... ما انت لو تبطل شرب حشيش يا بهيم كان زمانك بني آدم... والله لو شوفت وش أمك تاني لأكون راميك في الحجز يا ابن المرة

ارتعشت فرائص المحمدي، فحاول جمال تدارك الموقف

معلش يا جناب المأمور، المحمدي راجلنا ويستاهل

أخرج جمال من جيب جلبابه البوبلين الإفرنجي مبلغًا من المال ناوله له فدسه الرجل في جيبه بينما قال المأمور بسخرية

جمال بيه رايح يزور سعيد النهاردة... مش حتروح معاه

انت بتضحك يا جناب المأمور... أنا مبقتش عارف أمشي في البلد... الناس عايزة تاكلني بسنانها علشان اللي جرئ لسعيد من تحت راسي... يعلم ربنا أنا ما بعرف أنام الليل من عذا الضمير... مش قادر أطلع منظره من نافوخي وهوه غرقان في دمه على الأرض والفواعلية الله لا يرجع أيامهم نزلين تقطيع في جته... الأنكئ إن الناس فاكريني منهم

لو انت من الفواعلية كان زمانك مرمي في الزنزانة دلوقتي محدش يعرفلك طريق جرة... أكتر حاجة تقدر تعتمد عليها في بلدنا إن الناس بتنسى، وبكره مش حيعود فيه حد فاكر انت عملت إيه ولا معملتش إيه... لكن أنا ما انساش اللي خدمني، خصوصًا خدمة كبيرة زي اللي انت عملتها، وزي ما انت شايف العزبة محتاجة رجالة كتيرة تشتغل فيها

هكذا قال جمال فكاد المحمدي يجثو على ركبتيه من فرط الفرح

ليقبل قدمه واتسعت ابتسامته حتى بدت أسنانه التي أهلكها الحشيش... أشار جمال لخادم كان واقفًا بجوار بيانو الباشا الإيطالي القديم الذي أصبح يستخدم كمنضدة

خد المحمدي لناظر العزبة يشوفله شغلانة... ووصيه عليه

قاد الخادم المحمدي إلى حديقة السراي، حيث كان الأستاذ عبد الحميد علام جالسًا تحت ظل شجرة وارفة مع بعض الفلاحين المنتشرين حوله على الأرض، يستمعون إلى إحدى محاضراته التي لا تقهرها قوى الأرض والسماء.

جمال بيه بيقول تشوف للمحمدي شغلانة وبيوصيك عليه يا حضرة الناظر

هكذا قال الخادم بصوته الرتيب، فنظر الأستاذ عبد الحميد إلى المحمدي باشمئزاز لم يحاول أن يخفيه... كانت عادته توزيع العمل في العزبة على المخلصين ممن ساهموا في الخلاص من الإمام، وبرغم دور المحمدي، الذي يعتبره جمال خطاب محوريًا، إلا أن الأستاذ عبد الحميد لم يكن يرى المحمدي من المخلصين... فمن باع مرة يبيع ألف مرة.

بعد صلاة العصر من ذلك اليوم، وصل جمال إلى المستشفى العام في المركز... كان الشيخ عبد الكريم مستلقيًا على جانبه في قيلولة العصرية فوق حصيرة على الأرض بجوار سعيد، وقد انفض الزحام وعاد بعض النظام إلى المستشفى... حاول جمال إقناع أم سعيد أن يدفع تكاليف العلاج أو أن ينقله إلى مستشفى أخرى نظيفة لكنها رفضت ذلك بإصرار.

عندما خرج جمال من الغرفة استوقفه في رواق المستشفى رجل هرم له وجه امتحنته نوائب الدهر، أدرك جمال على الفور أنه أحد الفلاحين الآتين لزيارة سعيد

والله البلد نورت برجوعك يا ابني

الله يخليك يا جد

كاد جمال أن ينصرف لكن الرجل أمسك بذراعه

هو...

خير يا جد

أبوك ألف رحمة ونور تنزل عليه كان راجل بتاع خير، والله بروح أقراله الفاتحة كل أسبوع... الله يرحمه كان فاتح بيوت ناس كتير بفعل الخير... أقصد يعني... انت تقدر... انت عارف الحال صعب والدنيا مبترحمش... ميغركش السن، أنا صحتي بألف عيل عنده عشرين سنة وأقدر على فعل الخير... وإحنا مش طالبين حسنة...

ربت جمال على كتف الرجل بحنو بالغ بعد أن فهم مراده

متقلقش... كل حاجة راجعة زي الأول بالضبط... وأحسن كمان... باب فعل الخير اللي كان فاتحه أبويا حيرجع تاني... وكله بالمشيئة

تهللت أسارير الكهل ودخل على أم سعيد بعد أن ودع جمال بحرارة، يبشرها أن الدنيا لازالت بخير.

## (٤)

وقع عدة أقـدام تقترب... تركض مبتعدة ثم تعود... أحاديث متداخلة... ترتفع ثم تعود لتصمت... كأنما يأتيه الصوت من داخل بئر عميق... الرؤيا ضبابية وعضلاته تخذله عندما يحاول تحريك أطرافه وألم عنيف يجتاح صدره مع كل نفس يأخذه... عندما فتح عينيه من جديد لم يميز الوجوه التي تنظر إليه... كان في مكان غريب لم يميزه... بجواره منضدة تبعثرت عليها علب دواء فارغة... في الجهة الأخرى قائم طلي باللون الأبيض في محاولة فشلت لإخفاء الصدأ، علق عليه محلول أدرك أنه يصب في وريده... يسمع اسمه... سعيد... شعر بارتياب تحول إلى رعب حتى تبين وجهًا اشتاق لرؤياه... وجه أمه... حاول أن يعتدل لكنه عجز عن ذلك مع تصاعد الألم في جسده فحل عليه كآخر ذكرى له قبل أن يغمض عينه... عندما بدأ يتبين الكلام حوله كان أول ما سمعه هو

الله أكبر... الله أكبر... مدد يا سيدي الحجازي مدد... والله دي بركتك يا مولانا

ميز صوت أمه بصعوبة... عندما اعتدل أخيرًا بمساعدتها، وجد الشيخ عبد الكريم أمامه، يرتدي الطاقية البفتة البيضاء، يبتسم له ويتمتم بالذكر بينما يمسح على جبهته.

توافد الكثير من أهل القرية فور انتشار الخبر حتى ضاقت بهم الغرفة، واضطرت التمرجيات متعكرات المزاج للشجار مع الكثير منهم، في محاولة يائسة لإخراجهم من الجناح... استمع سعيد إلى السرد الجماعي لما حدث في البلدة منذ غيابه عنها... عودة الباب وهروب الإمام وانكماش الفواعلية وجمال خطاب الذي أصبح مالك العزبة الجديد... بدت له تلك الحكاوي ضربًا من الخيال... كما أخبرته أمه فيما يشبه الاعتذار أن أخاه مصطفى كان يأتي لزيارته منذ أن علم بما أصابه كلما سمح له وقت العمل، فقد عاد إلى عمله القديم في المدابغ... أخبرته أنه يبعث لهم بما يكفي احتياجات الدار، وراحت تؤكد أنه سيطير فرحًا عندما يعلم بإفاقته... ابتسم سعيد ابتسامة هزيلة... لا يدري لم تذكر حكاية مصطفى عن أصل الحجازي... بدت له تلك الحكاية كذكرى بعيدة لكنه أدرك أن الحكايات عديدة وبعضها بلا أصل... الأهم هو ما يصدقه القلب... وقلبه يحدثه أن مصطفى سيأتي ليزوره قريبًا... وربما يعود إلى قرية أبيه ذات يوم... وحينها ستجمعهما جلسات السماع.

في المساء حينما اختلى سعيد بالشيخ عبد الكريم، أراد أن يعيد إليه الخرقة الصوفية... برغم إضاءة الغرفة المحتضرة، إلا أن سعيد ميز ابتسامة الشيخ التي اتسعت عندما رأى الخرقة وعينيه التي التمعت بالدمع... كصديق اشتاق إلى خليله... لكنه لم يأخذها واكتفى بالشد على يديه

سيبها لصاحبها

افترش الشيخ الحصيرة على مهل بجوار فراشه استعدادًا لجلسة الذكر

بينما لم يبد على سعيد أنه فهم فعاود السؤال عما يقصد... راح الشيخ يشكو من آلام مفاصله ثم أضاف بابتسامة صافية

حكمة المولى إن الحديث لابد يولد من رحم القديم... الزمان مبقاش زماني أنا واللي زيي

عندها قال سعيد بحروفه الثقيلة أن الماضي لا يلد سوى الماضي والزمان لم يعد زمان أحد... فصمت الشيخ برهة

الماضي غروره مصيره يقتله... والمولى خلق الدنيا في سبع أيام... الحق والباطل يا ابن الأكابر في صراع لحد ما تستوفى الحكمة... والجولة النهائية محسومة... بس الصبر... ويقين المؤمن باقي مهما طال الزمن... بس فين البصيرة

هكذا ردد الشيخ عبد الكريم كأنما يحلم قبل أن يطأطئ رأسه وينخفض صوته ليصبح همسًا مع انغماسه في جلسة الذكر الخاصة به تاركًا سعيد يطالع الفراغ بعد كلماته المبهمة... يخامره السؤال إن كان سيجرؤ على الحلم من جديد أم أنه اكتفى بما أصابه.

خرج سعيد من المستشفى بعد عدة أيام في موكب من أهل القرية أحاطوه من باب المستشفى حتى وصل إلى عتبه داره

حمد الله على سلامتك... نورت دارك يا ضاي

ابتسم سعيد في ضعف بينما أمه تضع الوسادة وراء ظهره

البلد كلها مستنياك يا ابن الأكابر... شد حيلك

هكذا قال الشيخ عبد الكريم وهو يمسح على جبهة سعيد الذي بادله الابتسام قبل أن يغادره الشيخ ليعود لأول مرة إلى الباب... لم تخل الدار تلك الليلة من الزوار والمهنئين... ومع رحيلهم بحلول الليل وبعد أن

أطفِئت الأنوار وهجعت القرية، تسلل سعيد خارجًا من الدار نحو الغيطان... قطع طريقه في ظلام الليل نحو الجهة الشرقية من البلدة حتى وصل المقابر... حيث يرقد أبوه وأخته متجاورين... حيث ظل يفترش الأرض هو الآخر في صمت يقطعه نحيبه حتى الفجر.

صباح اليوم التالي تراصت أوانٍ فخارية كبيرة في صحن دار علي الرفاعي، بات فيها اللبن أيام حتى تراكمت فوق سطحه القشدة المختومة... نزعتها أم سعيد ووضعتها في برام فخاري خاص بها، استعدادًا لبدء الخبيز... تزاحمت النسوة المشاركات في الاحتفال بعودة سعيد إلى الدار... تضج الجلسة بضحكات الصبايا والنميمة التي لا تنتهي... لأول مرة تزور الضحكة شفتا أم سعيد على استحياء منذ فترة طويلة، لا تتذكر مداها.

صلاة النبي من العين

هكذا قالت فاطنة وهي تدخل الدار برجلها اليمنى وتخلع طرحتها وتزيح بعض النسوة لتقترب من الفرن

والله سعيد ده قرفته حلوة... شايفين الخبيز الله ينور

عايزين نجوزه بقى

هكذا قالت إحدى النسوة فسارعت فاطنة بالقول

أنا أطلق المنيل رمضان وأتجوزه... بس هو يوافق... يا سعدها يا هناها اللي حيتجوزها ابن الأكابر... مسمعتيش انتي يا أم سعيد الشيخ عبد الكريم... مش بينادي سعيد إلا أما يقوله ابن الأكابر... والله انا من فرحتي مش عارفة اعمل إيه

قومي اتحزمي يا بت يا فاطنة

هكذا تصايحت النسوة فأشاحت أم سعيد بوجهها إلى الفرن واخفت سريعًا دمعة سالت على وجنتها عندما تذكرت زينب، لكنها لم تمانع... ولم تكن فاطنة في حاجة إلى الكثير من الإقناع... جلس أخوة سعيد الصغار بجوار جمع من الأطفال يشاهدون فاطنة التي قامت تهز أردافها، تتعمد أن تعبث بخيال الأطفال الذين لم يرفعوا أعينهم من عليها، بينما النسوة والصبايا ممن لم تنشغل أيديهن بالخبيز يصفقون لها.

بحلول المساء وزعت القرص والمخبوزات على الدور، وجلس الرجال يأكلون منها على المساطب... برغم أن ربوع المحروسة في ذلك اليوم لم يكن لها حديث سوى عن خبر واحد... إلا أن مقتل السادات على أيدي المتطرفين لم يكن محور حديث مساطب باب الحجازي تلك الليلة... كان حديث المساطب عن حكاوي أهلها... وتلك الحكاوي هي المكان الوحيد الذي يحفظ فيه الأهالي تاريخهم.

تراص الرجال والنساء على مسطبة السناري تلك الليلة، وتعددت الحكايات عن سعيد الرفاعي، وكالعادة، كانت الجلسة لا تكتمل بدون وجود كامل المجذوب، وهو في هذه الحكاية بالذات ليس راويًا فقط، بل هو أحد صانعي أحداثها، جلس كامل على الأرض بجوار كلبته ليقص على المستمعين بلثغته المحببة الحكاية منذ بدايتها، أو ما يعتقد الجميع أنه البداية، منذ أن ضرب سعيد الإمام في عرض الشارع وأبقاه في داره ليداري وجهه المحطم... يقلد لهم الإمام وهو يصرخ كالنساء بينما سعيد يصفعه على قفاه... يحكي لهم كيف كان سعيد يقضي أيامه في العراء، كيف سرق له بنفسه الورق الذي خط عليه رسومات الباب من دكان الإمام... ذلك الورق الذي لم يعد سجين الشقوق وأصبح مصدر فخر ودليل على الشجاعة لكل دار تمتلك إحدى نسخه... ثم

ينتقل الحديث إلى أبطال الحكاية ممن نالوا شرف استضافة سعيد خلال تلك الأيام القلائل التي سبقت القبض عليه... يضيف كل متحدث بعض التفاصيل التي عايشها، أو التي سمع بها، أو التي انتهى للتو من تأليفها من نسج خياله كي لا يُخلّف بلا إضافة للحديث الدائر... يصفون سعيد بصفات عظيمة، يمدحون حياءه وشجاعته، البعض يتكلم عن حكمته التي أُسيء فهمها من قبل حينما كان يعتقد أنه ممسوس... تليها وصلة من السباب للمحمدي الخائن وينتهي الحديث بالدعاء لسعيد باكتمال شفائه على خير.

ظلت الحكاوي تنمو... يتناقل تفاصيلها الرجال، ويستمتع بسماعها الصغار عند أرجلهم... وهكذا تعيش تلك الحكاوي في ضمير البلدة تتحدى النسيان... يكبر الطفل منذ نعومة أظافره يطالع أباه جالسًا في ليالي السمر على المسطبة مع خلانه يقص حكاوي القرية، الجديدة منها والقديمة... يستمع إليها الطفل في انبهار ويراقب الحديث المسترسل الذي قد تتخلله كركرة الجوزة... ثم يكبر فيحتل مكانه في المسطبة حينما يصبح في مصاف الرجال ليشاركهم حديثهم... وبمرور الزمن يهرم هو بدوره ليفاجأ بأولاده أصبحوا رجالًا يجالسونه على المسطبة... يتساءل أين ذهب العمر وفيما مضى، فلا يجد مجيبًا سوى المسطبة التي بقيت شاهدة على كل تاريخه تحمل في جعبة حكاويها كل ذكرياته.

يتشعب الحديث أحيانًا لينبش في دروب الذكريات القديمة، فيستعيد الرجال ذكرى علي الرفاعي... ذلك الرجل الذي أحبوه بصدق، كم كان سيفتخر اليوم بولده سعيد الذي قهر الإمام... وبرغم أن الحديث عنه يقترن بالسباب خاصة بعد انتشار شائعات تتهمه أنه المتسبب في الحريق الذي كاد أن يهلك البلدة... إلا أن التساؤل كثيرًا ما يظهر عن مكان إختفاء الإمام، بعد أن هرب قبل أن يفتكوا به... يقول البعض أنه ذهب

بلا رجعة... بينما البعض الآخر يرجح أنه استقر بالقاهرة حيث اختفى في الزحام هناك، وأنه سيعود يومًا لينتقم.

بحلول صلاة الجمعة، خرجت باب الحجازي نحو الجامع الكبير... يتمتم الرجال بالتسابيح في جنبات الجامع... يسترجع البعض أقوال الدراويش، الذين عاد بعضهم إلى الباب، أن العالم السفلي يخضع لعالمنا بذكر الله وبنور نبيه الحبيب محمد... وكلا العالمين يخضعان لعالم السموات حيث نور الله المطلق، جل جلاله... إلا أنهم الآن يتعوذون في دعائهم من عالم البشر أكثر من تعوذهم من العالم السفلي... تلك التجربة المريرة التي مرت بها باب الحجازي جعلتهم يوقنون بصدق مقولة "ما شيطان إلا إنسي"

اصطف سعيد في مكانه بمؤخرة الجامع حيث الحصير المتهالك برغم احتجاجات الأهالي، في حين ارتقى المنبر الخطيب الأزهري الذي عاد منذ رحيل الإمام... طالع سعيد الشيخ الذي راح يخطب في رتابة من امتهن الخطابة كأنما ينظر إلى الفراغ... كان الشيخ يخطب عن خطورة التطرف الديني، وعن الشوائب الفكرية التي ابتليت بها الأمة ونتجت عنها موجة الإرهاب التي كان ضحيتها السادات والتي كان لباب الحجازي منها نصيب حتى أراد الله أن يرفع عنا البلاء ويبدلنا خيرًا... وختم الرجل خطبته بالتذكير بوجوب طاعة أولي الأمر... كانت تلك من المرات القلائل التي لم يتبه فيها سعيد لأي كلمة في خطبة الجمعة... حتى أنه لم يعرف موضوعها... نهض أوتوماتيكيًا عندما قام الناس... كان حاضرًا بجسده فقط بينما عقله يحلق في مكان آخر... حيث يخلق به واقعًا جديدًا لم تكتمل تفاصيله بعد... يكسوه بألوان زاهية... عالمه الخاص... حيث قدر للماضي العطن أن يندحر في مملكة الأحلام.

بجوار جذع الشجرة المقطوع كان كامل المجذوب يستظل باللوحة التي بدأ الصدأ العنيد في غزو جنباتها من جديد لسوء الطلاء، يطالع بنصف انتباه الأهالي الذين التفوا حول جمال خطاب فور خروجه من الجامع بينما يرمي كسر الخبز لكلبته التي أرهقها الحر... استقر سعيد بجواره... وأخذا يتابعان سويًّا جمال خطاب الذي شد على يد الشيخ الأزهري في ود ثم سارا سويًّا باتجاه العزبة حيث يُعد الغداء، بينما صاح بعض المارة بتحية سعيد الذي اكتفى بالتلويح لهم... كمطرب أخرس يحاول إسماع قرية أدمنت الصمم.

لا يوجد مستبدون إذا لم يوجد عبيد.

خوسيه ريزال

قد لا يدرك المرء ما الذي فعله ليستحق وجود هذا الكم من الأشخاص الرائعين في حياته... ولخلق ذلك التوازن عصي المنال بين السيدات والسادة... ها أنا أفرد هذه المساحة "الصغيرة" للسادة بعد أن كان الإهداء للسيدات:

إلى أستاذي ووالدي، محمد عبداللطيف البنا، أستاذ اللغة العربية الذي حببها إليّ منذ نعومة أظافري... وإلى معلمي، الأستاذ سعيد البنا، يا من جعل للأدب وللقراءة تلك النكهة المحببة... شكرًا لكما

إلى الصديقين، الأستاذ أحمد عبد المجيد والأستاذ هاني عبد الله، شكرًا لتحويل الحلم إلى حقيقة، شكرًا على الكلمات الرقيقة ودماثة الخلق.

شكر ذو نكهة خاصة إلى الشلة إياها... تعلمون أنفسكم وتعلمون ما أود قوله، وهو لا يصلح للطباعة بأية حال :-)

لأن الخيوط الخفية هي أقوى العلاقات

facebook· com/EslamElbanaAuthor

eslam· elbana@gmail· com

twitter@ElbanaEslam

"Invisible threads are the strongest ties."

— Friedrich Nietzsche